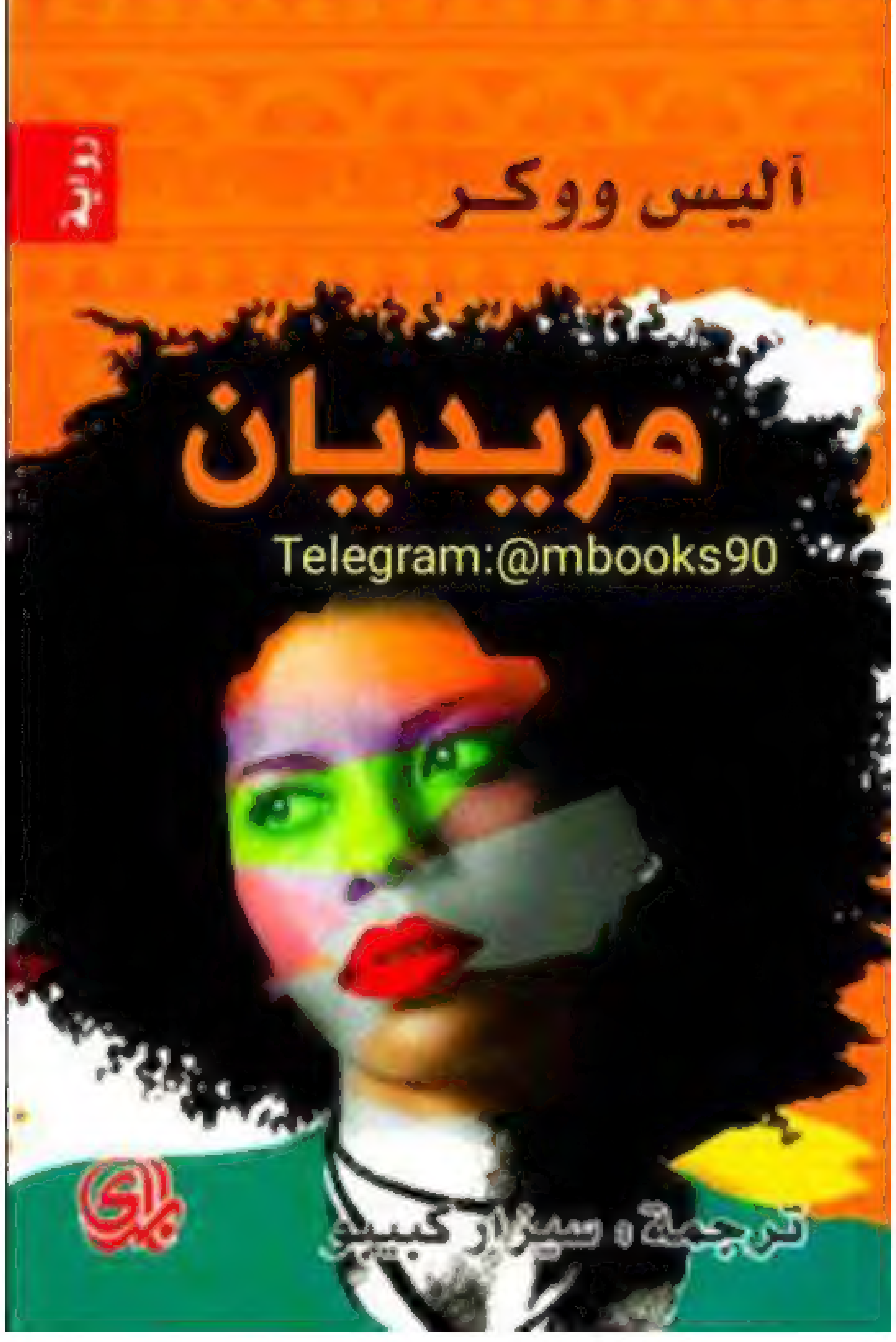

رواية
أليس ووكر
مريديان
Telegram:@mbooks90
ترجمة : سيزار كبيبو

إلى ستاتن ولبند ومريام إل

وإلى جون لويس المهفش



لم أعِ حينها مدى فداحة ما مات. عندما أستعيد ما حدث الآن... لا زال بوسعي رؤية النسوة والأطفال المذبوحين، ممدين ومكوّمين فوق بعضهم بعضاً، ومبعثرين على طول الفج العميق المتعرج، تراهم عيناي بالوضوح ذاته الذي رأتهم فيه عينا الشاب الذي كنت عليه وقتئذٍ. كما يمكنني رؤية شيء آخر مات هناك في الوحل المدمى، لتطويه العاصفة الثلجية وتدفنه. حلم شعب مات هناك. كان حلماً جميلاً... انفرط عقد سبحة الأمة وتبعثرت أحجارها. تلاشى المركز، والشجرة المقدسة ماتت.

بلاك إلك، من كتاب «بلاك إلك يتحدث»

مقدمة

على غرار معظم القضايا التي تطرحها في أعمالها، تتقاطع القضايا التي تتناولها آليس ووكر في رواية «مريديان» (1976) مع قضايا جميع الشعوب التي تعاني الظلم والعنصرية والجهل والاضطهاد، ولربما يشعر القارئ في العالم العربي أنها تتحدث عنه بالذات، أو عن أشخاص عاصرهم أو سمع عنهم (هذا ما حدث معي على الأقل أثناء ترجمتي لرواية «مريديان»).

ويتضح ذلك أكثر مع معرفة أن السؤال الأساسي الذي تتمحور حوله الرواية هو «هل يجوز للمرء أن يقتل إنساناً آخر في سبيل الثورة؟». تطرح ووكر أسئلتها التي لا تنام من خلال بطلة الرواية مريديان، وتتساءل حول مدى صحة لجوء حركة الحقوق المدنية التي نشطت في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين إلى العنف دفاعاً عن حقوق السود في أميركا، وتتساءل إن كان يمكن لشرارة الثورة أن تشتعل بجريمة قتل؟

تضع ووكر بطلتها مريديان وجهاً لوجه أمام كل هذه الأسئلة عندما يسألها زملاؤها في الحركة «هل أنت على استعداد للقتل من أجل الثورة؟»، لتجد مريديان نفسها أمام مفترق طرق: إما أن ترد بالإيجاب، أو تختار طريقتها الخاصة في التمرد وتسعى لإيجاد تعريف جديد للثورة، لتغدو- وكما يعني اسمها وفق القاموس- البوصلة التي تقود إلى الخلاص.

وأمام تغوّل الوحشية وارتفاع الأصوات الداعية إلى سفك الدماء ورفض الآخر، تقترح ووكر حلولاً عديدة، قد يكون الصمت إحداها، ليغدو الصمت سلاحاً شرعياً ضد مجتمع ينبذ كل من يغرد خارج السرب، وإن لم يكن الصمت حلاً ناجعاً، فلم لا نجرب الغناء مثلاً.

لا يبدو الغناء بالنسبة إلى ووكر حلاً غير واقعي على الإطلاق، وتبدو متصالحة تماماً مع قناعتها بانتصار الجمال على القبح والغفران على الثأر ودعوات السلام على دعوات

الحرب. وتعتبر ووكر أن الأغاني هي من يوحد الناس ويبقيهم يداً واحدة، وعلى لسان مريديان مجدداً، تقول ووكر: «عندما يتوقفون لمسح آثار الدماء ويجدون أن حناجرهم مختنقة برائحة اللحم المسفوك لدرجة يقفون أمامها عاجزين عن الغناء، سأتقدم لأغني أغانٍ محفورة في الذاكرة سيحتاجون سماعها مجدداً. لأن أغنية الشعب، التي تنقلها تجارب كل جيل، هي ما يبقيهم يداً واحدة».

بعد ثلاثين عاماً بالضبط على كتابة «مريديان»، تعيد ووكر مجدداً دعوتها للغناء كوسيلة للصمود والمحافظة على الهوية والتعاضد، وخلال لقائها مع القراء في رام الله عام 2016، تحدثت ووكر عن أغاني الحرية الأفريقية التي عزفتها شقيقتها عليها عندما كانت في الخامسة من عمرها، وخاطبت ووكر قراءها بالقول: «رغم جهلي لأغانيكم، فأنا على ثقة من أنها أغانٍ جميلة جداً وإلا لما كانت أعانتكم على الصمود كل هذه السنين. أؤمن أن الأغاني تجسد روح المقاومة والمعاناة».

لا تتوانى ووكر عن تجربة كافة الحلول للوصول إلى مجتمع صحي، ينتصر فيه الإنسان لإنسانيته، ومن خلال مريديان، تصر ووكر على تذكيرنا بالإنسان الرابض داخلنا، ومدى الجمال الذي نجده في أنفسنا وفي الآخرين عندما نراه.

سيزار كبيبو

معنى كلمة مريديان في القاموس

مريديان: اسم. [باللاتينية meridianus خط الزوال، متعلق بمنتصف النهار، أو بالجنوب، مشتقة من الكلمة اللاتينية meridies، أي الظهيرة، منتصف النهار، الجنوب؛ الإصبع الوسطى، المنتصف، وحجر النرد، يوم.]

1. النقطة الأعلى الظاهرة التي يصلها جرم سماوي في مساره.

2. (أ) ذروة القوة والازدهار والعظمة، إلخ؛ أقصى نقطة، الأوج؛ القمة؛ (ب) فترة منتصف العمر عندما يكون المرء في أحسن حالاته الصحية، ويتمتع بأقصى درجات الحيوية، إلخ؛ ريعان الشباب.

1. الظهيرة. [ملاحظة]

2. في علم الفلك، دائرة افتراضية كبيرة من القبة السماوية تعبر قطبي السماء وأعلى وأخفض مكان لأيّ نقطة محددة، تمرّ بخط الاستواء عند الزوايا الصحيحة.

3. في الجغرافيا، (أ) دائرة كبيرة من الأرض تعبر القطبين الجغرافيين وأيّ نقطة محددة من سطح الأرض؛ (ب) نصف هذه الدائرة بين القطبين؛ (جـ) أي خط من خطوط الزوال الذي يمتد شمالاً وجنوباً على الكرة الأرضية أو على خريطة، تمثل الدائرة المذكورة آنفاً أو نصف دائرة.

4. (أ) مكان أو موقع يمتاز بخصائصه الفريدة؛ (ب) خاصية فريدة.

5. خاتم تخرّج مصنوع من النحاس، يتميز بوجود كرة معلّقة يمكن تدويرها.

خط الزوال الواصل بين القطبين: راجع خط الزوال الرئيس ضمن كلمة الرئيس.
خط الزوال المغناطيسي: خط زوال يُحدد مكانه بدقة ويمكن على أساسه إنشاء خط

الطول الواصل بين القطبين أو خطّ الزوال الرئيس.

مريديان:

1. عند الظهيرة أو، على نحوٍ خاص، موقع أو قوة الشمس عند الظهيرة.

2. عبور ذروة المسار اليومي لأيّ جرم سماوي.

3. على طول خطّ طول.

4. ذروة الازدهار والعظمة والقوة إلخ.

5. جنوبي [نادر الاستخدام]

العودة الأخيرة

دخل ترومان هيلد بلدة «تشيكوكيما» الصغيرة متهادياً في سيارته، بينما كان الرجلان الأسودان العاملان في محطة البترول التي توقف عندها لتزويد سيارته بالوقود يتناولان غداءهما. نظرا نحوه حين ترجّل من سيارته فرفعا علبتي الكوكا كولا وحيّاه. كانا جالسين في المرآب على صندوقين، درءاً لأشعة الشمس، ويتحدثان بتؤدة وبصوت خفيض، بينما كان ترومان يمضغ قطعة حلوى مراقباً الفتى الأبيض الذي غادر متجهاً مكتب المحطة قاصداً سيارته لملئها بالوقود. قاد ترومان سيارته الليل بطوله من مدينة نيويورك إلى هنا، وغطى الشحم والغبار سيارته «الفولفو» الخضراء، بينما استحال الخط الفضي المائل على شبكة التهوية إلى اللون الأسود، جزاء الحشرات المسحوقة الملتصقة به.

صرخ وهو يدنو من المرآب: «هل تعرفان أين يمكنني غسل سيارتي؟».

قال أحد الرجلين: «بالتأكيد»، نهض ببطء، شرب ما تبقى في علبة الكولا حتى آخر قطرة. كان يوجه سبابته المقوسة مشيراً إلى المكان عندما اندفع نحوه صبي صغير يرتدي سروال جينز ممزقاً، وكادت قوة اصطدامه به تطرح العجوز أرضاً.

قال العجوز وهو يحاول استعادة توازنه: «على رسلك، لحظة، أين الحريق؟».

قال الصبي لاهثاً: «ليس هناك من حريق. تلك السيدة التي ترتدي القبعة تواجه الدبابة!».

صاح الرجل الآخر بينما كان على وشك دس نصف قطعة من حلوى «الدونات» في فمه: «يا إلهي». مسح هو والرجل الآخر يديهما بسرعة ببدلتهما البرتقالية ونظرا إلى الساعة المعلقة في المرآب. قال الرجل الذي يحمل قطعة «الدونات»: «لدينا متسع من الوقت».

ردّ الآخر: «أظن ذلك».

سأل ترومان: «ماذا حصل؟ إلى أين أنتما ذاهبان؟».

الصبيّ الذي نقل الخبر حصل الآن على نصف قطعة «الدونات» وشرع بمضغها بسرعة، فيما رنت عينه إلى علبة الكولا التي خلّفها الرجلان وراءهما. تمتم بفم ملآن: «يوجد في هذه البلدة دبابة كبيرة قديمة تابعة للجيش، وسوف يوجهونها الآن نحو السيدة ذات القبعة، لأنها تتصرف وكأنها لا تعرف حتى أن لديهم دبابة».

كان قد ابتلع قطعة «الدونات» وأجهز أيضاً على الكولا وقال: «عليّ الذهاب». لحق بعاملَي المحطة اللذين كانا قد هرولا وانعطفا عند الزاوية وغابا عن الأنظار.

لدى بلدة «تشيكوكيما» دبابة بالفعل. جُلبت في حقبة الستينيات عندما توجس سكان البلدة البيض خيفة من خطر هجوم «المخربين الأغراب» عليهم- أي جماعات من السود الذين آمنوا بأن المساواة في الحقوق بين الجميع يجب أن تشمل السود أيضاً. لوّنوا الدبابة بالأبيض، ووضعوا الشرائط على سطحها «شرائط حمراً وبيضاً وبالطبع زرقاً» وركنوها في الميدان العام. كان إلى جوارها تمثال جندي كونفيدرالي وجهه متجه نحو الشمال، فيما سُحقت ساقه اليمنى أثناء ركن الدبابة، لتبقى مهشّمة للأبد.

الأمر الأول الذي لفت انتباه ترومان هو أنه على الرغم من امتلاء الشوارع المفضية إلى الميدان بالناس، فإن أحداً لم ينبس ببنت شفة. وخيّم وجوم مطبق يوحي بأن الناس قد توقفوا حتى عن التنفس. بدا وقع خطواته على الرصيف عالياً. ولولا السكون غير العادي الذي أطبق على المكان، لكان الميدان مثله مثل أيّ ميدان آخر في مئات البلدات الجنوبية الصغيرة، إذ أحاطت بالمحكمة ذات السطح القرميدي بقعة رحبة من العشب الذي أحرقته الشمس على نحوٍ غير متجانس، وكان هناك على الأطراف أشجار باسقة من الصنوبر والمغنوليا، فيما انبسطت الممرات الإسمنتية حارة ونظيفة وخالية تماماً من أي قاذورات، اللهم إلا من علكة مرمية هنا أو هناك، قد تعلق في أسفل الحذاء.

على جهة الميدان حيث يقف ترومان الآن، كانت المتاجر متهالكة، فيما لافتاتها الإعلانية التي تروّج لمنتجات التبغ والبيرة من نوع «أولد ميلواكي» قد بهتت جزاء بقائها تحت لسعات أشعة الشمس اللاهبة لسنين عديدة. المتاجر الموجودة حول الميدان كانت أفضل حالاً. وقفت مانيكانات ألبسوها حديثاً ثياباً جديدة، خلف الألواح الزجاجية اللامعة والأحواض العامرة بأزهار البلسم الحمر.

سأل: «ماذا يجري؟» وهو يدنو من رجل عجوز انحنى بأناة ووقف جامداً مثل طائر على مكنسته العريضة. أجاب الكنّاس، رامقاً ترومان بنظرة فاحصة بينما أحكم قبضته على مكنسته، متكئاً عليها: «أراد بعض الأولاد الدخول لرؤية السيدة الميتة. أقصد المومياء، في المقطورة هناك، بينما اليوم المحدد لنا لرؤيتها هو الخميس».

«اليوم المحدد لتروها؟».

«نعم هذا ما قلته».

«لكن حركة الحقوق المدنية غيّرت كل هذا!».

قال الكنّاس متجهماً، كما لو أنه يتحدى ترومان أن يخالفه الرأي: «رأيت الحقوق وهي تأتي ورأيتها وهي تذهب. لست من هذه البلدة وإلّا لكنت عرفت أن هذا ينطبق على العاملين في مصنع السماد خارج البلدة. مساكين».

«يدّعي الناس الذين لا يتعين عليهم العمل في ذلك المعمل أن العاملين هناك نتنون تصدر عنهم رائحة كريهة جداً لدرجة لا يطيقون التواجد معهم في مكان واحد. لكنك تعرف المواد التي يتكون منها السماد. يا للهول. لو كنتَ تعمل هناك لصدرتْ عنك أنت أيضاً رائحة أسوأ من رائحة السمك النافق!».

«لكنك لا تعمل هناك، أليس كذلك؟».

«كنت أعمل هناك. خسرت العمل لأنني طاعن في السن».

وقفت على يسارهما في الميدان عربة سيرك حمراء وذهبية تلمع تحت الشمس، وكُتب بأحرف ذهبية ممطوطة مزخرفة ذات حوافّ فضية «مرلين أوشاي، إحدى العجائب البشرية الاثنتي عشرة في العالم أسلمت الروح عن عمر يناهز الخامسة والعشرين، جثمانها على حاله كما لو أنها لا تزال على قيد الحياة». تحت هذه الكلمات، كُتب على عجل فوق أربع نجوم كبيرة، بأحرف حمر أصغر بدت كخربشات: «ابنة مطيعة»، وكُتبت عبارة أخرى: «زوجة مخلصة». وعبارة ثالثة: «أمّ مبجّلة»، و«الضالّة». انبثق من العبارة الرابعة خطّ عمودي من المصابيح المرتعشة على شكل دموع غزيرة

ضحك ترومان: «لا بدّ وأن هذا احتيال». قال الكناس. «بالطبع هذا احتيال»، وبصق على الأرض «لكنك تعرف الأطفال، يحبون رؤية كل ما هو غريب».

كان الأطفال على الجهة المقابلة للميدان من عربة السيرك، وحجبت دبابة الجيش عنهم رؤية العربة جزئياً. ارتدوا زيّاً مدرسياً باللونين الأسود والأصفر، وتحلّقوا مثل سرب نحل حول شخص أو شيء ما. يثرثرون ويومئون جميعهم في الوقت ذاته، محدثين أزيزاً وجلبة.

دسّ الكنّاس يده في جيبه الخلفي وأخرج منشوراً زهرياً. ناوله إياه ليقرأه. حمل المنشور عنوان: «القصة الحقيقية لمرلين أوشاي». وفقاً للكاتب، وهو هنري زوج مرلين، فإنها كانت سيدة مثالية، «إلهة»، وهبت «كل ما ظنت أنها تريده» كان لديها غسالة وفراء وسيارة خاصة ومديرة منزل وطاهية تعمل في خدمتها على مدار اليوم كل ما كان عليها فعله، حسب ما كتبه هنري، هو «الاستلقاء والاستمتاع». ولكن «أفسدها الكلام المعسول

لأشرار يعيشون في بروج عاجية قصية»، فهجرت البيت وتبعت «ملذاتها» فيما انتظرت منه التكفّل بدفع الفواتير.

أكثر ما يبعث على الاستغراب حول جسدها المتيبس، وفقاً لمنشور هنري، والأمر الذي أزعجه أكثر من أيّ شيء آخر- على الرغم من أن هذا الأمر إن نمّ عن شيء فإنه ينمّ عن خطيئتها- هو أن لونه قد أصبح أكثر دكنة بعد تجفيفه بالملح. ورغم محاولاته من وقت لآخر صبغ جثمانها بلون بشرتها الأصلي، إلّا أن الصباغ دائماً ما كان يفسد ولذا يتوجب على المتفرّجين على رفاتها الاقتناع بعرق زوجته من خلال استرسال شعرها ولونه الأحمر.

أعاد ترومان المنشور ونخر باهمتزاز. الأطفال المنتشرون في أرجاء الميدان بدؤوا يتحركون ويدورون بسرعة كما لو أنهم يحاولون تشكيل طابور. شيء ما يتعلق بتوليفة المجموعة أزعجه.

قال بعد برهة، مركّزاً نظره مجدداً على الكنّاس: «جميعهم من السود. كما أنهم صغار جدّاً على العمل في معمل»، قال الكنّاس مشيراً بيده، «أولاً، ثمة بعض الأطفال البيض في المجموعة. غير أن الملونين طغوا عليهم بعض الشيء. وثانياً، الناس الذين لا يعملون في معمل السماد لا يفرّقون بين الأمهات والآباء العاملين في المعمل وبين أطفالهم، ويعتبرون أن رائحة أطفالهم نتنة أيضاً، مدعين أن رائحة السماد تعلق بهم ولا تزول».

«اكتسب زوج تلك السيدة المومياء حظوة كبيرة لدى الطبقة الراقية بسرعة قياسية: حين جاء أطفال العاملين في المعمل ليختلسوا نظرة على زوجته الهرمة المالحة البدينة وبينما كان بعضهم هناك نعتهم بالأوغاد القذرين الصغار وهشّهم لإبعادهم. هنا ظهرت تلك الصبية الغريبة الأطوار التي كانت تتبختر في البلدة السمة الفاتنة. بدأت بتجميع كل من وقعت يداها عليه من الأطفال الفقراء. بدت منهكة وغريبة في تلك القبعة القديمة التي ارتدتها وكان يُخيّل للمرء أنهم سيخافون منها- كانوا صغاراً جداً ومن الصعب أن يتذكروا

ما حدث عندما كان السود يخرجون في الكثير من المظاهرات- لكنهم لم يخافوا»

مستجمعاً أنفاسه، وقف ترومان على أطراف أصابعه وضيق فتحتي عينيه ومسح بنظره الميدان. بين الأطفال، مباشرة في الجهة المقابلة لعربة السيرك والدبابة، وقفت مريديان، مرتدية بزة العمل وقبعة زاهية ذات حافة واقية من الشمس، كالتي يرتديها مشغّلو القطارات. على جانبيها، بمحاذاة صف المتاجر المغمورة بأشعة الشمس، وقف حشد من البيض كان يزداد عدده باطراد. وعلى طول المتاجر المتهالكة حيث وقف ترومان والكناس، تواجد حشد من السود الجامدين كالأموات. انشقت سيدة بيضاء عن حشد البيض وسحبت أحد الأولاد البيض، كانت تربّت على كتفيه وهي تمشي إلى جواره إلى أن تواريا عن الأنظار. نظر ترومان بجزع وحذر إلى الدبابة الجاثمة في مركز الميدان. في تلك اللحظة، كان رجلان يزحمان إلى داخلها، واندفعت كتيبة من الشرطة، وقد استلّوا بنادقهم، للدفاع عن عربة السيرك.

بدا وكأن مريديان قد أمهلتهم بعض الوقت لينظموا صفوفهم عندما أصبح الرجلان داخل الدبابة وحركا فوهتها باتجاهها، بينما كان الآخرون يصطفون في طابور عند مقدمة العربة، رفعت يدها لمرة واحدة ومشت بخطوات عسكرية، على طول الرصيف. حذا الأولاد حذوها ومشوا في صف واحد خلفها، شمخت رؤوسهم فيما كشطت أقدامهم الرصيف. تمتم ترومان: «سيبدؤون الغناء الآن». لكنهم لم يفعلوا.

لم تنظر مريديان شمالاً أو يميناً. اجتازت الناس الذين تسمرت أنظارهم عليها كما لو أنها لم تتبيّن أنهم هنا من أجلها وحدها. مع اقترابها من الدبابة، أجفل الصوت المدوي لمحركها سرباً من الحمام راح يرفرف مبتعداً في الجو، ورافق هدير المحرك صوت رشق ناري سريع، وتحركت فوهة الدبابة بغنج من جهة إلى أخرى- كما لو أنها تحاول إثارة حنقها- قبل أن تستقر على صدرها مباشرة. مع دنوها من الدبابة، بدت الأخيرة أكبر حجماً وأكثر بياضاً من

أي وقت مضى فيما بدت مريديان أصغر وأكثر سواداً من قبل وبعدها عندما وصلت إلى الدبابة، قفزت بخفة وتعمدت الوقوف أمامها مباشرة، طرقت بقوة على غطائها الصلب- كما لو أنها تقرع باباً- ثم رفعت يدها مجدداً. تقدم الأطفال متخطين صفوف المسلحين إلى أن وصلوا إلى باب عربة السيرك. عندما فتحت مريديان الباب بركلةٍ من قدمها، كسر تنفس الحشد للصعداء الصمت، وزحف الرجلان اللذان في الدبابة وخرجا منها مسربلين بالعار وشرعا يحدقان فيما يجري مجدداً.

قال ترومان دون تفكير، «يا إلهي! كيف من الممكن ألا تحب شخصاً مثلها!».

قال الكناس العجوز «لأنها تعتقد نفسها الله. أو إنها مجنونة تماماً كنقيض لذلك. أنا شخصياً أعتقد أنها مجنونة تماماً».

سأل ترومان: «ما قصدك؟».

قال الرجل: «أصغِ إليّ، حسب علمي، لا معنى لهذه الأشياء التي تفعلها. أخبرني أحد أصدقائي عن هذه السيدة البيضاء المختلطة. قال إنها مجزد هيكل عظمي لا أكثر ولا أقل. كل ما لديها شعر طويل ما زال ينمو كما يدّعي زوجها العجوز. يسرّح ذلك الأحمق شعرها كل ليلة». شخر وصرّ على ضرسيه الجانبيين الباقيين.

«لمجرد أنه ضبطها وهي تخونه، أطلق النار على الرجل وخنق الزوجة. رمى جثتيهما في بحيرة «سولت». شرح كل شيء إلى السلطات هناك وعفوا عنه، سامحه الواعظ. سامحه الجميع. حتى والدتها. لأن هذه العاهرة كانت تسيء معاملته، ولم يكن ما فعلته صائباً!»

قرص العجوز ترومان في ضلوعه. «لم يكن هذا صائباً، أليس كذلك؟»

قال ترومان الذي كان يراقب مريديان «كلّا».

«حسناً يا سيدي، لفظت الأمواج جثتها بعد سنين ورمتها على الشاطئ وادّعى أنه تعرّف عليها من خلال شعرها الأحمر الطويل. كان قد غفر لها حينها وشعر بأنه لا يمنع أن تكون معه مجدداً، ولن تعارض فكرة تشاركها مع عامة الأمريكيين نظراً إلى أنها كانت شخصاً سخياً جداً. رأى في ذلك سبيلاً لجني مال إضافي يعينه في شيخوخته».

قرصه من جديد في ضلوعه وقهقه.

«جرّها من بلدة إلى بلدة، وتوجب على كل من يود رؤيتها دفع ربع دولار. لا يترتب علينا بالطبع دفع سوى فلس واحد، لأننا فقراء ونتنون وما إلى ذلك. أنا عن نفسي لن أدفع شيئاً لرؤيتها. القحبة لم تكن تساوي فلساً واحداً».

كان طلاب المدرسة يدخلون إلى العربة ويخرجون. انضم بعض السود الراشدون إلى الطابور، ثم تبعهم بعض البيض الفقراء.

قال الكنّاس العجوز: «غير أن تابوتها رائع كما قيل لي. تحفة معدنية، منجّد بمخمل زهري، بمقابض ذهبية وفضية. كلّف صنعه ألف دولار على الأقل!».

كان الحشد قد بدأ ينفضّ الآن، فيما آخر الأطفال يغادرون العربة. وقفت مريديان على الدرجة السفلية، تراقب الأطفال والراشدين وهم يترجّلون من العربة. أراحت إحدى قدميها على السكة الحديدية الموجودة تحت العربة ودسّت إحدى يديها في جيبها. خمن ترومان، الذي عرف جيداً ملامح وجهها، أنها عقدت حاجبيها بسبب عناء الوقوف منتصبة أو الوقوف بتراخٍ، تماماً كما كانت حالتها الآن.

قال ترومان للكنّاس. «اسمها مريديان».

سأل الكنّاس بإشفاق «ألا تعرفها شخصياً؟».

قال: «صدق ذلك أو لا تصدق»

لم يكن الباب المؤدي إلى بيت مريديان مقفلاً، فدخله ترومان وتجول فيه توقف في الغرفة التي تضم كيس نومها ليقرأ الأوراق المعلّقة على الجدران- رسائل ألصقها بنفسها على مستوى النظر واحدة تلو الأخرى لتتجاور بأناقة. اشتملت الرسالة الأولى على عبارات من الكتاب المقدس كتبتها والدة مريديان، بيت القصيد من تلك العبارات أن مريديان أخفقت في احترام والديها، ليس هذا فحسب، بل أخفقت في احترام الجميع. حملت الرسائل الأخرى توقيع «آن-ماريون» (والتي عرف ترومان أنها كانت صديقة مريديان وزميلتها في السكن الجامعي) كانت الرسائل عبارة عن سرد مطوّل من الاتهامات، مكتوبة بخبث وازدراء. استهلت جميعها بعبارة: «أنت مضلّلة بالطبع.» و«الأشخاص الذين على شاكلتك، لا يعترفون بالحقيقة...» و«لم يكن لديك يوماً، نظراً إلى كونك ضعيفة ولا تكترثين بالتاريخ، أيّ حسّ بالأولويات...» إلخ. لماذا تكلّف مريديان نفسها عناء الاحتفاظ بهذه الرسائل؟ خربشت على بعضها على سبيل التسلية: «نعم، نعم. كلّا. بعض ما ذكر آنفاً. كلّا. كلّا. نعم. جميع ما ذكر آنفاً».

كانت الجدران الممتدة فوق وتحت هذا الشريط من الرسائل عبارة عن ألواح جصية متآكلة، تشوبها بقع عشوائية من الغراء الجاف كما لو أن ورق الجدران الأصلي قد أزيل على عجل. أرخت الشمس بظلالها على الغرفة وتسللت إليها من خلال نافذة رمادية متهالكة لتغمرها بلون رمادي باهت، وعندما وقعت عيناه على الرسائل- وهو يدور بتؤدة مع جهة دوران عقارب الساعة داخل الغرفة- انتابه شعور بأنه في زنزانة

كان هذا بيت مريديان- أخبره الكنّاس العجوز- وهذه كانت غرفتها لكن خالجه شعور بأنه في زنزانة. بحث عن وسائل تعينه على أخذ قسط من الراحة، لكن لم يعثر على شيء. لم تكن تمتلك أيّ قطعة أثاث، باستثناء كيس النوم، الذي لم يبدُ، عقب تفحصه، نظيفاً جداً.

ولكن مع استرجاع الفترة التي كان فيها لا يزال طالباً، منخرطاً في العمل مع الحركة في الجنوب، عرف عمق السعادة التي يشعر بها المرء لدى أخذ قيلولة في شرفة أمامية مظللة. أطلق تهيدة مغرقة في الحنين والترقب، منحنياً ليخلع حذاءه المصمم للمدن فيريح قدميه المتعرقتين.

سأل وهو مستلقٍ عندما فتحت عينيها: «كيف كان لي أن أعرف أنها أنت؟» لم يستطع الاقتراب منها أمام هذا الجمع الغفير من الناس. تحاشى الإحراج.

قالت كما لو أنها تتحدث في حلم: «لماذا، يا تشي غيفارا» ثم غمزت بعينيها «ترومان؟» كان غالباً ما يظهر في حياتها لمفاجأتها. بادرت بالحديث: «تبدو مثل تشي غيفارا. هذا ليس» وحبست أنفاسها: «هذا ليس محض صدفة، أنا متيقنة من ذلك» كانت تقصد بشرته السمراء وعينيه السوداوين ولحيته المشذبة بأناقة وشاربه الذي ما كان قد أطلقه بعد في آخر مرة التقته. كان يرتدي أيضاً سترة قطنية بنية مائلة إلى الصفرة مثل تلك التي دأب على ارتدائها الزعيم ماو.

قالت: «تبدو مثل رجل ثوري، هل أنت كذلك؟».

«في حال كان جميع الفنانين ثوريين، فنعم، فإنني ما زلت رساماً». وتفحص عن كثب وجهها وعظامها التي رسمها مرات ومرات.

سأل وهو يضع يده في يدها النحيلة الباردة كالثلج: «ما الذي تفعلينه بنفسك دائماً؟». أصابه وجهها بالهلع. كان وجهها منهكاً وخشناً، بشرتها شاحبة وعلامات المرض بادية عليها، وقد غطت البثور جبينها وذقنها. كانت عيناها خائرتين وصفراوين وزائغتين تماماً. رائحة أنفاسها لاذعة، تماماً مثل رائحة ملابسها.

أربعة رجال أحضروها إلى البيت، رفعوها فوق أكتافهم تماماً كما يرفعون تابوتاً. كانت

عيناها مغمضتين، بالكاد تتنفس، يداها مطويتان فوق صدرها، ساقاها ممدودتان. مرّوا به وهو يحاول أخذ قيلولة على الشرفة، ولم ينبسوا ببنت شفة، وضعوها في كيس نومها، وغادروا. لم يخلعوا عنها حتى قبعتها، وبينما كانت فاقدة الوعي أزاح ترومان قبعتها للخلف وراح يمسح وجهها بمنديله الرطب ورأى رأسها يكاد يكون خالياً من الشعر.

سألها: «هل آذوك هناك؟».

أجابت: «لم يلمسوني».

«أنت مريضة فحسب إذن؟».

قالت مريديان بحدة: «طبعاً أنا مريضة، لأيّ سبب آخر قد أقضي كل هذا الوقت وأنا أحاول التماثل للشفاء!».

«طريقتك في التماثل للشفاء غريبة».

حينما غيرت الموضوع أمسى صوتها أرقّ على الفور.

قالت: «أنت تشبه تشي كثيراً، بينما أشبه أنا الموت حتماً بينما آكل البسكويت المالح» مدّت يدها وشدت أطراف قبعتها نحو الأسفل، مقرّبة حافتها أكثر صوب عينيها حلمت بوالدها قبل استيقاظها مباشرة، كانا يركضان مجتازين هضاباً خضراً شديدة الانحدار، وهما يطاردان بعضهما بعضا هبوطاً وصعوداً. كانت تصرخ بأعلى صوتها: «انتظر!» و«توقف!»، ولكن عندما سمعته يوجه لها الكلمات نفسها، ركضت أسرع لم ينتظر أيّ منهما الآخر ولم يتوقف. كانت منهكة ولهذا استيقظت.

«كنت أنتظر عودتكِ - مستلقياً على الشرفة- عندما رأيت هؤلاء قادمين وهم يحملون جسداً»- ابتسم ترومان- «وتبيّن لي لاحقاً أنه جسدك. حملوك بثبات كما لو أنهم يحملون

لوحاً خشبياً فوق أكتافهم. كيف تسنى لهم فعل ذلك؟»

هزّت مريديان كتفيها بلامبالاة. «اعتادوا حمل الجثامين».

«منذ مجيئي إلى هنا والناس يجلبون صناديق مليئة بالطعام. مرلي مكتظ بما يؤكل، حتى إن أحدهم جلب معه بقرة. أول شيء فعلته البقرة كان ملء الممشى بالبراز. يا للقرف». قال ترومان وهو يضغط على يدها: «للناس هنا ما يميزهم بالتأكيد»

قالت مريديان: «إنهم ممتنون. يبجلون من يرمي نفسه طواعية في المعاناة»

«حسناً، لا يمكنك لومهم لعزوفهم عن مقارعة دبابة في نهاية المطف، ليس الجميع مضادين للرصاص، مثلك».

قالت: «لقد توصلنا إلى تفاهم».

«ألا وهو؟».

«إن كان يتعين على شخص ما الرحيل فله أن يكون الشخص المستعد لذلك».

«وهل أنت مستعدة؟».

«الآن؟ كلّا. ما تراه أمامك الآن هو سيدة على وشك تغيير رأيها»

«يصعب تصديق ذلك».

«تفاهة أهمية هذا الأمر مذهلة».

«تقصدين هذا بطريقة لطيفة، طبعاً».

«أجل».

قال ترومان، الذي لم يرغب بإظهار عمق الحزن الذي غمره فجأة: «أخبرني، هل نظرت بنفسك إلى داخل العربة؟».

«كلّا».

«لِمَ لا؟».

«عرفت أن أيّ شيء يعرضه الرجل لا شأن لي به، وبلا جدوى».

قال ترومان بمرارة: «الأمر برمته كان بلا جدوى، إن سألتني رأيي. تمترست خلف العديد من الأفعال الطائشة التي لن تمضي إلى أيّ شيء. ما جدوى أن يرى هؤلاء الأطفال زوجة غريب الأطوار ذاك، والتي هي بدورها غريبة الأطوار؟»

«كانت مزيفة. لقد اكتشفوا ذلك. لم يكن هناك، حسب قولهم، أيّ ملح متبقٍّ في محجري عينيها أو في شعرها. هذه البلدة قريبة من المحيط، كما تعرف. رأى الأولاد الكثير من الجيف التي يلفظها البحر. قالوا إنها مصنوعة من البلاستيك وكانوا سعداء لأنهم لم ينتظروا حتى الخميس، اليوم الذي يتعين عليهم فيه دفع نقود مقابل رؤيتها. إلى جانب أنه كان يوماً حارّاً. كانوا ضجرين. وما من شيء آخر يفعلونه».

«هل فقدتَ الوعي أمامهم؟».

«تحاشيت ألّا أفعل ذلك قط. لم أفقد الوعي يوماً أمامهم. تبعني بعض الرجال - الذين حملوني إلى هنا- على طول الطريق من الميدان؛ إنهم يفعلون ذلك دائماً بعد تأديتي لدوري، تحسباً. فقدت الوعي تماماً عندما أصبحت بعيدةً عن أنظار الأطفال».

«وهل قاموا بطيّ ذراعيك؟».

«طووا ذراعيّ».

«ومدوا ساقيك؟».

«إنهم يفعلون ذلك بلطف وبراعة».

«هل عرفوا لماذا فقدت الوعي؟»

«لا يزعجهم الأمر. لديهم مثل شائع حول من يفقد وعيه على غرار ما يحدث لي: «إن ضُربت إحداهن بقوة، حتى ولو صمدت، فإنها ستسقط». ألا تعتقد أن هذه وجهة نظر صائبة؟».

«لا أعرف. لم أفقد الوعي يوماً. هل استعنتِ بطبيب؟».

«لا أحتاج إلى طبيب. تحسنت كثيراً وحدي...» حركت مريديان أصابعها، ثم رفعت ذراعيها برفق عن الأرض. «أترى، لقد انحسر الشلل». واصلت رفع يدها وإنزالها، وأثناء ذلك ثنت أصابع يديها وقدميها. حركت كتفيها نحو الأمام والأعلى ونهضت وحركت كاحلها بحركة دائرية. كل حركة مهما كانت طفيفة جعلت وجهها يبدو أكثر سعادة، رغم أن هكذا جهد أرهقها.

راقبها ترومان وهي تناضل لاستعادة وظائف جسدها، وقال: «أعبر عن حزني بطريقة مختلفة».

قالت مريديان وهي تلهث: «أعرف».

«ما الذي تعرفينه؟».

«أعرف أنك تعبر عن حزنك من خلال الهرب، والتظاهر بأنك لم تكن متواجداً يوماً»

«عندما ينتهي كل شيء، الرحيل أفضل شيء نفعله» «والادعاء بأنه ما من شيء بدأ أصلاً؟». «نعم».

«لكن هذا غير وارد»

كانت مريديان قد تعلمت هذا في نيويورك قبل قراءة عشرة فصول [illegible]

«أنت جبانة» قالت لها إحدى الفتيات حينها رغم نفسها [illegible]

وقالت أخرى بازدراء: «مازوخية»

وجلست مريديان بينهم على الأرض، كانت يداها [illegible] مطأطئة رأسها. يتوجب عليها للانضمام إلى هذه المجموعة، الإعلان عن استعدادها للتضحية بحياتها من أجل الثورة، وهذا ما فعلته كل منهن، الإجابة عن سؤال الذي «هل أنت على استعداد للقتل من أجل الثورة؟» وعليها أن تجيب بسرعة وثقة «نعم» عجز لسانها عن نطق هذا. عبرت رأسها همهمات تصرخ قائلة «ثمة ما هو مفقود، ما هو مفقود؟» الصوت جعل قلبها ينتفض وأذنيها تزأران «شيء غفل الأقدمون عن ذكره في تراتيلهم وأمثالهم الشعبية! ما هو؟ ما هو؟ ما هو؟»

جاء صوت آن-ماريون غاضباً يحمل دعوة فجة وملحة لإعلان إدانتها، محاولة كتم أي نبرة قد يشوبها شيء من التعاطف «لم أنت صامتة؟» كانت آن-ماريون قد نطقت بلا تلعثم «أجل، سأقتل من أجل الثورة». غير أن مريديان عرفت رفيقتها، فهي بديهية لأنها كانت تحت أعين الأبقار.

كانت مريديان الوحيدة التي تمسكت بشيء ما في حين تخلى عنه الآخرون [illegible] كلياً، فجزئياً على الأقل- تخلّوا عنه بالأقوال اليوم، وسيتخلّون عنه بالأفعال غداً لكن ما عجز جميعهم عن فهمه هو إحساسها بأنها ليست هي من تتمسك بشيء من الماضي، وإنما شيء ما من الماضي يتمسك بها: ذكرى رجال سود طاعنين في السن في الجنوب التقطت الكاميرا صورهم على حين غرة، لم يغيروا وضعيتهم قط لكنهم نظروا في عين الكاميرا

مباشرة؛ مشهد صبايا يشدن بأصواتهن الملائكية في جوقة ريفية، ويلمع شعرهن المسرّح الطافح بالزيوت. حين كانت تتحرك مشاعرها في الكنيسة، كان مردّ ذلك دائماً إلى نقاء أرواح المنشدين، النقاء الذي كان بمقدورها سماعه بالفعل، النقاء الذي ارتقى بأغانيهم مثل سرب حمام يطير فوق رأسها الثمل بالموسيقا. إن ارتكبوا جريمة- وبالنسبة إليها حتى الثورية منها تعتبر جريمة- ما الذي ستصير إليه الموسيقا؟

طلبت من آن- ماريون مزة على سبيل المزاح أن تتخيل المافيا بوصفها جوقة من المغنين. أسكتتها آن-ماريون وقالت لها إن المافيا ليست جماعة ثورية!

قال أحدهم: «أنت تبغضين نفسك عوض أن تبغضيهم».

قال آخر وهو يلكز أضلاعها: «لِمَ لا تقولين شيئاً؟».

قد تُقدم هذه المجموعة على فعل ثوري أو قد لا تقدم. فقد كانت في نهاية المطاف عبارة عن مجموعة من الطلاب والمثقفين الذين حولوا مسيرتهم وأصبحوا يؤمنون بالعنف بعد أن شهدوا بأم العين العنف المفرط الذي مارسته الحكومة الفيدرالية والشرطة ضد المنشقين السود. هل كانوا ليسطون على أحد البنوك؟ هل سيفجرون أحد المعالم؟ هل سينسفون مخفر شرطة؟ هل سيواجهون يوماً العدو وجهاً لوجه وأسلحتهم مشرعة؟ ربما. ربما لا. زعق صوت من داخلها: «لكن هذا ليس بيت القصيد!». بيت القصيد أنها لم تستطع تقبل فكرة إراقة الدماء. ومسألة القتل لم تحظ بأي وقع إيجابي في داخلها ولم يكن لها قط أي رنين أو صدى.

كانوا بانتظار أن تقول شيئاً ولكن ماذا بوسعها أن تقول؟ لم تفه بكلمة. تذكرت والدتها واليوم الذي خسرتها فيه. كانت في الثالثة عشرة، جالسة إلى جوارها في الكنيسة، ثملة كعادتها من خمر الموسيقا الرائعة. الأصوات بحدّ ذاتها جعلت كلمات الأغاني خالية من أي

معنى تقريباً؛ الفتيات والنسوة والآباء المفتولو العضلات ينشدون معاً:

اليوم ولّى وانقضى

بزغ ظل المساء

آه هل لنا جميعاً أن نتذكر بوضوح

أن ليلة المنية تدنو

عندما استشفت الأصوات، انفطر قلبها ولهاً، كان صوت والدها هو كلّ ما سمعته، يمكنها تمييزه بوضوح من بين كل الأصوات. لفّها صوته باللوعة، إذ تساءلت كيف لذلك الجزء منه والذي كان قطعة منها أن يكون صاغراً للموت إلى هذه الدرجة؟ ولكن كم كان صوته عذباً! غير أن صوت أمها هو ما استرعى انتباهها، بينما حاولت مقاومة ذلك: «انطقي بها الآن يا مريديان لتجدي الخلاص. كل ما يطلبه الربّ هو الاعتراف بأنه سيدنا. قولي إنك تؤمنين به». قالت وهي تنظر إلى دموع ابنتها: «لا تعاندي ما يمليه عليك قلبك!» لكنها جلست كالصفاء، تراقب أصدقاءها يعبرون مقعدها، يقبلون المسيح، يعترفون بالربّ سيداً لهم، وبيسوع مخلّصهم، وخفق قلبها مثل طائر صغير على وشك أن يُرجم. كان صوت والدها هو من حرّك مشاعرها، ذلك الصوت الذي ما كان ليكون بتلك العذوبة لولا الحياة التي عاشها، حياة نأى بنفسه فيها عن العالم، حياة كان وعيه إزاء الموت حاضراً فيها دائماً. كانت الموسيقا هي التي جعلتها وديعة وطيعة جداً وقد تفتر شفتاها عن كلمة، اعتراف، لتتحرر فقط من ألمه الذي رددته أصوات المنشدين بجمال أخاذ.

ولكنها من خلال كل ما أنشده والدها عن الربّ على نحوٍ بديع يفطر القلب استشعرت أنه لا يؤمن به بالطريقة ذاتها التي تؤمن بها والدتها. تجمّد عقلها عند حوار سرمدي جرى بين والديها حول الهنود:

قال والدها: «كان الهود يعيشون هنا في جورجيا. كان لديهم بلدة وأبجدية وصحيفة. كانوا يديرون أعمالهم الخاصة ويستمتعون بحياتهم... وهذا ينطبق على جميع الهود في مختلف أرجاء البلاد وفي المكسيك وجنوب أمريكا... ألا يوحي هذا إليك بشيء؟»

قالت والدتها: «كلّا»

«وكانت النساء ينجبن ويصنعن الفخار، والرجال يصنعون الأحذية والطبول من الجلد وجذوع الأشجار المجوفة».

«ماذا يعني هذا؟».

«كان لهم حياة كاملة، حياة تحكمها أرواحها الخاصة».

«هذا ما تدعيه على أي حال».

«وأين غدت الآن؟».

تنهدت والدتها، ولوحت بمروحة حصلت عليها من مدفن الموتى. «لم أزعج نفسي قط بالتفكير بمثل هذه الأمور. هناك شيء ما اسمه التقدم والتطور لست أنا من اخترعه، لكني لن أجادل حول هذا الأمر أيضاً. برأيي إن هؤلاء الناس وطريقتهم في هش الذباب هي آخر ما أهتم له».

التقطت والدة مريديان حفنة من علاقات الملابس المعدنية، شدتها لتصبح مستقيمة، وجلبت مقصها، وورقاً مموجاً ملوناً بالأحمر والأصفر، وبدأت بصنع بتلات أزهار. وأسندت كل بتلة على إبهامها وبدأت بسحج البتلات باستخدام سكين غير حادة، ثم ضغطت بكلا الإبهامين على مركز البتلة لتصبح على شكل كوب. ثم وضعت البتلات الصغيرة داخل الكبيرة وشكّلت برعم الورود من خلال تغطية كرة صغيرة من ورق الألمنيوم بورقة ملونة

بالأخضر الزاهي، وربطت رأس الورود بعد أن فرغت من صنعها مع نهاية علاقة الملابس، ووضعت المنتج النهائي في جرن معدني، يغصّ بالأزهار الاصطناعية. كانت تعكف في الشتاء على صنع وسائد صغيرة أنيقة مختلفة الألوان وذات طيات، تحشرها في أكياس بلاستيكية وتكومها فوق بعضها البعض في الخزانة. أسمتها وسائد الصلاة. إلّا أنها كانت صغيرة جداً لدرجة لا تسمح بالركوع فوقها، فقد اتسعت لركبة واحدة فحسب، وهذا ما لم تلحظه والدة مريديان قط.

ورغم ذلك، فإنه من القاتل ألّا يحبّ المرء والدته. أو هذا ما خُيل إلى مريديان، وهكذا استوعبت والدتها بوصفها سيدة جاهلة، اختارت ألّا تعرف شيئاً عن عمد، وانطلاقاً من جهلها لقسوة العالم، أحبتها أكثر من أيّ شيء في العالم. كنّت احتراماً أكبر لفطنة والدها وذكائه، رغم أن غناءه بدا جميلاً فقط عندما يدندن عن الموت.

كافحت لاستعادة يد والدتها، غطتها بيدها، وحاولت تقريبها من شفتيها. لكن والدتها ابتعدت عنها، وشقّت دموع الغضب والحزن طريقها وانهمرت على وجهها. ذوى حب والدتها، انكفأ وانحسر وكان هناك شروط يتوجب عليها تحقيقها كي يعود. شروط لم تستطع مريديان يوماً استيفاءها.

«نمت، أليس كذلك؟» كان صوت أحد أفراد المجموعة الثورية ينادي عليها، قادماً حتماً من ماضٍ غير ثوري. جعلوها تشعر بالخزي من ذلك الماضي، رغم أنهم جميعهم ساهموا فيه. الكنيسة والموسيقا والتسامح الجلي مع المعتقدات الأخرى لأناس خارج العصبة، إظهار التسامح للغرباء. أحسّت أنها تحبهم. لكن الحب آخر ما كانوا يسعون إليه، آخر ما كانوا يحتاجونه.

كانوا يريدون منها أن تقتل. أن تقول إنها مستعدة لأن تقتل. ظنّت أنها لربما ستقدم على ذلك. ربما.

«لا أعرف إن كنت قادرة على قتل أحد...».

ساد شعور من الارتياح بينهم جميعاً «آه...».

«إن كان عليّ فعل ذلك، قد أستطيع. إن كان يتوجب عليّ الدفاع عن نفسي ».

تنفست آن-ماريون الصعداء وقالت: «بالطبع ستقتلين »، لتلجم مشاعر الكره التي كانت ستنهال على صديقتها.

«ربما أستطيع أن أتأقلم مع فكرة قتل بشرٍ آخرين...».

«أعداء...».

«خنازير...».

«لكني لست واثقة...».

«كم هي متعبة هذه الفتاة...».

«أعرف أنني أحمل في قلبي أجمل الأمنيات للسود...».

«هذا ما نتمناه جميعاً!».

«أعرف ضرورة القيام بثورة...».

«اللعنة قولي ما عندك دون لف أو دوران!».

«أعرف أن العنف منتج أمريكي مثل فطيرة الكرز!».

«قولي ما عندك!».

«أعرف أن اللاعنف فشل...».

«إذن أنت مستعدة كي تقتلي من أجل الثورة، لا أن تموتي من أجلها فقط».

جاء صوت آن-ماريون الذي كان يوماً محبباً وودوداً أضاف الصوت بمرارة وقسوة.
«مثل الحمقاء!».

«لا أعرف».

«خرا...!».

«لكن هل يمكنك القول إنك ربما ستقتلين؟ إنك سوف تفعلين ذلك».

«كلّا».

انفضّ الجميع عنها.

«ماذا ستفعلين؟ أين ستذهبين؟» كانت آن-ماريون الوحيدة التي ما تزال مهتمة بما يكفي لتسألها، رغم تحوّل عينيها الصادقتين- وبريقهما المتلألئ- إلى رخام أسود «سأعود إلى الشعب، أعيش بينهم، على غرار ما كان يفعله أعضاء حركة الحقوق المدنية».

«تمزحين، أليس كذلك؟».

قالت «كلّا، أنا جادّة فيما أقول»

وهكذا غادرت الشمال وعادت إلى الجنوب، متنقلة من بلدة صغيرة إلى أخرى، تنخرط في عمل هنا وآخر هناك- بعضها أفضل أو أسوأ من بعضها الآخر- لتعيل نفسها؛ وتبقى قريبة من الشعب- لتراهم، لتكون معهم، لتفهمهم وتفهم نفسها، الشعب الذي يطعمها الآن ويحتملها وأيضاً بطريقة أو بأخرى، يهتمّ لأمرها

كان ترومان يجد في بيت مريديان أثاثاً أقل في كل مرة يزورها فيها، قطع ثياب أقل

فأقل، حظوة وموقع اجتماعي أقل في المجتمع- بصرف النظر عن مكان هذا المجتمع- الذي كانت تعيش فيه. من مدرسة تنشر قصائد قصيرة لاذعة، حوّلت نفسها إلى بستانية، إلى نادلة تعمل في حفلات الطبقة الوسطى من السود، وعملت من فينة إلى أخرى في الطهي وجلي الصحون.

قال ترومان: «وهذا ما أصبحت عليه الآن» مشيراً إلى خلو الغرفة من أي أثاث

قالت مريديان: «حقاً»(1) وقابلت نظرة ترومان الذاهلة بابتسامة. قالت. «لماذا، أنسيت التحدث بالفرنسية؟» وأردفت بعدها بجدية: «علينا فعلاً أن نفترق، كما تعرف».

قال ترومان: «تقصدين أنه عليّ فعلاً أن أدعك تذهبين في حال سبيلك؟ لقد أجهزت على علاقتنا منذ زمن بعيد».

«وكيف حال لين؟».

«لم أرها منذ فترة بعيدة. لم أرها سوى بضع مرات منذ موت كامارا».

«أحببت ابنتك».

«كانت جميلة». ولأنه لا يرغب بالحديث عن ابنته أو زوجته، استدرك قائلاً. «لم أفهم يوماً مرضك، الشلل، الانهيار... طريقتك في مواجهة دبابة بهدوء مطلق وبعد دقيقة تعجزين عن الحركة. لطالما اعتقدت أنك جبارة، لكن انظري إلى حالك الآن».

قالت مريديان: «أنا جبارة في الحقيقة». بدا قولها متعجرفاً بالنسبة إلى شخص يبدو على حافة الهلاك ويتعين عليه ممارسة الرياضة حتى يسمح له جسده بالزحف أو الوقوف «لست خارقة، هذا كل ما في الأمر».

سأل ترومان: «لماذا لا تتركك آن-ماريون وشأنك؟»، مشيراً إلى الرسائل المعلّقة على

الجدار. «من تستطيع كتابة هذه الترهات الكريهة لا بد وأنها عاهرة حقيقية»

قالت مريديان: «لأصدقك القول، أحتفظ بالرسائل لأنها تشتمل على خط يد العاهرة».

سألها ترومان: «هل تمزحين؟».

قالت مريديان. «كلّا، لا أمزح».

مدغار إيفرز/ جون إف كينيدي/ مالكوم إكس/ مارتن لوثر كينغ/ روبرت كينيدي/ تشي غيفارا/ باتريس لومومبا/ جورج جاكسون/ سينثيا ويسلي/ أدي ماي كولينز/ دنيس ماكنير/ كارول روبرتسون/ فيولا ليوزو

كان عقداً موسوماً بالموت. موت عنيف ومحتم. حفرت الجنائز في الأذهان لتؤكد الطبيعة الفانية للحياة. وبالنسبة إلى كثر من أهل الجنوب، كان عقداً يعيد إلى الأذهان أياماً مضت، حين كانت أشجار البلوط تتنهد زافرة أعباءها لتذروها الرياح؛ والطحالب الإسبانية التي تنمو فوق الأشجار ترمي بوحشية على الأرض؛ وتعض ابتهالات الكنائس بالشجن؛ فيما الهلع من القدرة على تحمل مرارة فقد جديد لا يطاق ولّد نشوة عارمة في قلوب المشيعين المختالين، الغافلين عن أقدامهم المستريحة على ظهور المقاعد الضيقة في الكنيسة لم تعكّر أيّ سقطة مخزية قط صفو صرخاتهم الجهورية الغارقة بالعذاب والبهجة. مارسوا الطقوس معاً كي لا يطوي النسيان موتاهم.

غير أن أجهزة التلفاز أصبحت الآن خزان الذاكرة، وأصبح كلّ مشاهد يحزن بمفرده.

أثناء جنازة كينيدي التي كانت أول جنازة تبثها شاشات التلفزة لآل كينيدي، انتبهت آن-ماريون كولز لوجود مريديان هيل. سبق ورأتها في أرجاء الحرم الجامعي، لكنها لم تتحدث معها من قبل. بدت مريديان متحفظة جداً حتى أنها كانت تجلس إلى طاولة مخصصة لأربعة أشخاص في قاعة الطعام دون أن يستأذنها أحد في مشاركة طاولتها؛ وإن حدث

واستأذنها أحد، فإنه يطلب الإذن بحياءٍ واحترام. بعث الحاجز الذي أقامته حولها الذهول في نفسها، وعندما تجرأت على الاقتراب منها أخيراً- سواء في قاعة الطعام أم في الكنيسة أم تحت أشجار الحرم الجامعي- جاءت استجابتها مليئة باللهفة والكرم والود. واختفى وجهها الكامد على الفور ليحلّ محلّه وجه طافح بالحياة، فيما تعضن وجهها جراء الفرح وغمرت السعادة عينيها الداكنتين اللتين تشوبهما عادة مسحة من الحزن.

كانت آن-ماريون تتمتع بجسارة شخص معتدّ بنفسه، عقد العزم على تحقيق مآربه مهما كانت العقبات. كان لمآربها طبيعة قائمة على الاستغلال أكثر منها على الإيثار، وما كنت أبداً لتحاول اختراق تحفظ مريديان لو أنها لم تستشعر حياة داخلية تربض خلفه، حياة أسرة وقيمة- ولولا يقينها بأن استكشافها سيعود عليها بالنفع وسيثري وجودها لكنها لم تتنبأ بأنها ستتعلم الاعتناء بمريديان.

جلست قبالة مريديان، تشاهد مع طالبات الشرف الأخريات أفراد عائلة كينيدي وهم يمشون متجهين بخطوات واسعة خلف الجثمان المهشم لحبيبهم جون الراحل، سائرين نحو مقبرة «أرلينغتون» الوطنية. وتناولت جاكي كينيدي، حسبما اقترح مذيع الأخبار، شيئاً ساعدها على مغالبة دموعها. أما الطالبات فلم يأخذن أي شيء، فسالت دموعهن أنهاراً. بدا وجه مريديان أزرق مائلاً إلى الرمادي بفعل ضوء التلفاز يلمع تحت الدموع التي غطته، وسالت لتسقط على ذقنها وقميصها القطني الأزرق. انحنت إلى الأمام تحت وطأة الحزن، لم تكلّف نفسها عناء رفع يديها عن حضنها، حيث استقرتا براحتين مفتوحتين، ارتجفت كما لو أن البرد داهمها.

عند اغتيال مدغار إيفرز في وقت سابق من العام نفسه، زرعت مريديان شجيرة من الغار البري وسط الأشجار المزروعة في الحديقة الرسمية أمام دار المكرمين. دأب البستاني الغيور على سحب القليل من جذور الشجيرة الهشة إلى السطح، لتذوي في أسرع

وقت وتموت. لدى تذكر هذا، ورؤيتها وهي ترتعش، قنمت آن-ماريون بلوزتها الصوفية إلى مريديان، التي أخذتها من دون أن تنظر، ولفّتها على جسدها بإحكام.

الطفلة الجامحة

كانت «الطفلة الجامحة» شابة نجحت على مدى سنواتها الثلاث عشرة في تدبر أمورها لتعيش من دون أبوين أو أقارب أو أصدقاء. حسبوا أنها في الثالثة عشرة لكن لم يعرف أحد عمرها بدقة. هي نفسها لم تكن تعرف، حتى ولو عرفت، فإنها ما كانت بقادرة على إخبار أحد. أطلق عليها سكان الحي اسم وايل تشايل (كانوا ينطقونه ببطء وبرنة موسيقية، فغدا مثل أغنية فاحشة إيحائية). ظهرت في أحد الأيام في الحي الفقير المحيط بجامعة «ساكسون» وكانت في الخامسة أو السادسة من العمر. حينها كانا اثنين، وايل تشايل وصبي أصغر عمراً. سرعان ما اختفى الصبي. وسرت أقاويل أن مستشفى الحي سرقه ليستخدمه في التجارب، لكن لم يتقصَّ أحد مدى صحة هذه الأقاويل على أي حال. شوهدت وايل تشايل تنبش في حاويات القمامة وتجز قطعاً مرمية من الأثاث المنزلي، منهكةً ذراعيها السوداوين الشاحبين في أداء هذه المهمة عندما خرجت إحدى الجارات من بيتها لتتحدث معها، جفلت وايل تشايل، وهربت مسرعة، وتوارت عن الأنظار لعدة أسابيع. دأبت على تكرار الفعل ذاته لسنوات. كانت تُلمح وهي تنبش حاويات القمامة بحثاً عن طعام، وتطلق ساقيها للريح عندما يناديها أحد.

كانت ترتدي في الصيف ما توفر من القمصان و«البلوز» التي رماها أصحابها. أو سروالاً كبيراً من حرير «الرايون»، وترفعه وصولاً إلى إبطيها، من دون أن ترتدي أي شيء آخر. وفي الشتاء كانت ترتدي مجموعة من الملابس التي رماها أصحابها وترتدي فوقها سترة رثة من الفرو تلامس الأرض. وعندما بلغت الثامنة (حسب تخمين الجيران)، بدأت تدخن، وبينما كانت تنقِّب في الأنقاض، راكلة الأشياءَ لترميها ذات اليمين وذات الشمال (تكيل الشتائم، وهي اللغة الوحيدة التي تعرفها)، كانت تمج أعقاب لفافات السجائر بيد ناضجة ومتمرِّسة.

بعد مرور قرابة أربعة أو خمسة شتاءات على المرة الأولى التي لمحوها فيها، لاحظ الجيران أن وايل تشايل حامل. وجهوا انتقاداتهم اللاذعة إلى «الكلب القذر المحط» مجهول الهوية الذي تسبب في حملها، واحتاروا بما يتوجب عليهم فعله. تابعت وايل تشايل نبش القمامة كعادتها، تتناول طعاماً نتناً، ترتدي ملابس مهملة، تكيل الشتائم وتلوذ بالفرار وتدخن سجائرها البنية.

كانت مريديان تمرز أصوات الناخبين في الحي حين سمعت للمرة الأولى قصة «الطفلة الجامحة». حاول الجيران حينها الإمساك بها؛ قدموا لها منزلاً لتأوي إليه، إلا أنهم فشلوا في القبض عليها. وانبرى أحد الجيران يشرح ما حدث، تملصت وايل تشايل وانزلقت من بين الأيادي أكثر من خنزير مدهون بالزيت، ولسوء الحظ لم يتوقف وجه الشبه بينها وبين الخنزير عند هذا الحد. قيل إن رائحتها نفاذة. وفي اليوم الذي وقع فيه بصر مريديان على الطفلة الجامحة، ارتدت على عقبيها واعتكفت في غرفتها في «دار المكرمين» لوقت طويل. عندما رأت الطالبات الأخريات غرفتها، دهشن لمشهدها مستلقية إلى جوار سريرها مثل جيفة على الأرض، عيناها مغمضتان وقد أسدلت يديها لم تصدر عنها أي ردة فعل أثناء نومها هناك؛ لم تستجب عندما ناديها لتناول الغداء، ولم تستجب لجرس الهاتف، ولا لأي شيء. شعرت الطالبات بالقلق في صباح اليوم التالي، ولكنها نهضت.

باستخدام فتات الكعك وقطع الخرز الملون والسجائر الجديدة، نجحت في إغراء وايل تشايل وأمسكت بها أخيراً. أحضرتها إلى الحرم الجامعي وقد لفّت حبلاً مصنوعاً من الألياف الطبيعية حول يدها؛ وعندما حاولت وايل تشايل الهرب، جرتها مريديان مجدداً غطست وايل تشايل في حوض الاستحمام، وقد شكّل الوحل والصدأ طبقة غطت جسدها، فيما تلبد شعرها الأشعث وكساه الغبار، وعلا صوتها فوق صوت مريديان الهادئ ودأبت على تقليدها مستخدمة عباراتها الفاحشة. أطلقت وايل تشايل عبارات لم ينطق بها أحد

قط من قبل في «دار المكرمين». فقدت مريديان التي غطاها الصابون والوحل السيطرة على نفسها وانفجرت ضاحكة.

أثارت وايل تشايل بتصرفاتها الفظة حنق المتحلقات حول طاولة الطعام أثناء العشاء. تجاهلت نظراتهن المحدقة الرهيبة وشربت مباشرة من إبريق الشاي ونفضت رماد سجائرها في كوبها. ضرطت، رافعة فخذها كما لو أنها تحاول إصغاء الموسيقا على ضرطتها.

استدعت الطالبات الأخريات في «دار المكرمين» المسؤولة عن الدار على جناح السرعة، في محاولة لإقناع مريديان بأن «الطفلة الجامحة» ليست ضمن نطاق مسؤولياتها.

قالت بوقار: «لا يمكنها البقاء هنا. فكّري بتأثيرها على الأخريات. هذه مدرسة للفتيات» لمع شعرها المموّج مثل أمواج البحر الحقيقية، فيما بدت بشرتها البرونزية الفاتحة مثل اللؤلؤ تحت طبقة سميكة من مسحوق التجميل الذي وضعته على وجهها. ارتعدت فرائص وايل تشايل عندما رأتها وقبعت في الزاوية منكمشة على نفسها.

في صباح اليوم التالي، بينما كانت مريديان تتصل مع المدارس التي تستقبل أطفالاً من ذوي الاحتياجات الخاصة وبالدور التي تُعنى بشؤون الأمهات العازبات- لتكتشف رفض جميع الدور استقبال وايل تشايل- هربت وايل تشايل. هرولت قاطعة الشارع، وارتج كرشها الذي شكّل أكبر جزء من جسدها، صدمتها سيارة مسرعة وأردتها قتيلة.

•

شجرة «العابر»

عاشت مريديان في غرفة صغيرة مرتفعة تقع في إحدى زوايا «دار المكرمين» تحت الحوافّ النائتة لسقف الدار، وزيّنت السقف والجدران والجزء الداخلي من الابواب ودورة المياه المجاورة بصور كبيرة لأشجار وصخور وتلال شاهقة وسحب تسير على غير هدى ادعت أنها عرفتها.

وبينما كانت مريديان نحيلة ويهيمن الصمت على أعماقها (لذا لطالما كان سماع رنة ضحكتها مبعث دهشة)، كانت صديقتها الجديدة آن-ماريون ريانة وجذابة ورعناء ومتحفّزة دائماً لخوض جدال حول أتفه القضايا. تفقد السيطرة على أعصابها بسهولة. وفي المرة التي حاولت فيها أن تكون لطيفة قام شرطي بدفعها بخشونة، فغرست أظافرها في ذراعيها لتكظم غيظها، ولكنها لم تتمكن يوماً من مقاومة مدّ لسانها الزهري السّبط والسليط، وإخراجه من فمها قدر استطاعتها.

همست وخرجت الكلمات وهي تكزّ على أسنانها: «مريديان، أخبريني بسرعة، قصة حزينة أو مضحكة، قبل أن أركل خصيتي هذا الوغد».

لم تحبّ ان- ماريون قط الذهاب يومياً إلى الكنيسة، معلنة عدم تجاوبها مع الوعّاظ- رغم قولها إنها تتبع نهج كينغ(2) ونهج «ذلك الشاب الوسيم اندي يونغ [illegible]» والخوض معهما في أعمق مستنقع مظلم- ولم تكن لديها أدنى نية للغناء او الصلاة علنا و [illegible] حدث واحنت راسها أثناء المظاهرات الاحتجاجية، فقد كان ذلك للتحقق [illegible] كانت سيور حذائها معقودة، وإن غنت، تمتمت أغنيتها وهي تكز على اسنانها لم تفهم سبب اهتمام أي شخص بروحها، حتى هؤلاء الذين تظاهرت برفقتهم كانت تتهكم قائلة «عندما تتعبني روحي، ساطلب مساعدتكم جميعاً» تشبه مريديان [illegible] في هذا الجانب، باستثناء أنه

عندما كان يعمد متظاهر أو متظاهرة عجوز ذاهل/ذ هلة مثيرة للشفقة إلى إمطار مريديان بحديث مزعج عن يسوعه أو يسوعها، فقد كانت مريديان حينها تتحلّى بالصبر وتصغي إليه/إليها. انتابتها رغبة دائمة بمعرفة معلومات عن الأغاني: «من أين جاءت هذه الأغنية او تلك؟» أو «منذ متى حسب اعتقادك يغني السود هذه الأغنية؟» استغلت آن- ماريون أيضاً أول فرصة سانحة- حالما رأت شعراً أبيض على رأس سيدة أخرى- لتقص شعرها بالكامل. وتمّ استدعاؤها بعد هذا التصرف إلى مكتب عميدة النساء (والتي أطلقت عليها فوراً لقب «ماحقة(4) النساء»)- وكان شعرها طويلاً عالجته ليصبح مسترسلاً وصبغته بلون الخزامى- ووبختها.

قالت ماحقة النساء: «ارتديت في بداية الأمر الجينز قبل الساعة السادسة والآن تقدمين على هذا التصرف! أصبح من الواضح أنك غريبة الأطوار».

روت آن- ماريون لمريديان لاحقاً أنه «في ظل هذه الظروف، بعث سماعي لها تقول ذلك الراحة في داخلي!».

و فقتها مريديان على ذلك. مستقبل شعر مصبوغ بلون الخزامى لم يكن ذا أهمية

على غرار مريديان، كانت آن- ماريون تُعتبر منحرفة في «دار المكرمين». قُبلت في الجامعة بسبب ذكائها ولكن تساهلوا معها فقط بسبب جلاء حقيقة أنها ايضاً لن تمنح يوماً لقب سيدة متزوجة حقيقية. معظم الطالبات جبانات ومبتذلات وذكيات بما فيه الكفاية، ولكن لم يمتلكن الجرأة الكافية أبداً، يتلقين الإرشادات ليغدون يوماً اقرب نحو اكتساب لقب السيدة المتزوجة. ولهذا السبب عمد دووهن إلى إرسالهن إلى جامعة «سكسون». تعلمن إعداد الطعام الفرنسي والشاي الإنجليزي وعزف الموسيقا الألمانية من دون ان ينجرفن يوماً وراء إغواء الهرب من الحرم الجامعي الذي يرزح تحت وطأة حراسة مشددة، والفرار في الساعة الخامسة فجراً لتصوير شجرة غريبة يغمرها الضوء تماماً- كما فعلت

مريديان- أو حوض غمار مجازفة التعرض للاغتصاب في حي خطير في محاولة لاكتشاف الأسباب الاقتصادية الكامنة وراء الجريمة في المناطق الفقيرة، كما فعلت ان- ماريون.

مشت مريديان وآن- ماريون معاً، كما فعلتا من قبل مرات عدة. لكنهما الآن سارتا بتؤدة وحذر، فيما فستاناهما الداكنان يصلان أعلى حذائيهما اللامعين، وبالكاد تلامست يداهما تحت الكمن الضيق. توقف المشيعون الذين يمشون أمامهما، وتجاور بعضهم الصف ليحدقوا بما بدا وكأنه جلبة عند البوابة.

قالت مريديان بتهكم: «لم أحسب أبداً أنه كان لوايل تشايل كل هذا العدد من الأصدقاء» حتى مع فستانها الأسود الثقيل وشعرها السميك المضفور فقد كان وزن مريديان أقل من مئة رطل، بينما غطى العرق على نحوٍ طفيف بشرتها البرونزية الغامقة ليكسبها لوناً أحمر. في حال شرودها عن أيّ أحد يراقبها، يبدو وجهها كئيباً جداً، كما لو أنها مدركة لانعدام أي بارقة أمل، على المدى الطويل، أمام أيّ شخص في العالم، وأن أي شيء تفعله في فترة ما مكتوب ومقدر في حياة سيكون رائعاً لو تكون قصيرة. أما حينما تبتسم، كما تفعل في أغلب الأحيان عندما تتحدث إلى أصدقائها، فكانت نظرة الهلاك المرتقب هذه تتلاشى تقريباً، وتبقى آثارها ماثلة في أعماق عينيها.

لم ينظر إليها قط بوصفها فتاة جميلة. قد يقول الناس إنها مثيرة للاهتمام وغامضة، توحي بأنها أكبر من عمرها وهذا ما يجعلها فاتنة، ويقال عنها إنها بالكاد جميلة حين تكون حزينة. أما عندما تضحك فإن هذا الجمال يتلاشى ويبدو الناس المأخوذون بمسحة الحزن التي تعلو وجهها، مرغمين على التذمر بما يكفي لحثها على الضحك لتفقد جمالها. وبعدئذ حين يفرغون من اهتمامهم بها، ينفضون من حولها ويمضي كلٌ في حال سبيله. بعد هذه اللقاءات، وبينما ثغرها ما زال مرتعشاً ومتقلصاً جراء الضحكة التي ارتسمت على شفتيها قبل دقيقة، كانت تعقص أصابع قدميها وتقف على رؤوس أصابعها، منحنية مثل رافعة

على الفراغ المحيط بها، مثقلة بخفقات قلبها الحائر الذي كانت تشعر حينها بأنه ليس فقط حائراً وإنما غبيّ أيضاً.

أما آن- ماريون التي شهدت مرور مريديان على نحوٍ متكرر جداً بهذه الحالات من دون تعلّم أي درس منها، فلطالما شعرت برغبة جارفة- في المرحلة التي تتكئ فيها مريديان على قدم واحدة- بالاندفاع نحوها وركلها.

كانت مريديان الآن قد مطّت نفسها ووقفت على رؤوس أصابعها طلباً لرؤية أفضل، ولكنها لم تستطع رؤية أيّ شيء سوى جمهرة الناس عند البوابة.

قالت آن- ماريون بعينين داكنتين وامضتين: «ذلك الوغد المحتال. سيقلب الأمور ضدّنا ذلك الحثالة ابن القحبة».

قالت مريديان برقّة: «لن يفعل ذلك».

«انتظري وراقبي. إنه يخشى أن نتسبب في إثارة قلقلة قد تجد طريقها إلى السجلّات المهلهلة. تماماً بعدما خدعهم وأقنعهم أن الزنوج في ساكسون قد أضحوا أخيراً النمط المثالي المحسّن الذي تطمحون إليه».

مسحت آن- ماريون جبينها ورفعت الكفن وقرّبته أكثر من خدها

«ليس اكثر من مجرّد فوطة بالنسبة إلى هؤلاء المجانين الموجودين وسط المدينة يعجز عن الوقوف في وجههم تماماً مثل البول الذي لا يستطيع الخروج نحو الاعلى كان يجب على والدته إغراقه في المرحاض لحظة ولادته».

قالت مريديان رغم نجاح آن- ماريون في انتزاع ابتسامة منها: «دعي الناس وشأنهم». شعرت بالارتياح عندما بدأ الصف يتحرك ببطء مجدداً كان وين وايل تشايل

يزداد مع كل توقف. سرعان ما أصبحوا جنباً إلى جنب مع حراس البوابة. صاحت موجهة حديثها إلى الحارس الوسيم: «مرحباً يا أخي» قال بفتور: «أنتم جميعاً تورطون أنفسكم في المشاكل».

كان مشهد رجل أسود يرتدي بزة عسكرية ويحمل مسدساً معلّقاً على حصره ما يزال مشهداً مفاجئاً بالنسبة إليها. من يحمي؟ تساءلت بينها وبين نفسها إن كان يحمي الحرم الجمعي، فيا لها من فكرة سخيفة إذ لا يجرؤ أحد قط على إلحاق الأذى بأبنية الحرم العتيقة والجميلة؛ وليس من الوارد أنه يحمي الطالبات، لأنهن بدأن الآن بالتوافد إلى الحرم الجامعي، يتبعن ست نساء شابات يتصببن عرقاً تحت التابوت (الذي دفعوا ثمنه) ويحتضن جثمان وايل تشايل؛ ومن المستبعد أنه يخشى الحشد الذي شكّله جيران وايل تشايل، الذين فاحت روائحهم ووصلت إلى مسامعهم آهاتهم وتراتيلهم المضمخة برائحة الفقر واليأس. شغلوا مؤخرة الحشد بخشوع. فيما رفضت آن-ماريون مجدد النظر إلى الحرس، بعد فقدانها منذ وقت الأمل في استمالتهم. لم تقدر على رؤية رجال الشرطة والحراس وخلافهم قالت موضحةً: «أنا مصابة بعمى البزات العسكرية»

الشو رع خارج البوابة عادية تماماً، وثمة حفر مردومة وإشارة مرور ضوئية جديدة أمام البوابة مباشرة. من الصعب رؤية السور المحيط بالحرم الجامعي من الشارع، الذي بدا من الخارج أشبه بعمل تزييني أكثر منه سوراً للحماية أو لإبعاد الدخلاء. فقط الطالبات اللواتي عشن في الحرم الجامعي تعلمن جراء تلقيهن درساً مؤلماً على الأرجح، أن جمال سور ما لا علاقة له بعدم قدرته على حبسهن داخله حبساً محكماً كما يفعل السور القبيح تماما

كانت النداوة غير المعهودة في الفناء تتحول برفق إلى دفء بفعل أشعة الشمس الساطعة. بينما أضفت أزهار التفاح والإجاص والكرز على عين الناظر غرابة طبعاً من الذهول والسكينة فيما الطريق ومع امتداد غطاء أخضر واسع على طوله، أضحى أبيض

مثل بيضة، كما لو أنه نُظِّف للتو، فيما تلألأت تحت الشمس الأبنية القرميدية التي عرفت أكثر من اي شخص لا يزال على قيد الحياة منذ بنائها.

قالت آن- ماريون دون تأثر: «أرغب بتحويل هذا المكان إلى ركام».

قالت مريديان: «ستعين عليك تحويلي أولاً إلى ركام». احتاجت هذا الهواء النقي، ولو كان اصطناعياً لتتنفس.

انتصبت في مركز الحرم الجامعي أضخم شجرة معنولية في البلاد. أطلق عليها اسم «العابر». كانت الصفوف الدراسية تُقام فيها أحياناً حيث بُني منبر ومنصة على أغصانها الأكثر انخفاضاً، ويمكن الوصول إليهما عبر درج خشبي. زرعت هذه الشجرة إحدى عبدات «مزرعة ساكسون»، التي أصبحت لاحقاً «جامعة ساكسون». اسم العبدة لوفاني، وقد كانت ممشوقة القوام ونحيلة وقوية بلا جمال يذكر. كانت ذقنها بارزة أكثر من اللازم، ودأبت على ارتداء قبعة سوداء بدت أشبه برفٍّ فوق حاجبيها، وأمست ظاهرة محلية في المزرعة إذ اعتقد أنها لا تقوى على الابتسام. وفي الواقع فإن شفتيها النافرتين لم تفترا على مدار حياتها المديدة بشيء يشبه ابتسامة.

ترعرعت في بلدها الأصلي غرب أفريقيا في كنف عائلة تجلّت مسؤوليتها اليتيمة في نسج قصص معقدة توقع في شركها أناساً منوا أنفسهم بالهرب بجلدهم من جريمة قتل ارتكبوها. كانت الأمور تسير على النحو الآتي: يزور الأكبر سناً في القرية والدتها ووالدها، قاطعين مسافة ميلين سيراً على أقدامهم ليصلوا إلى كوخهما وهم يصدحون بأحلك ما يمكن أن يخطر على بالٍ من أغانٍ جنائزية ليلمسوا شغاف قلبي والديها، ولتسهيل الأمر على الأرواح التي تهيم حول الكوخ في إعانتهما على حل مشكلتهما كان المسنون يروون قصص بعض الجرائم التي ارتكبها في القرية مجهولون. وليطرح والدا لوفاني بضعة أسئلة. كيف قُتل الشخص؟ ماذا سُرق غير الحياة؟ أين كان القرويون الآخرون أثناء وقوع

الجريمة؟ إلخ. كانا يرسمان علامات طوال الوقت على أرض الكوخ باستخدام عصوين ملونتين، لم يكن لهما دور سوى تشتيت الانتباه، إذ لم يرق لوالدي لوفاني أن يحدق بهما أحد.

درجت والدة لوفاني بعد مغادرة المسنين، على تلوين وجهها وتغطية شعرها وارتداء فستان جديد والمكوث في مكان إقامة القداس في القرية. كانت تعود بعد بضعة أيام، لتشرع هي وزوجها في اختلاق قصة تتناسب مع أفعال المجرم. ولدى استكمالها، كانا يقصّانها على القرويين المتجمهرين في منتصف الليل. كان يُطلب من كل شخص يصغي إلى القصة وضع قطعة من الألياف النباتية المعالجة بمواد كيميائية تحت ذراعه أو ذراعها، لتستقر بأريحية تحت الإبط. وتُجمع كرات الألياف هذه مع انتهاء رواية القصة، وكان بمقدور والدي لوفاني تحديد المذنب. كيف استطاعا فعل هذا؟ لم يكن ثمة إجابة، كما أنهما لم يحظيا بفرصة تعليم لوفاني ذلك.

غَينت لوفاني في مزرعة ساكسون في أمريكا وكُلّفت بمهمة الاعتناء بحديقة المطبخ. اعتُبرت قبيحة جداً للعمل في البيت، ومتجهمة أكثر مما ينبغي لتكون مع الأولاد، الذين كانوا يعبدونها. حين كانت تواجه موقفاً عصيباً، فقد كانت تروي لهم قصصاً مرعبة ترتعد لها فرائصهم. تبعوها حيثما ذهبت ورجوها أن تخبرهم جميع القصص المرعبة والمهولة التي تعرفها. سُعدت لفعل ذلك، وروت لهم قصصاً اقشعرت لها الأبدان. اختلقت قصصاً أمريكية جديدة عندما بدأت القصص التي تتذكرها من أفريقيا تبعث الملل في نفوس الأطفال.

كانت لتواصل رواية القصص لولا وقوع مأساة في أسرة ساكسون نتيجة خطأ لم يكن في الحقيقة خطأها. لم يشرح لها أحد شيئاً عن معاناة أصغر أطفال أسرة ساكسون، وهو الصبي الوحيد، المحتكم على قلب مرهف وصغر على نحوٍ غير طبيعي. مدفوعة بتشجيع

الأطفال للإسهاب أكثر في الوصف، وصنع حبكة لا ترحم، ابتكرت لوفاني تحفة فنية من الرعب، ومغمورة بالبهجة التي لطالما شعرت بها عند ابتكار قصة (لكن دون أن تفتر شفتاها قط عن ابتسامة- وهو ما بدا مثيراً للفضول- حتى بالنسبة إلى الأطفال)، جلست تحت شجرة في آخر الحديقة لحظة غوص الشمس بتؤدة في خط الأفق الغربي الأسود، وروت للأطفال القصة الشائكة المفزعة عن رجل عجوز هوايته إمساك الأطفال ودفنهم حتى أعناقهم ومن ثم لف رؤوسهم التي رتبها في صفوف مثل الملفوف بثعابين فتاكة مضفخة بالعسل. وقبل وقت طويل من نيل المجرم القصاص العادل، خر ساكسون الصغير صريعاً على الأرض جزاء أزمة قلبية كان في السابعة من عمره.

قبل سنوات طويلة، عاش رجل لون بشرته أحلك من الليل، على ضفاف نهر «لالوك» في أعماق أفريقيا، دأب على الإمساك بالأطفال البيض- الذين خسروا سناً واحدة على الأقل أمام صعوبات الزمن- ووأدهم في حديقته. كان يدفنهم بالكامل باستثناء رؤوسهم: يبقيها فوق الأرض لحبه سماعهم ينوحون ويصرخون وينادون على أمهاتهم، اللواتي لم يعرفن طبعاً مكانهم ولم يهرعن يوماً لنجدتهم.

كان يطعمهم العسل والثعابين الحية التي تتلوى وتنساب عبر شفاههم مروراً بحناجرهم بينما ذيولها ما تزال تصارع وتنزلق تحت آذانهم. وفي الليل تُستخدم رؤوس الأطفال كدعامات لتحفيز أفاعي الرجل التي كان يربيها كحيوانات أليفة. تمتعت جميع الأفاعي بصحة جيدة، وكانت سمينة وباردة كالثلج، وتعشق نقر الركب، والدخول سريعاً إلى الأنف الذي كان يشخر عاجزاً عن الدفاع عن نفسه اعتاد الرجل أن يقهقه بينما كان –

كُشف هذا الجزء من قصة لوفاني لاحقاً مكتوباً على قصاصة ورق مصفرة حفظت تحت لوح من الزجاج في مكتبة ساكسون. كتبت القصاصة بخط يد طفولي لإحدى طالبات ساكسون الأكبر عمراً

اجتث لسان لوفاني من جذوره. رأته وهي مختنقة بدمائها، على الأرض تحت كعب حذاء سيد مزرعة ساكسون. تضرعت بصمت لاستعادته، لأنها عرفت لعنة بلادها الأصلية من دون لسان في الفم أو في بقعة محددة يتقيها بنفسه، يضيع مغني روح المرء للأبد ليشخر ويشخر مثل خنزير أبد الدهر.

رمي لسان لوفاني نحوها مع رشقة من الرمل. كان أشبه ببتلة وردة زهرية سميكة مدقاة الجذر. في كوخها، عرّضت اللسان للدخان إلى أن أصبح ناعماً ومرناً كالجلد. وفي يوم بعينه عندما تحوّل لون الشمس جزئياً إلى الأسود، دفنته تحت شجرة معنولية عجفاء في مزرعة «ساكسون».

حتى قبل موتها الذي جاء بعد أربعين عاماً، بزّت الشجرة جميع أقرانها وفاقتهم نمواً. اعتقد عبيد آخرون أنها ممسوسة بالسحر، وادّعوا قدرتها على الكلام وإصدار الموسيقا، كانت تُفرع الطيور وتملك القدرة على رؤية المجهول. وإن اختبأ عبد بين أغصانها فلن يره أحد. سرت أقاويل عندما كانت مريديان في سنتها الجامعية الثانية في «جامعة ساكسون» حول فكرة قطع الشجرة، وانضمت إلى أعضاء «فرقة موسيقا الحجرة» وإلى قائد الفرقة الهنغاري الغريب الأطوار عندما ربطوا أنفسهم بالسلاسل حول جذعها. كانوا قد أطلقوا على شجرة «العابر» منذ زمن بعيد اسم «شجرة الموسيقا» ولم يطيقوا فكرة قطعها، حتى لو كان ذلك كرمى لتشييد مبنى جديد رائع مخصص للموسيقا. كان أحد المحسنين من الشمال تواقاً إلى تقديمه كهبة- غافلاً عن أن المباني التي شيدها قصمت بالفعل معظم الغطاء الأخضر النفيس في «ساكسون». نجت الشجرة إلا أن المنبر والمنصة أزيلا وقُلّمت الأغصان السفلية والدرج- الذي جعل الوصول إلى الأجزاء العلوية منها أمراً يسيراً على نحو مبهج. ولماذا؟ لأن الطالبات اعتقدن أن العبيد الذين عاشوا قبل مئة وخمسين عاماً استخدموا المنصة ومن يعرف، لربما استخدموا المنبر أيضاً، كأماكن

لممارسة الحب. مريديان نفسها اختبرت شيئاً يشبه ممارسة الحب هناك. وبالفعل بدا أن ما قيل كان صحيحاً، إذ لم يرها أحد.

سرت اقاويل عديدة ونسجت العديد من الملاحم حول شجرة «العابر» مما مكّن كل طالبة من الطالبات المتنوعات المشارب من اختيار الملحمة التي ترغب بتصديقها. جرت العادة على إقامة حفل يتيم تحت شجرة «العابر»، حفل يوحد جميع الطلبات في «ساكسون»، الميسورات أو الفقيرات، صاحبات البشرة الأدكن (على الرغم من قلة عددهن) مع الطالبات الجميلات، والغبيات مع الذكيات- كان هذا الحفل هو حفل «إحياء ذكرى فاست ماري التي سكنت البرج».

قيل إنه خلال العشرينيات رزقت شابة اسمها ماري بطفل في البرج على مسافة قصية عن إحدى تخوم دار «تاور هول». أخفت أمر حملها وكتمت صرخاتها أثناء ولادة الطفل (وكانت بالطبع مسربلة بالعار مما منعها من طلب أي مساعدة أو إخبار أحد بما يحدث). ثم عمدت إلى تقطيع الرضيع بعناية إلى قطع صغيرة ورمته في دورة المياه. علقت أجزاء الرضيع في المرحاض وألقي القبض على فاست ماري. اقتيدت وجلدت بالسوط امام أساتذتها ووالديها. وحبست في منزلها وحرمت من وجود أي نافذة في الغرفة. بعد ثلاثة أشهر شنقت نفسها

كانت كل فتاة صلّت يوماً لتأتيها الدورة الشهرية مرحباً بها في الحفل التذكاري الذي تؤدى فيه رقصة عيد العمال البطيئة، ويقام حول جذع شجرة «العابر»، (التي كانت، كما قيل، ملاذ فاست ماري الوحيد في حرم جامعة ساكسون ورفيقتها) كانت المناسبة الوحيدة من بين جميع المناسبات الاجتماعية العديدة المقامة في «ساكسون» التي تعامل فيها الفتيات كأسنان المشط، إذ إنهن في ذلك اليوم، يمسكن ايدي بعضهن ويشددن عليها

كان من الممكن رؤية الشجرة من خارج الحرم الجامعي، غير أن عظمتها الحقيقية

تتبدى فقط بعد اقتراب المرء منها مسافة كافية لإلقاء نظرة عن كثب، رغم أن الأمر حينها بدا مثل التحديق في إحدى جهات مبنى طويل تغطيه النتوءات. من الطريق القريب من البوابة، كان بوسع المشيعين السائرين خلف نعش وايل تشايل رؤية رأس الشجرة وجسدها المهيب وأوراقها الضخمة والأزهار التي غطتها بالكامل. كانت أشبه بجبل أشمّ مضاء بالشموع. فيما امتدت مساكن الطالبات القرميدية الحمراء الفارعة على طول الميدان الذي يشتمل على الشجرة، وعلى جانبيه، زُينت بعض النوافذ بالأزهار. فيما عضت نوافذ أخرى برموز نوادي النساء في الحرم الجامعي: كويز QEZ أو زيك ZEQ أو ما شابه. أما أخريات فقد علّقن لافتات كبيرة دهنتها بأيديهن موجهة إلى «الطفلة الجامحة». «الرب سيباركك و.ت.»، «نحبّك يا وايل تشايل». أخبري الرب أننا مستعدات، أيتها الطفلة الجامحة». كانت نوافذ أخرى فارغة فحسب أو ترفرف عليها لافتات مصنوعة من ورق الكريب ملونة بالأرجواني والذهبي. وهما لونا المدرسة.

الجلبة الصادرة بشكل رئيس من صف المشيعين الأمامي، طالتهم الآن. استدارت نحوهم الفتاة التي تتقدمهم واسمها تشارلين، بقامتها الممشوقة وشعرها الأحمر المستعار ووجهها المعمور بالكثير من المساحيق. عكست لكنتها أنها من مدينة سانت لويس التي تعشقها. كانت مؤقتاً حبيسة السنة الأولى، طالبة تحت الإكراه.

«يقولون إن رئيس الجامعة قال إنه لا يمكن إقامة جنازتها في كنيستكم» لم تكن تشارلين تشعر بالانتماء إلى أي شيء في الجامعة باستثناء الرجال الذين مشوا فوق أرضها. كانت تمضغ علكة وتطقطق البوالين وهي تتحدث.

ضحكت مريديان على الرغم من المناسبة. تخيلت الرئيس، وهو رجل أسمر بطريركي بامتياز ذو عينين رماديتين محايدتين متلألئتين، يدنو من النعش ويقول، كما لو أنه يخاطب المصلين، «نعتذر أيتها الشابة ولكن لا تسمح قوانين وأنظمة هذا المعهد بإقامة

جنازتك داخل هذه الكنيسة، معهدنا الذي وهبته لنا، كما تعرفين ربما، إحدى أرقى وأنبل عائلات السرقة في نيويورك. كما أننا على أبواب إقامة صلاة العشية وكان يتوجب عليك إجراء الترتيبات اللازمة لإقامة هذه الجنازة من خلال التنسيق مع القنوات المناسبة قبل وقت أطول بكثير».

وبدا، في الحقيقة، أن هذا ما قاله تقريباً، إذ كان هناك عمل شاق يجب القيام به أمام الكنيسة (وهي حصن حجري مزخرف بالزجاج الملون، بقوائم عملاقة تدعم سقف شرفته الناتئة) حيث حاول المشيعون رسم خطة لما يتعين عليهم فعله الآن.

عندما وصلت مريديان وآن- ماريون إلى درج الكنيسة، وجدتا الحارسين اللذين كانا عند البوابة. فيما لاذ الرئيس، بعدما أصدر أوامره، بقصره الفيكتوري الرابض على التلة، وتخيلتاه هناك في الطابق الثاني يتلصص عليهم من وراء ستارة قصره الإيرلندية المصنوعة من الدانتيل.

قال الحارس: «لقد حذرتكن جميعاً، أنتن تقحمن أنفسكن في المتاعب» لكنه بدا الآن فاقداً رباطة جأشه. تبدل مزاج الطالبات من الحزم إلى السخط. كن فتيات حسنات التربية ويتطلب تصاعد حنقهن وقتاً. ورغم ذلك، فإن من طبيعة الحنق أن يتصاعد، ولم يكن الحارس أحرق كي لا يدرك ذلك.

بعد إنزال النعش ووضعه على الدرج، تفحصت آن- ماريون قفل باب الكنيسة الذي يبلغ طوله ثلاث بوصات وجالت ببصرها بحثاً عن خشبة أو صخرة كبيرة لخلعه لكنها لم تعثر على شيء. بدا جيران وايل تشايل القادمون من المجمع السكني متألمين، لكن عندما عبروا بوابة «سكسون»، شعروا بالضآلة وهم محشورون في أجمل ملابسهم المخصصة لأيام الآحاد الملونة بالأحمر والأصفر والنيلي، وتحاشوا النظر في أعين الطالبات. كانوا يدوبون ويتسربون حلسة أكثر وأكثر إلى أن احتجوا. مثل حرون ضب الملح على ذيله فتحت

مريديان ذراعيها وركضت وراءهم تستجديهم البقاء، ولكنهم لم يعودوا.

ارتاح النعش على الدرج، كان لونه البرتقالي يضاهي بجماله جمال لون الشروق. خيّمت لحظة صمت طويلة ثم تسبب استيعاب حقيقة رفض دخول الطفلة الجامحة إلى الكنيسة في إطلاق حناجر الحشد صرخة واحدة، بدت مثل نواحٍ متواصل لخمس دقائق، رنّ الأثير بصرخات ولعنات الشابات المؤدبات اللواتي يسكنّ في أماكن بعيدة عن الجامعة شعرن بالخزي والغضب العارمين، وبدأن بإطلاق صرخات الاستهجان وطرق أقدامهن على الأرض، وإخراج ألسنتهن التي امتدت وسط دموعهن. وبدأن في ذروة هيجانهن العاطفي بنزع مجوهراتهن ورميها على الأرض- عقود اللؤلؤ المستتبت الثقيلة المكونة من ثلاثة أطواق والمشابك الضخمة الدائرية المطلية بالذهب الدالة على الطهارة، والأقراط المكونة من كرات متقاربة والأساور اللامعة المثقلة بالأحجار الملونة فردن شعرهن المسترسل، وتسمّرت نظراتهن طوال الوقت على باب الكنيسة المقفل، وحدقن فيه بشراسة أقرب إلى البغض.

وبعدها سرى ما يشبه تواطؤ متبادل، ومن دون نطق كلمة واحدة، رفعت حاملات النعش التابوت إلى وسط الحرم الجامعي وأنزلنه أرضاً برفق تحت شجرة «العابر»، التي حامت أوراقها المضاءة بالأزهار فوقه مثل عرة مقلوبة لشعر أم متموج نصف مسترسل. وعوض الازهار، استعانت الطالبات كما لو خططن لذلك مسبقاً بأكاليل صنعنها على عجل من أوراق الشجرة المتساقطة، شجرة «العابر» نفسها، التي لطالما احرلت لاولادها العطاء، رمت إحدى أوراقها على صدر الطفلة الجامحة، التي ارتدت للمرة الاولى، وهي مسجاة في نعشها، ملابس جديدة.

غنّت الطالبات وهن يغالبن دموعهن التي انهمرت مثل وابل من مطر انشحي الدائب وسالت على خدودهن الحزينة والحانقة.

«سننتصر.

سننتصر..

سننتصر يوماً...

أؤمن في صميم قلبي، نعم أنا على يقين

بأننا سننتصر يوماً....»

تلك الليلة، بعد أن ووريت الطفلة الجامحة الثرى في ركنٍ أحضر من المقبرة المحلية المخصصة للسود، افتعلت الطالبات، ومن بينهن آن- ماريون أعمال شغب في حرم جامعة ساكسون للمرة الأولى على مدى تاريخ طويل مهادن منزّه عن أي خطأ، والشيء الوحيد الذي نجحن في تدميره هو شجرة «العابر». رغم تضرّع مريديان لهن بهدم منزل رئيس الجامعة عوض قطع الشجرة، عملت الطالبات وسط نوبة من الغضب والارتباك والإحباط على مدار الليل، وقطعوا تلك الشجرة الموسيقية العتيقة والجليلة التي لطالما كانت ملاذاً آمناً، نشروها وسوّوها بالأرض.

«هل سرقتِ شيئاً؟»

لطالما راود مريديان شعور بالذنب، حتى وهي طفلة، رغم جهلها التام لما ارتكبته. عندما حاولت البوح لأمها عن أحاسيسها، اكتفت والدتها بسؤالها: «هل سرقتِ شيئاً؟».

ما كان يجب على والدتها الإنجاب. اقتصرت قدرتها على التفكير والنمو والفعل على الحالات المنعتقة من احتياجات الأشخاص الذين تعيلهم، أو من متطلّبات ومستلزمات الزوج. كانت روحها هشّة جداً وهزّة صغيرة كفيلة بتشظيتها وإحداث عطب يتعذر إصلاحه.

في أواخر أيام صباها، تذوقت حلاوة الاستقلاء في السرير حتى الساعة التاسعة أو العاشرة أيام السبت، ورفاهية الاستمتاع بجني المال من عملها معلمة في مدرسة. عرفت حرية التفكير خارج حدود الممكن في حياتها. كان أمامها خياران في الواقع: إما البقاء في مسقط رأسها والعمل في التعليم أو الانتقال إلى مكان آخر لتعلّم هناك. لم تحول قط التفكير بالخيار الذي يتعين عليها اتخاذه. مرّت هذه الفترة من حياتها كغمضة عين، ولم تتسنّ لها فرصة تقديرها حقّ قدرها. كان هناك بهجة لاستقلاليتها، مغامرة ملامسة أفقها، ولكنها رغبت بأن تهبها الحياة ما هو أكثر: ثراء أكبر وعوالم أكثر. شرعت بالبحث عن جرعة سعادة أكبر من تلك التي حصلت عليها. لاحظت أن الفتيات الأخريات يقعن في الحب ويتزوجن. بدا الزواج وكأنه يدخلهن في حالة من النشوة وتحلحل يقينها حول حقيقة أن أسلوبها في الحياة يشعرها بالسعادة بالقدر الذي حسبته. بدت حياتها بلا هدف ولا تصل بها إلى أي مكان يوماً إثر يوم. بقي منسوب سعادتها كسيدة عازبة على حاله. لم تدم طعم النشوة حتماً وأرادت أن تضيف النشوة إلى الأحاسيس العذبة الأخرى التي تشعر بها وبوصفها معلمة، حظيت بالطبع بالاحترام والمال. كان هذا أمراً مهماً بالنسبة إليها. ولكن ثمة في داخلها شعور بأن أمهات طلابها يشعرن بالشفقة عليها، بصرف النظر عن حسدهن

لها على ملابسها وحديثها وسيارتها السوداء الصغيرة ومن خلال شخصيتهن المنهكة أو الباردة ومظهرهن المكتنز المتكلّف دائماً إلى حدّ مخيف، بدأت الشكوك تساورها حول وجود حياة داخلية غامضة خفيّة عنها تجعلهن مستعدات للاحتمال والصبر بل ويسعدن بذلك. كان الرجل الذي تزوجته، والد مريديان، مدرّساً أيضاً. كان يدرّس التاريخ في القاعة المجاورة لقاعتها. هادئاً ونظيفاً وصادقاً. كانا يتبادلان أطراف الحديث بوصفهما صديقين لفترة كافية قبل أن تشعر بأحاسيس مفعمة بالتسامح إزاء عاداته الشخصية التي عرّفتها على أنها حبّ. كان شخصاً حالماً بلا طموح، يدوس الأرض بتأنٍ كما لو أنه مدرك لكل خطوة يمشيها وللآثار التي تخلّفها خطواته على الطين. صرخ عندما ولج جسدها، كما صرخت لاحقاً عندما خرج أطفالهما من جسدها.

لم تستطع قط مسامحة مجتمعها وعائلتها وعائلته والعالم بأسره لعدم تحذيرها من الأطفال. لمست على مدار عام واحد زيادة طفيفة في منسوب سعادتها. استمتعت بضم جسدها إلى جسد زوجها عندما كانا يمارسان الحب، وابتهجت بوجود شخص تشاركه كل ما يحدث معها خلال يومها دقيقة بدقيقة. لكنها أصبحت خلال حملها الأول غريبة عن الشخص الذي كانت عليه من قبل. ذهنها مشتت كحال جسدها، بين الجزء الذي يمثل كينونتها وذاك المستحدث. حلّت ضغوطات الأمومة مكان استقلاليتها الهشة، وأيقنت- يا للرعب ويا للدهشة- أنه من المحظور عليها أن تكون ممتعضة من كونها «متزوجة». أدركت أن حياتها الشخصية انتهت. لم يكن هناك من تصرخ في وجهه وتقول «هذا ليس عدلاً!» وعبر إدراك هذا، أدركت ماهية النظرة التي كانت تراها في أعين النسوة لأجيال. الحياة الداخلية الغامضة التي توقعت أنها تمنحهن غبطة سرية لم تكن سوى إدراك تام لحقيقة أنهن كن موتى يعشن من أجل أطفالهن فحسب ولم يجدن بدورهن من يصرخن في وجهه ويقلن «هذا ليس عدلاً!» النسوة اللواتي لديهن الآن ثمانية أطفال، اثنا عشر، خمسة عشر، جرّبن بعدة أن يتبادلن أساس النكات حولهن، ولكن بوسعها الآن أن تشعر بمدى بذاءة تلك

النكات: كانت مثل الضحك على شخص ذفن حياً، وشيدت جدراناً بنتها حجراً فوق حجر لتفصلها عن حياتها الخاصة.

كان ذلك أول مشوار ذهولها. عندما كبر أولادها ولم يكونوا مزعجين جداً- وكانوا عبئاً ثقيلاً دائماً على كاهلها- أرادت أن تعود إلى التعليم مجدداً ولكنها فشلت في اجتياز الامتحانات الجديدة ولم يرق لها الجيل الجديد من الطلبة. اكتشفت في الواقع افتقارها إلى أي اهتمام بالأطفال، قبل أن يصبحوا راشدين؛ لتدعي حينها أنها تتذكرهم إن التقت بهم. تعلّمت صنع الأزهار الورقية ووسائد الصلاة باستخدام مزق صغيرة من الأقمشة، وكان تعلّمها هذا نابعاً من حاجتها إلى الشعور بأنها تصنع شيئاً ما. لم تتعلّم الطبخ جيداً قط، ولا تضفير جدائل جميلة أو أن تكون مبدعة داخل منزلها في أي مجال آخر. كان بإمكانها أن تبدع لو رغبت بذلك، لكن الابتكار بقي نائماً في داخلها، محظور عليه الإفصاح عن نفسه. كان كل هذا متعمَّداً، في حرب على الأشخاص الذين لا تستطيع الإعراب لهم عن غضبها أو أن تصرخ في وجوههم قائلة: «هذا ليس عدلاً!»

بدت لابنتها حتماً ببعض الأشياء التي لم تصدقها هي نفسها. رفضت تلقي المساعدة، وبدت بالنسبة إلى مريديان عاجزة تماماً عن فهم ما يجري حولها. لكنها في الحقيقة كانت طوال الوقت مدركة تماماً لكل شيء.

نبع شعور مريديان بالذنب منذ البداية من إحساسها بأنها سرقت سكينة والدتها، وشطرت ذات والدتها الواعدة. شعرت بالذنب منذ البداية، رغم عجزها عن فهم إمكانية أن يكون هذا خطأها.

عندما سألتها والدتها، من دون أن تنظر إليها: «هل سرقت شيئاً ما؟» جثم الجمود على مريديان ولم تستطع الحراك لدقائق. السؤال شلّها بكل معنى الكلمة

ذهب

ذات يوم، عثرت مريديان حين كانت في السابعة من عمرها على كتلة ضخمة مصنوعة من معدن ثقيل. كانت مغطاة بطبقة سميكة من الطين، ورغم غسلها، لم تلمع. أيقنت أن المعدن كان هنك، لأن الكتلة كانت ثقيلة جداً. أخيراً عندما جففت المياه، استخدمت مبرداً كبيراً وكشطت الصدأ لتفاجأ بأن الكتلة كانت عبارة عن قضيب من الذهب الأصفر. درجت الأفلام على تسميته سبيكة كشطت ما مساحته بوصة مربعة وركضت حاملة السبيكة (رغم ثقل وزنها) لتريها لوالدتها التي كانت جالسة على الشرفة الخلفية تقشر البازلاء

صرخت «وجدت ذهباً!» «ذهب!» وضعت قضيب الذهب الكبير الثقيل في حضن والدتها.

قالت والدتها بحدة: «ارفعي هذا الشيء، ألا ترين أنني أحضر البازلاء للعشاء؟»

اصرت قائلة «لكنه ذهب! ألا تشعرين كم هو ثقيل؟ انظري إلى صفرته. إنه ذهب، وسيجعلنا أثرياء!».

لكن والدتها لم تسعد وكذلك والدها وإخوتها. أخذت قضيب الذهب وكشطت الصدأ كلّه إلى أن شعّ مثل سنّ كبيرة. وضعته في صندوق أحذية ودفنته تحت شجرة المغنوليا في الفناء. دابت على الذهاب إلى هناك أسبوعياً لتحفر وتنظر إليه. ثم قلّت زياراتها رويداً رويداً . إلى أن نسيت في نهاية المطاف أن تحفر لتستفقده انشغل ذهنها بأشياء أخرى.

الهنود والنشوة

بنى والد مريديان لنفسه في الفناء الخلفي من البيت غرفة بيضاء صغيرة مثل تلك المستخدمة لحفظ العدة. كان للغرفة نافذتان عليتان تحت السقف مباشرة أشبه بعيني البوم. لاحظت في صيف إحدى السنوات وكان صيفاً قائظاً أن الباب مفتوح فتسللت على رؤوس أصابعها ودخلت إلى الغرفة. كان والدها جالساً أمام طاولة صغيرة بنية منكباً على خريطة قديمة، مصفرة ومتشققة وحوافها مهترئة. كانت الخريطة تبين المستوطنات القديمة للهنود في أمريكا الشمالية. حدقت مريديان بذهول في أرجاء الغرفة. غطت الجدران صور هنود: الزعيم الهندي الملقب بالثور الجالس، وزعيم الحرب الهندي الملقب بالجواد الجامح، والمحارب جيرانيمو، والقائد الذئب الصغير والزهرة الصفراء، بل وحتى رسوم لـ منيهاها وحبيبها هيواثا(5). كان هناك صور حقيقية لا تقدر بثمن ربما-عكف والدها على جمعها لسنوات- لنساء وأطفال هنود يتضورون جوعاً وسفروا أعينهم الزجاجية الهالكة في آلة التصوير. ثمة أيضاً كتب عن الهنود، تدور حول حقوق أراضيهم ومحميّاتهم والحروب التي خاضوها. عندما اقتربت أكثر على رؤوس أصابعها نحو رفوف الكتب ومدت يدها لتلمس إحدى الصور التي تُظهر طفلة هندية متجمدة (استلقت و لدتها إلى جانبها مضرجة بدمائها) رفع والدها نظره عن الخريطة، ووجهه مبلل بالدمع. ظنت لوهلة انه قطرات عرق. صُدمت وأصيبت بالهلع، فأطلقت ساقيها للريح.

سرقت السمع في أحد الأيام إلى حديث دار بين والديها كانت والدتها تملأ جرار لفاكهة في المطبخ. قالت والدتها وهي تصب شرائح التفاح في الجرار محدثة صوتاً يشبه صوت سكب الماء: «وفعلتها إذن، أليس كذلك؟»

أجاب والدها: «لكن الأرض أرضهم بالفعل. كنت مجرد حفظ لها من صفوف الفوف والبندورة التي زرعتها على طول الذيل لأكبر المتكور لمدافن الأفعى بمقدمة تلك الرابية

مليئة بجثث الهنود. طعامنا صحي بفضل الحديد والكالسيوم المأخوذ من عظامهم. بالطبع لأنها مقبرة، لا يمكننا تملكها في أي حالٍ من الأحوال»

قبل شق الطريق الجديد، كان من المتعذر رؤية المدافن من الطريق القديم. سرت أنباء بين معظم أهالي البلدة أن الرابية الهندية موجودة هناك.

قالت والدتها «هذا مقرف. كيف لي التمتع بتناول طعامي إن واصلت حديثك عن الهنود الموتى؟».

قال والدها «عمر الرابية آلاف السنين. لا يوجد الآن سوى الغبار والمواد المعدنية»

«لكن أن نعطي أرضنا إلى هندي عارٍ»

«عارٍ؟ ليس عارياً. هل تصدقين تلك الخزعبلات التي يقولونها في التلفاز؟ إنه يرتدي قميصاً وجينزاً أزرق. شعره هو الشيء الوحيد الذي يبدو كما يظهر عليه الهنود في التلفاز رغم أنه قصه وأصبح طوله موحداً على مستوى فكه السفلي، تماماً مثل قصة شعر جوني كاش. «كيف لك أن تجزم أنه ليس رجلاً أبيض يلعب دور هندي؟». «لأنني أعرف الرجال البيض الذين يأبون الادعاء بأنهم أي شيء آخر ولا حتى لدقيقة واحدة»

«سيتحلون [illegible] أي شخصية لفترة كافية مهما طالت في سبيل سرقة أرض» سبق لمريدني أن رأت بأم العين هندياً حقيقياً ذات مرة. رجل طويل [illegible] ينتعل حذاء رعاة البقر [illegible] وجهه مثل كيس ورقي بني [illegible] [illegible] للامبالاة منسيا بخطوط كثيرة. [illegible] سود [illegible] يشوبهما الحول [illegible] [illegible] رحالة وفضولياً مثل [illegible] [illegible] [illegible] من المرة الأولى [illegible] [illegible] إليه [illegible] [illegible] الآفاق فقط [illegible] [illegible] [illegible] كم [illegible] [illegible] [illegible]

الداكنة التي أنهكتها تبدلات الطقس يمكن أن تبللها الدموع عجزت عن رؤية معصميه القويين اللذين شكلت الأوساخ حلقات تحيط بهما وهما يضغطان على صدغيه، أو بداعب بيأس ما تبقى من شعره الذي كان ما يزال أسود.

اسمه ولتر لونجنايف، مما حدا بمريديان إلى ابتلاع تحيتها عندما التقيا في المرة الأولى، وقد جاء من أوكلاهوما. بدأ عمله على شاحنة قديمة تعطلت في سفوح جبل «ستون ماونتن» تركها، وحسبما قال- مغمغماً كما لو أنه ثمل، وهذا نقيض ما كان عليه- كان سعيداً بالسير في أراضي أسلافه، قبيلة الشيروكي.

قدم والدها للسيد لونجنايف العقد المتعلق بقطعة الارض الممتدة على مساحة ستين فداناً والتي طالب بها جده بعد الحرب الأهلية. أرض صخرية لا يمكن حراثتها (إلى أن أزال والدها وإخوتها بأيديهم جميع الصخور مستعينين بعربة يدوية)، كما تعلوها الكثير من التلال مما صعب مهمة بيعها (كان المشترون المحتملون يظنون دائماً أن الهضاب عبارة عن تلال من نوع خاص). احتفظ السيد لونجنايف بالورقة في قميصه إلى أن أضحى جاهزاً لمواصلة حياته- أمضى معظم الصيف يخيم في الأرض- وأعاد بعدها الارض إلى والدها

قالت والدتها: «هرب رجال آخرون من عائلاتهم على الفور أنت بقيت. لكنك تخليت عن الأرض التي نضع عليها اقدامنا. أعتقد أن هذا يجعل منك بطلاً»

قال والدها: «شاركنا بما حدث، كما تعرفين».

«شاركنا بماذا؟».

«بزوالهم»

قالت والدتها: «ها ربما لعبت انت دوراً في زوالهم، بصرف قله اكن قد وجدت حسبها كما

أنك أخبرتني عن مدى دهشتك عند اكتشاف [illegible] بعضهم [illegible] على [illegible] للحبوب

إبان الحرب لأهله [illegible] السود [illegible] حاربوا ضد

الهنود في سلاح الفرسان العربي».

[illegible]

[illegible] الهزيمة [illegible]

[illegible] العالمية [illegible]

[illegible]

إنساناً عادلاً، ويحميه من التداعي.

[illegible]

أثرياء»

[illegible]

[illegible]

د ب والدها على الدهاب إلى المررعة عصر كل يوم بعد المدرسة. كانت أرضاً جميلة وزاد من جمالها روابي «مدافن الأفعى المقدسة» التي تبلغ مساحتها خمس مئة يارد، وشكلت هضبة مائلة متعرجة خلف حقول الذرة. كانت الحديقة نفسها خصبة، ارضاً سهلية تأقلمت مع تعرجات الأفعى المقدسة كما تتأقلم أمواج المحيط مع الشاطئ. مقابل مدافن الافعى والحديقة انساب جدول راكد بطيء الجريان يميل لونه إلى البني، مثل سيلان قطرة أمية. لطالما استمتعت مريديان في البقاء معه في المررعة، رغم ندرة تبادلهما أطراف الحديث. لم يكن إخوتها مهتمين بالزراعة، ولا يكنون اي مشاعر إزاء الأرض أو الهنود أو المحاصيل. كانوا يأكلون المنتجات الطازجة التي يوفرها والدهم أثناء حديثهم عن السيارات والمحركات والإطارات والأسعار المخفضة لأغطية إطارات السيرات. كانوا يعتبرون أن العمل في محطات الوقود ارتقاء، وأيّ عمل هو ارتقاء باستثناء العمل في الزراعة. كانوا في الواقع يستخدمون كلمة «مزرعة» بوصفها شتيمة، مزمجرين وهم مكبون على ولائم شهية: «تباً لك، عد إلى المزرعة»

لكن مريديان شاطرت والدها حزنه على خسارة المزرعة، والتي أضحت الآن «متنزه الأفعى المقدسة». شاطرته ذلك لأنها أدركت أن هباته جاءت بعد فوات الأوان فقوبلت بالرفض، وشرقت منه مسرّاته.

قبل عدة سنين، عمد مزارع يزرع القمح إلى إزالة النقاط التي عبرت من خلالها الرووس المتطاولة لـ «مدافن الأفعى المقدسة» سياج الاسلاك الشائكة للمزرعة المجوره حدث هدا قبل زمنٍ بعيد من ولادة مريديان أو حتى من ولادة والدها. جدة والدها فيدر ماي التي قيل إن جنوناً خفيفاً ألِفَ مسها، ناضلت مع زوجها لإنقاذ «مدافن لافعى» اراد المزرع إزاله جهته من رابية المدافن علاوة على ذز عظام الهنود المبعثرة في الهو ء. قالت فيدر ماي لروجها «ربما ستـ معنياً بزرع الطعاد فوق عظام قوم اخرين. ولكن ن كنت معنياً

فلا تتوقع مني أن أضع في فمي لقمة أخرى في بيتك!»

كما انتشرت أقاويل أن فيدر ماي كانت جذابة جداً، ما دفع جد جد مريديان إلى تجنب إزعاجها، فهو لم يكن قادراً على تحمل معاناة تداعيات الوحدة. راقها الذهاب إلى هناك. فيدر ماي فعلت ذلك، وجلست على ظهر «مدافن الأفعى»، تدلّت ساقاها الطويلتان بينما كانت تمضغ عود الحشيش. كانت في طور الدخول إلى مرحلة الصبا لتغدو سيدة- كان هذا قبل زواجها من جد جد مريديان الشبق- ستتزوج قريباً، وستحبل قريباً، وقريباً ستصير شبيهة والدتها، سيدة قوية صامتة منهمكة دائماً في غسل الثياب وكويها أو الطهو أو إيقاظ أفراد عائلتها من قيلولتهم لمعاودة العمل في الحقول. حلمت جدة جدتها، بينما الشمس تسدل أشعتها على ساقيها وظهرها، لتبدو وجهاً متلألئاً يبهج الناظر كضوء القمر

راقبت ذات يوم مجموعة من السناجب تلعب وتصعد وتهبط على جانبي «مدافن الأفعى» عندما اختفت نهضت وتبعتها إلى المدافن التي تشكل مركز ذيل الأفعى المتكور، وهي حفرة عمقها أربعون قدماً، ذات جوانب خضر زلقة. عندما وقفت في مركز الحفرة، والشمس تلفحها مباشرة، حدث لها شيء استثنائي. شعرت كما لو أنها دخلت إلى عالم آخر، إلى نوع آخر من الأثير. بدأت الجدران الخضر بالدوران، وتحفزت مشاعرها لدرجة عالية، ولكن الشيء التالي الذي عرفته أنها نهضت عن الأرض. عرفت أنها فقدت وعيها لكنها لم تشعر بالوهن أو المرض. شعرت بأنها تجددت، كما لو أنها فارقت نشوة روحية عنيفة أحدثت دموعها تفجرات دافئة في أرجاء جسدها وبدأت جفونها ترفرف وتحترق

بحثت فيدر ماي لاحقاً عن جميع الأديان التي لم تكن قائمة على أحجار نشوة لمدمنة- وصدمت بالتالي كنيسة معموديتها وأبرشيتها غير المتعاطفة- وعندما تشرفت حمامها على النهاية، عشقت المشي عارية في ضوء ممرها وما عبدت سوى الشمس

كانت تلك الرواية التي وصلت مريديان، والتي بدورها وطيت على التردد على هذه

[illegible] في مسعى منهم [illegible] مع [illegible]

[illegible] من [illegible] متعددة من [illegible] راقية تدخل [illegible] أعمق [illegible] في [illegible]

[illegible] مكور وتعود [illegible] وقد [illegible] شرقة

[illegible] محتضنة [illegible] إحساس [illegible] عندما

رفعت [illegible] الحفرة [illegible] كعمر [illegible]

[illegible] بهدوء فوقها مثل كتلة من الدخان [illegible] على شكل [illegible] في شجر

[illegible] بقعة صغيرة في لحيظة وحيدة [illegible] مع [illegible]

[illegible] آخر كانت محاطة عوضا عن ذلك بالموتى أرعبها هذا الأمر [illegible]

يكون شخصا ضئيلا جدا، محاطا بجدران عتيقة صماء مبنية [illegible] وحيدة في مكان لا

[illegible] ووقفت بإباء، طاردة مخاوفها [illegible]

[illegible] في ظهر ساقها اليسرى، ولولا [illegible] مستمتعة [illegible] وهدوء [illegible] هذا الشعور كإشارة على [illegible] بعدها [illegible] كما لو أن شخصا ما قد [illegible] الأرض التي [illegible] بعضها بعضا [illegible] بوحشية [illegible] من جسدها [illegible] من خلال هذه الحركة [illegible] أوراق العشب [illegible] الأزهار [illegible] مجنونة [illegible] نفسه [illegible] إلى مركز الحفرة حيث وقفت [illegible] في [illegible] جسدها [illegible] شعور [illegible] وحدها [illegible] في [illegible]

قال والدها إن الهنود شيدوا المدافن لتشكل ذيل أفعى متكوراً لمنح الأحياء شعوراً مشابهاً لذلك الذي يحس به الأموات: بدا الجسد مهجوراً، والروح وحدها من عاشت، طليقة في العالم. لكنها لم تقتنع. بدا بالنسبة إليها أنها وسيلة اتبعها الاحياء لتعزيز وعيهم بأنهم على قيد الحياة في ذلك المكان الذي يعج بالموتى. كانت احتمالاً ناقشاه بمفردهما في الحقول. سرّهما، بأنهما تقاسما جنون جدة جدتها العجيب. دفعهما هذا السر احياناً إلى التفكير بحزن حول مغزى ذلك. وفي أحيانٍ أخرى، سرت بهجة في داخلهما بسبب صلة حسية عميقة تربطهما مع الماضي. ستسافر لاحقاً في رحلاتها إلى المكسيك، إلى جبل يشتمل في مركزه فقط على بقايا مذبح عتيق، الأصل الذي لم يكن أحد متيقناً من وجوده. صعدت درجاً منحدراً مصنوعاً من الحجارة لتصل إلى قمة المذبح وتلاشى وجهها بين السحب، تماماً كما تلاشت وجوه الكهنة القدماء في السماوات واختفت عن أعين المريدين المصلين الذين ركعوا بوجلٍ في الأسفل. انبثق منها مجدداً كل ما يحيط بها، كل ما لمسته، وأصبحت من جديد لطخة في الحركة العظمى للزمن. عندما وطأت قدمها الأرض مجدداً، أحست بتقوس باطن قدميها فوق العشب، كما لو أنهما قدما فهد او دب، بمخالب منحنية وراحة خشنة عارية اكتسبت حساسية عالية جراء الاستخدام لزمن طويل

في «متحف كابيتال» المخصص للهنود، استرقت النظر من خلال الألواح الزجاجية إلى عظام أحد المحاربين، غرض دون حياء، وقد وُجد جاثماً وترك على هذه الحال، أسنانه الأمامية مخلعة، فيما تناثرت سهامه وعلاوينه المصنوعة من الطين حوله. لدى رؤيتها هذا المشهد، شعرت بالاستمرار من كونها على قيد الحياة

عندما سُمح للسود أخيراً بالدخول إلى «مقبرة الأفعى المقدسة» بعد فترة طويلة من دون محصيل والدها وقد استحالت عبراً غادت عصر أحد الأيام وحدها من دون جدوى التخفف من شعور النشوة والتبجيل الذي غمرها من قبل لم يكن هناك أناس

يصرخون ويقهقهون وهم يهبطون سفوح ديل الأفعى العظيم، وقف آخرون بكآبة، في مسعى لدراسة معرى ما قد ضاع للتوّ وللأبد

الجوز الإنجليزي

«لماذا تتعاملين مع الأمر دائماً بضيق؟» زفر صبي في نهديها وهما جالسان في المقعد الخلفي من سيارته في الخمسينيات من القرن العشرين. «ألا يمكنك الابتسام قليلاً؟ أقصد أن ابتسامة طفيفة لن تقتلك؟».

اقتصرت إجابتها على هز كتفيها بلامبالاة.

ستقطب حاجبيها على نحوٍ أكبر لاحقاً عندما تدرك أن والدتها ووالدها وعماتها وخالاتها وأصدقاءها والعابرين- ناهيك عن شقيقتها التي لطالما هزئت بها- لم يذكروا لها أي شيء حول ما يمكن انتظاره من الرجال والجنس، حتى إن والدتها لم تتفوه بالكلمة قط، وترافق شُحّ معلوماتها عن موضوع الجنس مع ما بدا افتقارها لأي اهتمام بأخلاق ابنتها. وبناءً على عدم إخبارها بأيّ شيء، فقد توقعت منها ألّا تفعل شيئاً وحين غادرت مريديان المنزل في المساء بصحبة «حبيبها»- العاشق الحالي المتلهف، ذي الأنفاس الحارقة، الذي يقود سيارته دائماً مباشرة إلى أقرب بقعة مخصصة للعشاق أو أيّ بقعة مشابهة، والتي كانت في حالتها أجمة من الشجيرات القابعة خلف مكب قمامة المدينة- اكتفت والدتها بتوصيتها أن «تكون عذبة». لم تكن تعلم أن هذه التوصية مجرّد طريقة مواربة لقول «لا تنزلي سروالك الداخلي ولا ترفعي فستانك»، وهي عبارة كانت لطالما سمعتها وحيرتها.

وهكذا وفي ظل عدم استمتاعها بالجنس إطلاقاً، فإنها راحت تمارسه بقدر ما يريد حبيبها، أحياناً في كل ليلة ولأن أحدهم أخبرها بأن الورك يصبح عريضاً بعد ممارسة الجنس، كانت تمعن النظر إلى جسدها في المرآة كل صباح قبل أن تستقل الحافلة قاصدة المدرسة وجاء حملها بمثابة صاعقة كبرى بالنسبة إليها

عاشا، هي وحبيبها الأخير، في منزل صغير لا يبعد أكثر من ميل واحد عن المدرسة

تزوجها، كما كان يعدها دائماً في حال «حدث خطأ ما». دأبت على سماع هذا الوعد لستين تقريباً (بينما كان يمسد نهاية واقيه الذكري من ماركة «تروجنز» لينفض آخر بقايا سائله المنوي). لم يكن وعده ليعني بالنسبة إليها أيّ شيء لأنها لم تستطع التفكير بأي أمر آخر قد يكون خطأ غير الذي فعلته بالفعل. عجزت عن استيعاب السبب الكامن وراء إقدامها على فعل أمر ما وبهذه الوتيرة المتكررة طالما أنها لم تكن تستمتع به.

كان اسمه إيدي. لم تستسغ الاسم بلا سبب. بدا اسم شخص لن يكون ذا شأن أبداً، رغم أن اسم «إدوارد» ما كان أفضل حالاً.

بوصفه حبيبها، تمتع إيدي بخصالٍ محددة ومحببة- وقد حافظ على بعضها. كان وسيماً ومن النمط الذي يتوافق مع نمط أبطال المدرسة الثانوية. ممشوق القوام، كتفاه عريضان، ورغم بشرته البرونزية الداكنة (الشهية كما هي عليه)، تركته بمسحة من البهجة كتلك التي تتمتع بها مشجعة فريق رياضي بيضاء؛ كانت تطغى على ملامحه هيئة مرتبعة، بينما بدا أنفه مثل كلب «الباك». بالطبع كان جيداً في الرياضة وممتازاً في لعب كرة السلة. أحبّت مشاهدته وهو يدخل الكرة في السلة من منتصف أرض الملعب، وحين يسجل رميه كان يرمقها بابتسامة، فيما أبقاها حسد الفتيات الأخريات مستمرة دائماً وهي جالسة في مقعدها

لم يكن شعره مموّجاً أو مجعداً، بل سبلاً، مثل فرشاة وبدا مثل نسخة سوداء من قصة الشعر القصيرة التي راجت حينها. دأب على ارتداء حذية بنية أيضاً من ماركة «لوفر»، وكان يضع النقود في داخلها، وسترة عالية الياقة شاعت حينها- وأروع سراويل «الجينز» الأزرق الفاتح، والتي- تعلمت لاحقاً أنه- يجب غسلها وتنشيتها وكويها أسبوعياً. كما كانت والدته تفعل، حيث إن سراويل «الجينز» المتسخة لم تكن قد أصبحت إحدى صيحات الموضة بعد. عيناه سوداوان جميلتان ودافئتان، سنانه متينة، جذابة وقد عطت ابتسامة

إعجب وجهه انها تحبّ أنفاسه التي تبقى حلوة مثل أنفاس بقرة.

بقاؤهما معاً عاد عليها بالفائدة على أكثر من صعيد. وأهم الفوائد التي جنتها هي إراحتها من عبء التجاوب مع الصبية الآخرين أو حتى الالتفات إلى فئة الرجال برمتها. كان هذا أمراً جللاً، لأنها استهابت الرجال- ولازمتها حالة الخوف هذه إلى أن وجدت الملاذ تحت جناح أحدهم ممن يبري للدفاع عنها ليصبح- خلال وقت قصير ولافت- عشيقها. أضحى هذا ربما ما يعنيه الجنس بالنسبة إليها؛ بعيداً عن المتعة، فهو الملجأ الذي يحرر ذهنها من التفكير بجميع الذكور الآخرين في العالم الساعين وراءها لتحقيق مأرب ما. لقد كان استراحة من الملاحقة.

وحالما تصبح في «ملجئها»، يمسي بمقدورها أن ترنو بناظريها إلى عالم الرجال بشيء من الرصانة والإحسان وحتى الصداقة، إذ كان باستطاعتها بناء صداقات مع الرجال فقط في حال كانت في علاقة جنسية مع عشيق قريب منها دائماً- لا لشيء إلّا ليقف في وجه أي أصدقاء جدد قد يظنون أنها «فتاة لعوب».

تحلت والدته بالصبر، كما هو متوقع، تتحمل بجلد حياتها الزوجية؛ وتتساءل عما حققته، وغير ذلك من الأسئلة. ثم كرّست حياتها لضمان سعادة عائلتها الصغيرة التي في طور التكون. كان إيدي طيباً، ونوقش أمره بين أفراد عائلتها وحظي بالقبول في محصلة تقييم العائلة - جرى تقييمه بناءً على مجموعة من المقاييس السائدة فهو نظيف على الدوام، يستحم في الصيف مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً وسراويله سواء سراويل «الجينز» أو تلك التي يرتديها أيام الآحاد مكوية على نحو متقن دائماً فقمصانه مكوية ومنشّاة وخالية من الألوان الصاخبة. احتذيته البيض المصنوعة من جلد الغزال منسّقة فقط تماشي مع الموضة الرائجة

ولكن عندما تكون صيحة الموضة العكس، فقد كان جلد الغزال يستهلك أسبوعين عبثة

كاملة من ملمع الاحذية البيض. كان إيدي ذكياً درجاته في المدرسة جيدة جداً، فيما كان يحصل على درجة ممتاز في مادة الموسيقا. قد يصبح رجل أعمال مثل والده الذي يعمل في شركته الخاصة المتخصصة في خشب البناء. لم ينقطع عن المدرسة بعد الزواج، واكتفى بالعمل لأوقات إضافية بعد المدرسة في المطعم الذي كان يعمل فيه سابقاً. كان قد لُقن الاعتقاد، المعمول به في جميع منازلهم، أن المرء لا يصبح ذا شأن أبداً إن لم يحصل على درجة الدبلوم على أقل تقدير من المدرسة الثانوية. وشعر بالأسف عندما طردت من المدرسة بسبب حملها.

سألها وهو يدفن رأسه الكثيف الشعر في حضنها: «هل تسامحيني؟»

«أسامحك على ماذا؟» لم يخطر على بالها أن تنحي باللائمة عليه. شعرت بأن حملها يشبه تقريباً انتقال مرض معدٍ إليها، كما لو أن جراثيم الحمل تنتشر في الهواء والتقاطها للمرض ليس ذنب أحد.

«تعرفين، لقد كنت دائماً متطلباً».

«دائماً؟».

«لقد فعلتها للمرة الأولى عندما كنت في التاسعة، كنت واقفاً على مغسلة، تحت نافذة الفتاة»

ضحكا «هل كنت تعرف ما الذي تفعله؟»

«عرض توازن، ولكن انتابني شعور لذيذ»

في الحالات التي لا تشعر فيها بالغثيان او الرغبة بالاستفراغ، كانا يضحكان كثيراً، رغم شعورها بالدوار بسبب الضحك. بدت الضحكة مكتومة، كما لو انها تضحك تحت الماء،

وكان صداها يتردد ببلادة في رأسها.

عاش ببساطة انحرفت إلى حياة عائلته، لتصبح «ابة أخرى» لوالدته كانت تصغي بأدب إلى حكي والده حول استغلال الناس له في الزمن الذي كان فيه السود حتماً رعاعاً. ليستدرك ويقول اعتبروا رعاعاً كانت حماتها سيدة مكتنزة ولون بشرتها برونزياً مائلاً إلى الوردي، لها ثدي واحد بعد خسارتها الاخر لإصابتها بمرض السرطان، وقد أخبرتها حماتها «خفايا» الحياة. واثارت دهشتها من خلال ذكر حقائق على غرار: من المستحيل أن تحمل المرأة إن كانت تمارس الحب وقوفاً. اشترتا معاً الأقمشة لصنع ملابس للطفل وتسوقتا لشراء أثاث مستخدم، ونبضّعتا كميات كبيرة من الطعام الموسمي لتتقاسمه العائلتان

و ثناء كل ذلك، مكثت في منزل صغير لا يبعد أكثر من ميلٍ واحد عن المدرسة ولم يكن الطفل يخطر على بالها إطلاقاً- ما لم تتصل حماتها وتذكره، أو يحدث شيء متعلق به درکت انها لم تكن ترغب به. ولكن حتى شعورها بذلك كان مشوشاً. كيف لها ألا ترغب بشيء ليست متأكدة حتى من امتلاكها له؟ ومع ذلك، كانت تملكه طبعاً. انتفخت وانتفخت وانتفخت، كما من شأن سيدة حامل أن تفعل. بشرتها الناعمة دائماً كالمخمل أصبحت مبقعة، ملامحها متبلّدة؛ بدا وجهها متورماً ومتشنجاً.

كما أنها لم تكن تفكر بإيدي كثيراً كانت تستيقظ على أنفاسه الحلوة كل صباح- وتتساءل، من يكون هذا حقاً. ما الذي يفعله في السرير إلى جوارها. أو كانت تستلقي بهدوء معه بعد ممارسة الحب، لتتمتع بالدفء الطاغي الذي يبعثه جسده الخلاب اليافع. الجسد الاسود تقريباً، اللامع والصحي، الرشيق جداً، المستلقي بحوار حسدها. عشقت الدفء، وكانت لتفعل اي شيء من أجل استبقائه، عشقت نبله كرت ممسه لإقباله على العمل بجدٍ واجتهاد من اجل مستقبلهما، بينما عجزت هي عن التعرف على ملامح هذا المستقبل قال وهما يتناولان طعام الغداء «ذات يوم سنمتلك منزلاً مثل منزل السيد

باتسون. سيكون محاطاً بأشجار الصبار وله دربه الخاص الأزرق الزاهي وأفاريز ززق. سيكون هناك في غرفة الطعام شمعدان مثل ذلك الموجود في أفلام جوان كرأوفورد. السجاد يغطي ارضيته من الجدار إلى الجدار وستكون جميع غرفه بألوان مختلفة»

كان السيد باتسون مدير مدرستهما. ومنزله الجديد يطمو على الدرب الخاص الملون بالازرق لراهي وثمة ممرات إسمنتية تطوقه، لتفصله عن طريق ترابي يستحيل عبوره عندما تمطر، مما دفع مريديان إلى تحيل سيدة نبيلة حافية القدمين ترتدي ملابس فاخرة وتقف وسط مستنقع من الوحل.

كانت تومئ بإبهام معلنة موافقتها على حلم إيدي «إمم، حسناً».

في المطعم الذي عمل فيه نادلاً وأحياناً طاهياً يعد الوجبات الخميمة والثقيلة، تقاضى أجراً زهيداً، ورغم ذلك عاملها بصبر ونبل، وبقي حامياً لها. إن حدث واقلقه أمر ما، كان يحجبه عنها، معللاً صمته بـ «وضعها». أما ما يقلقه ويعجز عن إخفائه عنها فقد اقتصر على اشياء تافهة ترعجه: كوي ملابسه، وحتى ملابسها، حيث إنها لم تكن تضاهي ولو من بعيد والدته في كي الملابس (ودأبت والدته في المراحل الأخيرة من حمل كنتها على جمع ثيابهما المتسخة كل أربعاء لتعيدها يوم الجمعة خالية من البقع وباهتة بسبب استخدام المبيضات) كما لم تُجد الطهو لشعورها بالقرف الشديد منه؛ كما شعرت بالاشمئزاز من الجنس، الذي لم تبدُ (كما قال) مهتمة بممارسته.

ذات ليلة وبينما كان يعتليها- لأنه يمارس الحب فقط من خلال استهلال هجومه من جهتها اليسرى- قال لها:

«افتحي ساقيك الليلة على اتساعهما» سألته: «ماذا تقصد بفتح س قي؟»

«علي ان اقاتل لأحظى بساقيك مفتوحتين. تعرفين هذا بقدر م اعرفه. ساقك

متصلّبتان كما لو أن احداً رش عليهما النشاء ليجمدا»

لم نكن واعية إلى أنها اغلقت ساقيها تماماً ولكن بعد أن نبهها اكتشفت أنها صمتهما إلى بعضهما البعض أكثر من اي وقت مضى

انسحب قائلاً وهو يدفن راسه في الوسادة المجاورة لوسادتها. «لم تعودي تهتمين به»

في الواقع، فاجأها هذا القلق الأخير لم تستوعب سبب شعوره بأن اهتمامها بالجنس قد قل، فهي لم تبد يوماً أي شعور بالاهتمام أو القرب منه حتى. كما لم تستطع تخيل السبب الذي قد يدفع أي سيدة للاهتمام بذلك. أحبت الدفء، الاستلقاء معاً، السلام. تحملت ممارسة الجنس لأنه يصحبها هذه الأشياء. وستكون سعيدة بل وأسعد من دون ممارسته. لكنه لم يفهم هذا وبدا أحياناً مجروحاً ومتذمراً. احتارت بما عليها فعله، ولهذا ألحت باللائمة طبعاً على أي شيء ملموس: كرشها الكبير، الغثيان، المولود القادم، قصص المتزوجات العجائز التي تحظر أي جماع إلى ما بعد مرور ثلاثة أشهر على ولادة الطفل (حقيقة تعلّمتها من والدتها: إن حدوث الجماع قبل ذلك يضعف المخ).

حدث في تلك الفترة، ولم يفاجئها الأمر، أن ضاجع سيدة تعشق ممارسة الحب، وكان بوسعه ممارسته معها قدر ما يشاء، حيث إنه يرغب بالجماع كل ليلة

لكنه كان «طيباً» معها، حتى خلال تلك الفترة. لم يقدم على «خيانتها» و«ضربها» في الآن معاً. وهذا ما يدلّ على «طيبته» معها، وفق ما قالته لها والدتها ووالدته والنساء الاخريات القاطنات في الحي، وفي الواقع بدا كل شخص عرفته متوقفاً دائم حدوث الأمرين معاً. كوجهين متطابقين لآفة واحدة

ولكن هل فقدت الاهتمام تماماً بالجنس؟ لم تكن تعرف كل ما في الأمر لكنها أحست بأن لا شيئاً تعرفه وتعتقد انها تفهمه. كان الفضول يتملكها قبل هذا لمعرفة طاقة جسدها،

ولم تكن استجابتها لمضاجعة إيدي بالسهولة التي بدا أنه يظنها

لم تكن داهلة تماماً عصر أحد الأيام عندما وجدت نفسها أمام «مدافن داكستر» ذلك المبنى الضخم البرد المكون من طابقين الرابض على إحدى التلال بين كنيسة ومقهى يستقبل رواده طوال الليل. تعود ملكية «داكستر» إلى جورج داكستر، رجل بدين نصف أبيض في الخمسينيات من عمره والدته- وفقاً للرواية التي سمعتها- من البيض، عندما عرف والداها أنها حامل من الرجل الأسود الذي يعمل لديهما، احتجزاها في القبو وتخلصا من المفتاح. أطعماها النخالة المخصصة للخنازير والقليل من الحليب. حين ولد داكستر، رمي في الشارع مع بقية الفضلات. ربته سيدة عجوز توفيت لاحقاً بسم «التومائين» إذ تناولت بعض الطماطم العفنة الحامضة التي قدمها لها داكستر.

لاحق داكستر مريديان وهي في الثانية عشرة من العمر. كانت تزور المدفن عصر أيام السبت، كما كان يفعل الجميع لرؤية الوافد الجديد على غرفة العرض. أغواها داكستر بالدخول إلى مكتبه الصغير الواقع في الجهة الخلفية من المبنى حيث كان يحتفظ بأريكة طويلة وكرسيين وثيرين. ظنت في بادئ الأمر أنه كريم. قدم لها الحلوى ولتكتشف كل شيء بعدئذ. عندما أصبحت أكبر- في الخامسة عشرة أو ناهزت هذا العمر- كان يخرج محفظة نقوده التي تغص بالمال، ويتركها على الأريكة بينهما بينما يتحسس نهديها ويحاول جذبها إلى حضنه. الجزء الوحيد الذي راق لها عندما مص حلمتيها، وحين سمحت لإحدى يديه الممتلئتين بلمس أسفل سروالها، أحبت سماع صوت أنفاسه، التي بدت كما لو ن مجرى الهواء في حنجرته قد أغلق. كان بوسعها الجلوس وإسناد رأسه على صدرها، حيث كان يمصها بابهماك ويصدر أصواتاً، مستشعرة نبض شغفه الحار الموشك على احتراقها. غير أن بدانته في النهاية أثارت اشمئزازها. كانت قد سمعت أن الرجال البدينين لديهم عضو قصير وغير مكتمل. تخيلت أن عضو داكستر يشبه الجوز الإنجليزي

عندما لا يكون داكستر موجوداً، كانت تتيح لمساعده الشاب أن يطاردها حول طاولة التحنيط، الرجل المنحلي ببعض الوسامة، لكنه داعر ووجهه- كما يقول المثل- معبود الفرج لم يكن يفكر باي شيء آخر. كان صوته هو أداته في الإغراء (حسب وصمه)، وقد استخدمه لوصف المضاجعة ممسكاً بها وظهرها ملتصق به بقوة ليكون عضوه مثل عمود السرير النحاسي والحي فوق وركيها، كان يهمس في أذنها: «تخيلي شعورك إن أدخلته»، كان يستثيرها وهو يمسك بإحدى حلمتيها، ثم يمسك بالحلمتين معاً «تخيلي هذا الكبير الأسود الطويل، يا للروعة...» وكان يضغط العمود عليها «داخلك. يدخل ويخرج».

كرهته لكنها كانت مسحورة؛ ومسلوبة الإرادة أمام صوته. يداعب المساعد نهديها ويحشره بين ساقيه ويمركها بقوة عليه إلى أن يفيض سروالها الداخلي ببقايا مقاومتها. كان المساعد حاذقاً جداً ولهذا لم يرغمها قط على تجاوز تلك المرحلة، لكنه كان في كل مرة يملي عليها إحدى مواعظه التافهة:

«التجربة هي المعلّم الأفضل والوحيد» و«مجرد النظر إلى المياه لن يعلّمك السباحة».

في أحد الأيام، المساعد، الذي عرف (كما قال) مدى رغبتها، وجاهزيتها، لممارسة الحب، .ن لم يكن معه فمع الصوت إذن، مع الـ «بيدبوست»(6) رسم لها مخططاً لتراه وهو يعري طالبة مدرسة أخرى (الفتاة نفسها في الواقع التي كانت تعمل لدى زوجته جليسة أطفال). فعلها في العنبر الصغير حيث تُخزّن سلال الخيزران. راقبته بدافع الفضول، ورغبت بتعلّم الجنس من دون ممارسته، إن أمكن، ولأنه ما من شيء أفضل تفعله في عصر اربعاء قانط.

بدا المساعد بالوقوف بينما كان عضوه على ظهر الفتاة. كانت في السادسة عشرة تقريباً، ترتدي حذاء بلا كعب، وسترة صوفية حمراء متراجعة للخلف ذ ت ياقة بيضاء صغيرة وأنيقة كانت يداه ابنتان الصغيرتان تتفحصان الياقة بين الفينة والاخرى لتتأكد من ان كلمات المساعد التي تمتاز بصفة تعرية الأشياء لم تفكها كانت يداه في مكان اخر، تحت

الستره تعجن الحلمتين، ثم داخل سروالها الداخلي بينما سقطت تنورتها على الأرض. ثم حملها ووضعها على الطاوله وبدا بمضاجعتها وهو واقف. ثم ضاجعها وهو على الطاولة. كانت ،لفتاة تتحرك بسرعة للأعلى والأسفل قدر استطاعتها، كما لو أنها تخشى من أن تخرج عن الإيقاع الذي تعلّمته عن ظهر قلب. ضاجعها الصوت ببطء أكثر، بتمرس، مثل آلة، ولم يتوقف الصوت أبداً عن الكلام. في نهاية المطاف، راقبها كما لو أنه يراها من مسافة، كن صوته رتيباً، وجهه جشع وفاجر وقميء. عندما حاولت الفتاة دفن وجهها في صدره وإحاطته بذراعيها، دفعها وأبعدها عنه.

قال المساعد لاحقاً إن الفتاة أصبحت طوع بنانه الآن متى أرادها، لأنه اكتشف سرّاً لا يعرفه سوى رجال قليلين: طريقة تتيح للمرأة بلوغ نشوتها من خلال استخدام عضوه وصوته الجميل. كانت هذه مواهبه، كما قال المساعد، أكثر براعة من ليونة المعصم اللازمة لاستخلاص الدم البارد من أوردة جيفة. وماذا كان رأيها في أدائه؟ قالت له إنها مستعدة لمواصلة لقاءاتهما بشرط واحد. سأل بلهفة وهو يمص ليمونة لتحافظ حنجرته على صوته الجميل. وما هو؟ قالت دون اكتراث: يجب أن تحتفظ بصمتك إن طوقتني بذراعيك.

تخلت بالطبع عن داكستر ومساعده عندما أقامت علاقة مع إيدي- حسناً، ليس منذ بداية علاقتهما. كانت مذبة لأنها حاولت استغلالهما لاكتشافه، لمعرفة ما الذي يريده منها، ومع ذلك فإن مداعبتهما لها وتمنعها عن القيام بأي شيء سوى إثارتهما قد فصلها على ما يبدو عن زوجها الشاب للأبد. إذ بمقدار ما كانت رغبتها جارفة، فإنها- أي جسدها- لم تكن لديها أدنى نية في الاستسلام. ساورتها الشكوك حول المتعة التي ستحظى بها. قد تقترب من الحصول عليها، تحدق فيها بتوق، لكن التراجع كان حتمياً. علاوة على ذلك، لم يكن إيدي ينتظر جدياً منها أكثر من «الاهتمام». أدركت أنه لربما يوجد شيء ما أكثر، لكن بالنسبة إليه، كان استمتاعه كافياً لإسعادها. ولدى فهم هذا، لم يناقش أبداً أي موضوع

سوى طريقة تعاملها مع الموضوع.

الأم السعيدة

ذاقت الامزين اثناء ولادة طفلها التي استمزت ليوم ونصف اليوم. ثم عندما احضرت الطفل إلى المنزل، عانى طوال شهر كامل من المغص واللهاث والصراخ وسرق منها النوم. كانت منهكة للغاية ومن العبث محاولة التفكير بمنطق سليم أو حتى التفكير أساساً فعلت كل ما بوسعها للاعتناء به، وكان محتماً عليها ذلك، إذ دفع جسدها للقيام بذلك ليس من باب رغباتها الخاصة وإنما بسبب بكاء طفلها. تمتمت وهي تترنح مقتربة من مهده في منتصف الليل، هذه إذن هي العبودية. وفي ثورة تمزدها، بدأت تحلم كل ليلة، تماماً قبيل أن يطلق طفلها صرخاته، بطرق لقتله.

جلست في الكرسي الهزاز الذي اشتراه إيدي تمسد ظهر ابنها. كانت أصابعها تتوق إلى محوه من حياتها. أدركت أنه أكثر عجزاً منها، ومع ذلك فقد كانت تبدل حفاضاته بخشونة، ترفع رجليه البرونزيتين السمينتين في الهواء، لأنه بدا مثل والده ولأن جميع من جاء لزيارتها افترض انها تحبه، ولأنها لم تشعر حياله بأي شعور سوى أنه كرة أو سلسلة

فكرة قتل فلذة كبدها أرعبتها في النهاية، ولتتمكن من كبتها، تخيلت، بوعي تام، طرقاً لقتل نفسها. وجدت في تخيل نفسها جامدة وذاهلة ورأسها محشور في الفرن تشبيتاً مبهجاً للذهن. أو تخيل نفسها ببرود خارج الفرن وتفة تثقب في سقف فمها. بدا سلام الموتى بالنسبة إليها نعمة حقيقية، ورسمت في كل يوم طريقة جديدة للوصول إلى هذا السلام وبسبب اتكالها المتزايد على الانتحار، على فكرة الانتحار، كانت قادرة على ممارسة اعمالها على نحو جيد جداً. أخبرها الجميع بأنها اسوة حسنة للام الشابة، الناضجة جداً والهادئة جداً أدخل هذا السرور إلى قلبها لأنه كان مسلياً حد، ابهجها المديح وعندما اصبح وجهها أدفا وأدفأ، بدأت تقهقه، لينهال عليها المزيد من الثناء حول حس فكاهتها

شعرت وكأن شيئاً ما قابعاً في دماغها على وشك الطيران. كان إيدي يذهب إلى المطعم، ويعمل ويعود إلى البيت (أو لا يعود) ويأكل وينام ويذهب إلى المدرسة في الصباح، كما كان يفعل من قبل. أحب ابنه وتعامل معه بالحسنى. اشترى له الهدايا الغبية المعتادة، قدمه بفخرٍ إلى والديه، التقط له الصور كل ستة أسابيع، بل وتعلم كيفية تغيير الحفاضات- رغم إنكاره معرفته فعل ذلك عندما جاء أصدقاؤه لزيارتهم

كانت تتساءل أحياناً عن سبب عدم وقوعها بعد في حب إيدي. حيّرها الأمر، فهو ما زال وسيماً، والنسوة يطاردنه (نجحت عدة نساء، حتى الآن في تصيده خلال هذه الفترة على الأقل)، كما أنه عاملها بنبلٍ واحترام. ولكن كلما عاشا معاً لفترة أطول، أصبحت مهووسة بفكرة مريعة مفادها أن إيدي، كما يوحي اسمه الذي يُطلق على الأطفال، لن ينضج أبداً. فكرت أنه سيبقى طفلاً طوال عمره. ليس لأنها تعرف معنى الرجولة، فهي لم تكن تعرف ما عرفته هو أنه ما من أحد من الصبية الذين خرجت معهم في مواعيد غرامية أو صدقتهم بدا قادراً على أن يصبح رجلاً. تخيلت كيف سيغدو أول صبي في المستقبل، ثم تخيلت صبياً آخر. يصبحون أكبر عمراً، ولكنهم يظلون صبية. كان باستطاعتها تخيلهم فقط في مواقف مشابهة- وإن بدت شكلياً مختلفة تماماً- لتلك التي واجهها إيدي في المطعم. يحضر الأطباق ويحملها وينتظر بكياسة الأوامر من شخص أعلى منه. لم تستطع تخيل أي منهم وقد أضحى رئيساً للبنك المحلي على سبيل المثال.

انعكس هذا عليها وأسبغ عليها مسحة من الفتور. عجزت عن استعادة نشاطها محدداً لم تستطع التحرك في بيتها لتحقيق هدف بعينه. ما جدوى ذلك؟

لكن كان بإمكانها توجيه الانتقادات وبدأت بالتنقيب عن العيوب في كل شيء، الأشياء الصغيرة أولاً. وكمقدمة لانتقاداتها على سبيل المثال: لماذا يتعين رش النشاء وكي سرويله وقمصانه ليرتديها مرة ثانية؟ (كانت والدته قد توقفت حتماً عن غسل

ملابسهم). لم يبدُ جواباً منطقياً بالنسبة إليها أن والدته «دأبت دائماً على فعل ذلك»، أو أنه «اعتاد على الملابس النظيفة» أجابت: «ما معنى هذا؟»، فقد اعتادت هي أيضاً على الملابس النظيفة. لكنها تعلمت ارتداء ملابسها لأكثر من يومين دون تغييرها، باستثناء تغيير ملابسها الداخلية. وتساءلت لماذا يستغرق وقتاً طويلاً خلال استحمامه ويملأ الحمام بالبخار، فإن دخلت حتى لمجرد استخدام دورة المياه، يُفسد البخار شعرها؟ وهل ما زال يلعب كرة السلة في المدرسة؟ وهل من أهمية لمحافظته على رشاقته؟ ما الفائدة اللعينة التي يتوقع أن يجنيها من الرشاقة؟

وفي الانتقادات الأكثر جديّة. مقتت حقيقة أنه على الرغم من بقائه في المدرسة وإرغامها على تركها، لم يبدُ أنه يعرف أي شيء حول الكتب أو العالم. تعلمت أكثر مما تعلّم من خلال مشاهدة برامج المسابقات التلفزيونية.

قال إنه لم يكن مهتماً بـ «التعليم»، وإنما بإنهاء المدرسة. احتقرت هذا الجواب لأنها عرفت حقيقة الامر. كما عرفت أن هذا هو هدف الجميع في المدرسة، ابتداءً من المدير وانتهاءً بالطلاب في السنة الأولى. كان «إنهاء المدرسة» في الواقع مرادفاً لـ «التعليم». زبدة الأمر أنها لم تصدق كونها خارج المدرسة الآن. كانت المدرسة كئيبة، ولكنها كانت المكان الوحيد الذي احتبرت فيه من حين إلى آخر المعرفة الوضّاءة التي تنير عقلها جراء تعلم امور لم تعد بمتناول يدها الآن.

قرأت مجلات «سيبيا»، و«تاي»، و«ترو كونفيشن»، و«ريل رومانسيز»، و«جيم». ووفقاً لهذه المجلات، كانت المرأة جسداً بلا عقل، مخلوقاً جنسياً، شيئاً لتعشق الشعر المستعار والاظافر المزيفة. إلّا أن هذه المجلات، ورغم كونها كذلك، ساعدتها على إدراك حقيقة أن زوجها سيهار بالتأكيد. عاشت مدركة لكل ما يجري حولها في صخب لامبالاتها المعتادة، وعندما حدثت المطيعة - على خلاف ما كانت تخشاه وتتمنّاه أحياناً - لم تكن كارثية في

الحقيقة بالكاد لاحظت ما حدث. لم تأت دفعة واحدة، رافقتها مشاحنات حامية الوطيس، وشجار، وحزم أمتعة وصفق أبواب. جاءت على مراحل، بعضها أكبر أو أصغر من غيرها. جاءت- من جانب إيدي- بقضاء ليلة هنا، وثلاثة أو أربعة أيام هناك، مع إيلاء الطفل اهتماماً بارداً وظيفياً قياساً بعاطفته المعتادة. كانت هذه الإشارة الوحيدة لتقييم الوضع التي استطاعت رصدها من جانبه. افترض على نحوٍ طبيعي أن الطفل سيبقى معها (كانت مثل هذه الاتفاقيات تسير عادة على هذا النحو في نهاية المطاف)، ولم تكن له أي نية لرؤية ما هو أبعد من أي منهما. أما من جانبها، فقد كانت فقط مواظبة على فتورها، مع انعدام أدنى رغبة لبذل أي جهد في سبيل أي شيء.

يوم رحيله، مشت عابرة منزلاً غير بعيد عن منزلهما جميع أبوابه ونوافذه- بحكم أن الصيف قد حل - مشرعة. كان هناك أناس، في سن الشباب، في كل مكان، يتحركون، ويطلّون من النوافذ ويصرخون على المارة، بدوا متخففين من أي قلق (كما يبدو بالنسبة إليها الآن الشباب الذين في سنها ولا أولاد لديهم) وبسبب تحديقها بهم، انتابهم شعور بأنها ترمقهم بنظرة مراقب خارجي، وأنها الشخص الوحيد الذي يتجول في الشارع. وما استرعى انتباهها ودفعها للوقوف والنظر إليهم أنه في الحقيقة منزل عائلة من السود، في حي يقطنه السود، وهناك العديد من الشباب البيض في المنزل، وجميع الشباب يرتدون ملابس غريبة أظهرتهم مضحكين ومن طراز قديم وهم يرتدون ذكوراً وإناثاً «أفرولات» العمال والأحذية الثقيلة الضخمة، (ولفتتها على نحوٍ خاص فتاة بيضاء ذات شعر بني طويل) كانوا يرتدون ملابس العمال مع «مراييل».

كان شيئاً يستحق التأمل، اليوم الذي غادر فيه إيدي للأبد. لم تستطع بطريقة أو بأخرى التركيز على حقيقة رحيله. لم تعرف حق المعرفة ما معنى رحيله. هل رحل للأبد؟ هل أخذ فعلاً كل ملابسه؛ حتى القمصان المنشاة غير المكوية الملفوفة كالكرة في الثلاجة؟ ومن

سيلعب مع الطفل عندما يستيقظ؟ كان إيدي يلعب معه عادة، إن كان لديه بضع دقائق بين العمل والمدرسة.

باتت تجلس الآن بقنوط، محدقة في التلفاز، والمنزل الذي عبرته يظهر على الشاشة. كان هناك حملة لتسجيل أسماء الناخبين (تساءلت عمّا يكون هذا) في انتخابات ستنطلق في المدينة، في ذلك المنزل، وستشق طريقها لتصل إلى الناس في جميع أرجاء البلاد. وثمة حاجة لمتطوعين وأناس من سكان المنطقة من السود. أطلقت مجموعة من الشباب البيض هذا الإعلان أمام مذيع أبيض بدا مذهولاً وقد وضع منديله فوق «ميكرفونه» عندما أذاع الخبر، وعندما تحدث عبر «الميكرفون» بمفرده، أزال المنديل. لم يكن السود يظهرون في الأخبار إطلاقاً- إلّا إن كانوا طبعاً قد أطلقوا النار على أمهاتهم أو اغتصبوا جدة مديرهم في العمل- ولم يُسمع من قبل بشخص أسود أو أشخاص سود يعقدون مؤتمراً صحفياً. لكن هذا أثار قلقها، استحوذ على اهتمامها، لسبب وحيد على وجه الخصوص، ألا وهو المفاجأة التي فجرها. استبقى الخبر ذهنها في مكان آخر بينما تركت يديها تلاعب الطفل، هي التي ما زالت، حتى تلك اللحظة، تسكنها رغبة جارفة بقتله. رغبة لسحق ذلك العنق الناعم الرقيق العاجز، لحشر ذلك الرأس الأجعد في أنبوب مياه، حبسه في غرفته إلى أن يقضي جوعاً. نظر إليها بتوجس، بدا منتحباً على والده. أرغمت نفسها على التفكير فقط بوجوه السود الظاهرة على الشاشة وبالمنزل غير البعيد عن منزلها.

في صبيحة اليوم التالي، وبينما كانت مستلقية على السرير تراقب الفجر الصباح، رأت مجدداً صور المنزل- إلّا أنه لم يعد متواجداً في أي مكان الآن سوى في فيلم في النيل، وبين الساعة الثالثة والرابعة فجراً- دُمِّر المنزل بالقنابل الحارقة وأثناء انفجارها، لم تضرم النيران في المنزل فحسب، وإنما في المنازل الموجودة في ذلك الشارع. أصيب ثلاثة أطفال، لا بل، إن الشريط الوامض في أسفل الشاشة أعلن موتهم؛ كما أصيب عدد من

الكبار، وثمة شخص مبهم مفقود، واعتقد بانه لقي مصرعه. لاذ الآخرون بالفرار بطريقة أو بأخرى بدا أن حارساً بيهم بعد أن لفته صوت شحنة «بيك أب» متوقفة على بعد ياردات عديدة عن المنزل، وبعدئذ، وفي غضون دقائق معدودة، انتهى السباق

صدمها هذا، صدمها أنهم عينوا حرساً. ما حاجتهم إلى حارس؟ ثم طرحت سؤالاً يلامس جوهر الموضوع أكثر: كيف لهم أن يعرفوا بحاجتهم لحارس؟ هل عرفوا شيئاً لم تكن تعرفه؟ كانت قد عاشت في هذه البلدة طيلة حياتها، ولكنها لم تتنبأ بتدمير المنزل بالقنابل. ربما لأنه لم يحدث شيء من هذا القبيل من قبل. ليس في هذه البلدة أم سبق وحدث؟ تذكرت أنها حلمت في الليلة الفائتة بالهنود. اعتقدت أنها نسيت أمرهم

هكذا وفي يوم واحد فقط من أيام منتصف نيسان في العام 1960، اصبحت مريديان هيل على دراية بماضي وحاضر العالم الأوسع.

غيوم

صباح كل يوم من الأيام التي تلت التفجير، دأبت على أخذ الطفل- كان اسمه إيدي الابن- لقضاء النهار مع عمه الذي كان طفلاً بدوره، عمره ثلاث سنوات فقط. لا بدّ وأن والدة إيدي، التي أصبحت الآن في التاسعة والأربعين، قد أخطأت في فهم إحدى حقائقها الجنسية: لم تصدقها مريديان تماماً عندما قالت إنها خططت لقدوم طفل في عمر متأخر من حياتها. وبعد ترك إيدي الابن لدى عمه، كانت تعود إلى المنزل الذي منحتها إياه المحكمة كمساعدة، وتمد قدميها على حافة النافذة في غرفة النوم الخلفية. تطل النافذة على فناء خلفي صغير مسوّر- عادة ما يكون الفناء أخضر غداً في فترة قصيرة من الشتاء بين شهري كانون الأول وآذار- وكانت تحاول التفكير بعمق بوضعها، غير واعية في البداية لما تفعله. في بادئ الأمر، كان أشبه بعودة زمن مضى لم يحدث قط، وقت ينضح بالراحة التامة، مثل إغماءة. توقفت حواسها، بينما كان جسدها يستريح؛ كل ما شعرت به جال في رأسها فحسب، كان إحساساً بالخمة، خمة تشبه جوف طبل، فالهواء داخل رأسها خالٍ تماماً من الافكار في البداية. تجلس لساعات بالقرب من النافذة وهي تنظر إلى الخارج، من دون أن ترى أشجار الجوز الأمريكي المنحنية بفعل الرياح، ولا السماء الزرقاء العائمة، أو العشب

كانت تتحرك عند الساعة الثالثة وتقف عند أحد جانبي النافذة لتراقب الأطفال وهم يسيرون عائدين إلى منازلهم بعد انتهاء اليوم الدراسي. راقبت اليافعات، وأجسادهن التي بدأت تتحول إلى أجساد نساء. راقبت كيف ينحنين جزاء الرياح أو يحملن كتبهن امامهن كعلامة دفاعية، وعلى شيء من الخجل. إنها علامة تدل على الخوف حتما. اما الفتيات اللواتي كن اكبر عمراً، فقد برغت براعم الكبرياء في أجسادهن، فلم ينحنين للرياح المغلقة والمتحتلة، بل وقفن وقد ابرزن نهودهن قدر المستطاع مما يتيح لصبية الذين يهرولون حولهن وأمامهن كالقطيع، يصهلون ويطلقون ضحكاتهم ونكاتهم العبثية عن المتاعمه كما

لو كانو، مهوراً فتية- ينطرون بجراة إليهن ويضحكون ويستثارون ويضعونهن في مواقف محرجة ويدخلون السعادة إلى قلوبهن. غير أن مريديان اعتقدت، اعتماداً على إيماءات حركة الأجساد، أن الفتيات يتحركن محميات بحلم حلم لا يمت بصلة للصبية الحقيقيين الذين يركضون عابرين الفتيات. لأنهن لم يفهمن بوضوح ما يريده الشبان كما من الأجدر بهن ان يفعلن لو أنهن يعشن في عالم مختلف عن العالم الذي يعش فيه، وهدا ما قد يفسر عجز مريديان نفسها عن تذكر أيّ شيء عن تلك السنوات. باستثناء عصر أيام الآحاد والأمسيات في معرض الصور إذ إن معرض الصور أكثر من أيّ شيء آخر هو ما كن يملأ تلك السنوات الحافلة بالضحك والصهيل

الأفلام روري كالهون وأفا غاردنر وبيت ديفيس وسليم بيكنز شقراوات ضد سمراوات و«كابواي» ضد هنود، صالحون ضد طالحين ذوي بشرة أدكن. هذا العالم الخرافي جعل عالم المدرسة الآخر بكلّ ما فيه من رتابة وضجر محمولاً. الفتيات اللواتي راقبتهن كن، في معظمهن، حسنات التنشئة، مهذبات وعذبات ولفاحات. كلّ ما في الأمر أنهن يجهن حقيقة أنهن يعش حياتهن الخاصة- بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر- لكنهن يزعمن أنهن يعشن حياة شخص آخر. حاولن عيش حيوات نجوم الأفلام التي يعشقنها، فيما كانت حياة هؤلاء النجوم محض خرافة. حتى البيض الذين شاهدوا النجوم وحاولوا أن يصبحوا الممثلين، لم يعيشوا تلك الحيوات.

غابت الشابات اللواتي كانت تراهن من نافذتها، الحالمات بنهايات سعيدة نساء يملكن كل شيء، برجالٍ جابوا العالم جرياً؟ كما كان حلمها

لكن هذه الأفكار العشوائية والعابرة مثل الشخب، لم تكن سوى الطبقة الخارجية من قشرة بصلة كبيرة

كانت في السابعة عشرة فقط من عمرها، متسربة من المدرسة الثانوية، وزوجة

مهجورة، وأمّ، وروجة ابن وكونها كذلك، كانت في وقت متأخر من فترة العصر، تذهب إلى
منزل حماتها وتأخذ الطفل، الذي لم يكن يرغب بالعودة إلى المنزل

تلبس التقوى

كانت حياة والدتها بمثابة تضحية. تعتز أعمى في الحياة، تعتز صابر لا تعوزه الكرامة (قدر ما تسمح به الظروف). لم يبدُ أنها فهمت ما يدور خلف أسوار عائلتها وحيها وكنيستها. لم تتخذ مواقف متطرفة من أي شيء، ما لم تتعرض لتحريض لفترة طويلة، وحينها تطلق العنان لغضبها من خلال همهمة غير واضحة تعرب من خلالها عن تذمرها الذي ينقصه التماسك لتشكو من الأشياء التي تزعجها- لكن ما الأمور التي دأبت والدتها على التذمر منها؟ لم تكن تتذمر من الكنيسة لأنها آمنت بأن مبنى الكنيسة- البلاط والقرميد- مقدس؛ آمنت أن هذه القداسة انتقلت عبر سنوات حافلة بقراءة الكتاب المقدس والمصلين الشغوفين، ولهذا غلفت القداسة الآن جميع الجدران وكأنها طلاء. اعتقدت أن الكنيسة هي حرفياً بيت الله، وآمنت بأنها شعرت بوجوده هناك عندما عبرت الباب؛ وعندما خطت خارجها، كان هناك إحساس مغاير، هكذا ظنت.

كان هناك العديد من الأشياء الخاطئة المتعلقة بالكنيسة، بالطبع. أحدها أن الواعظ لم يكن مفهوماً. أي إنَّ كلماته لم تكن مفهومة، جمله غير واضحة. على مدار ثلاثين سنة، جلست كل يوم أحد مقتنعة بأن هذا الرجل- بصرف النظر عن الواعظ في ذلك الوقت- يغرس فيها كلمات وحكمة الله، بينما، في الواقع، كل جملة يقولها عصية على الفهم. كان الواعظون يقدمون عظاتهم بأصوات مرنَّمة وإيقاعية ومهيبة غالباً ووجدانية دائماً. سوقوا أمثلة عصرية مفصلة عن النصوص القديمة. كانوا موسيقيين، شعراء، بينما كانت هي منفعلة، روحها طافحة برغبة أن تكون صالحة. (عرفت أن كل كلمات الله تعود إلى هذا الهدف، سواء تمكنت من سماعها بوضوح أم لا) أن تتلبس التقوى كهدف للوصول إلى حالة من الاستقامة. لم يتجاوز ما تعلمته حدود معرفة بدائية حول ولادة المسيح وصلبه (واللذين بديا وكأنهما قد حدثا في فترتين متقاربتين في التاريخ وعندما تساءلت

إن كان المسيح قد عاش مرحلة الطفولة)، وما هو متعلق بمعجزة عجلة حزقيال (والتي يتجلّى مغزاها في أن الإنسان تمكن حتى قبل اختراع الطائرة من التحليق فوق الأرض لأن الإيمان ملأ قلبه)، وصولاً إلى سفر الخروج، وأمر موسى بني إسرائيل (عرق لم يعد للأسف موجوداً)، كما فهمت بعض الأغاني، وكيف سمحوا لكل آثمة بغفاء خطاياها أمام السموات العلى من دون المجازفة بالخضوع شخصياً إلى تأنيب وتوبيخ.

لم تتذمر السيدة هيل من أي شيء سياسي لأنها تفتقر لأدنى رغبة بفهم عالم السياسة. لم تدلِ بصوتها قط في حياتها. كبرت مريديان وهي تظن أن أيام التصويت- بلافتاته المبعثرة واصطفاف الناس في طوابير طويلة- كانت أياماً للاحتفال بضرب من المهرجانات الغريبة ينحصر الاحتفال بها على البيض فقط، البيض الذين يختفون، بتجهم وثبات، في صناديق موحشة ذات ستارة، وينبثقون بعد ثوانٍ ليبدو وكأنهم قد استعادوا الحياة بقوة. تذمرت السيدة هيل من تعليم أطفالها. حسبت أن المعلمات كفوءات بلا منازع (وأنهن يتفوقن عليها) ومن الأفضل أن يعلمن أولادها. وإن حدث وشعرت بالازدراء حيالهن لأنها لم تعد تستطيع احتساب نفسها على أنها واحدة منهن لأنهن كن ربات منازل فقيرات، فقد أحسنت كبت الازدراء في صدرها. كانت تكنّ الاحترام للمعلمات في الصف وتحتقرهن كأفراد احتاجت في الوقت نفسه إلى الإيمان بأنهن معصومات عن الخطأ وإلّا لما استطاعت أن تحاول نسخ الملابس التي يرتدينها، وطريقتهن في تصفيف شعرهن، او طريقة حديثهن أو ممارسة السلطة التي استطعن من خلالها مواجهة الرجال والتحكم غالباً برجالٍ أقل تعليماً منهن.

تذمرت في الواقع من زوجها فحسب، ومن منهم كان مخطئاً، حسب ر[illegible]ه، وركزت على ذلك أكثر من تركيزها على التعويض عن جهلها لأي أخطاء ربما تكون موجودة في أي مكان آخر.

بددت كل الطاقة التي حصصتها لحبّها الصريح لأولادها في كي ملابسهم. كان أطفالها بلا عيوب أينما حلّوا، ومن خلال ملابسهم المتصلّبة والمتخشّبة تقريباً، كانوا مسجونين في نشاء غضبه، وعليهم لتحاشي إغضابها الإبقاء على مسافة آمنة من التواصل الرتيب المسبب للمشاكل.

اليقظة

بعد مرور شهر على التفجير، عبرت مريديان بوابة أحد المنازل وطرقت على الباب

قالت مخاطبة الشاب ذا البشرة الداكنة الذي وقف يحدق بها: «جئت لأتطوع»

ما هو العمل الذي تريد التطوع به؟ لم يكن لديها أدنى فكرة. استهواها شيء ما يتعلق بالتفجير، محو المنزل عن بكرة أبيه، المعرفة التي تنبأت بهذا الدمار. كيف يا ترى ستكون هيئة هؤلاء الناس، وكيف يفكرون؟

قال الصبي الذي فتح الباب. «سويبرن، انظر ما الذي أرسله لنا الرب الطيب أخيراً». كان قصير القامة وقوياً يخفي وراء نظارتيه عينين بنيتين منتفختين. ابتسامته دافئة ومرحبة، وعندما سبق مريديان في الدخول إلى الغرفة، لاحظت أنه هرول وقفز قليلاً مثل رجل يجرّ كلباً مربوطاً بطوق.

نهض سوينبرن عن الطاولة الموجودة في آخر الغرفة بالقرب من النافذة. قال: «شكراً للرب. ليمجدك الله ويجزيك خيراً. اقتربي أيتها السيدة، ودعيني أطلب منك طلباً. هل يمكنك الطباعة على الآلة الكاتبة؟».

قالت مريديان: «كلا». كانت مريديان قد تلقت دروساً في الطباعة على الآلة الكاتبة قبل ثلاثة أشهر من شعورها بغثيان الحمل الذي شكّل حالتها على مدار اليوم

«هل يمكنك التعلّم بسرعة؟»، وقف شاب حاملاً بضع أوراق، وبدا أكبر من الشابين الآخرين في مدخل الباب، وراح يرمقها بنظرة ثابتة وباردة وكأنه يقيمها. لم تستطع منع نفسها من التحديق في أنفه الذي كان مدبباً وحاداً، كأنه ينحدر مباشرة من وجوه محاربين إثيوبيين سبق لها ورأتهم في الصور. بدا بالنسبة إليها نبيلاً على نحو ساحر، يحمل نظرة

متعجرفة نحو الشاب. كان يرتدي سروال جينز أزرق وقميصاً قطنياً قصير الأكمام امتلأت جهته الأمامية بالدبابيس على شكل أزرار. حقيقة أن قميصه يعج بالدبابيس صدمت مريديان وبدت غريبة وهزلية جداً، وغير لائقة بشخص ظريف وجدي مثله. غير أنها رغبت بارتداء دبابيس كهذه. عندما دنا منها استهوّاها على وجه التحديد الدبوس الكبير الذي يظهر يداً سوداء تصافح يداً بيضاء، ولأن الألوان كانت جامدة، لم تبدُ اليدان -عن نظرت إليهم بتمعن وعن كثب- تتصافحان على الإطلاق، بدتا وكأنهما راحتان متلامستان فقط، أو كأنهما تنزلقان مبتعدتين عن بعضهما بعضاً.

قلت: «أجل، أعتقد أن بوسعي التعلم».

كان الشاب الذي يُدعى سوينبرن منهمكاً في إزالة شيء ما من الآلة الكاتبة الموجودة أمامه، انحنى ظهره النحيل، وبرزت أضلاعه من تحت قميصه الكالح. كانت بشرته برونزية داكنة جداً، ذو شفتان ممتلئتان مقلوبتان بأناقة وعينان كبيرتان تبرزان من خلف نظارتيه غير المعلّقتين بسلسلة مما جعل عينيه تبدوان أوسع. عندما تحدث، صوته العميق القادم من الكهف الضيق لصدره كان استثنائياً. كان جرس صوته عميقاً جداً وبدا وكأنه يجعل الأشياء تهتز في الغرفة. عندما ارتكب خطأً مطبعياً، شدّ شعره القصير الأشعث. زاد من سرعة نقره على الأزرار عندما لاحظ أنها تراقبه، غير أن عدد الأخطاء التي ارتكبها دفعه إلى القفز وتقديم كرسيه إليها.

«ألا تودون معرفة اسمي؟»

تمتم سوينبرن قائلاً «آه، أنا آسف. كل ما في الأمر أنا منهمك جداً منذ وقوع الانفجار. الحصول على منزل آخر، محاولة جمع التبرعات. اسمي د. سوينبرن، وذاك تشيستر جراي (مشيراً إلى أحد الشابين)

قال الشاب ذو الأنف المدبب «اسمي (7) ترومان هيلد».

ضحك الرجلان الآخران عليه، وقالا: «حتى إن اسمه مقفى!» غير أن مريديان لم تفهم النكتة. ربما كانا يضحكان عليها أيضاً، لأنها لم تفهم ما قيل. أخبرتهم عن اسمها، همهما وابتعدا، وظل سوينبرن.

قال وهو واقف إلى جوارها: «هذه مجزد عريضة. هل تعرفين بأمر التفجير؟ نسعى لمعرفة عدد السكان المحليين الذين قد ينخرطون في مظاهرة معارضة وسط البلدة. اكتبي فقط ما دونته هناك، وسأتكفل بأخذها إلى المدرسة وسأرى إن كان باستطاعتي نسخها».

سألت: «تقصد في مدرستنا؟».

قال سوينبرن: «بالطبع».

«لن ينسخوها هناك».

سأل سوينبرن: «لم لا؟».

قالت مريديان: «لا يمكنني قول السبب. كل ما أعرفه أنهم لن ينسخوها. لا يسمحون لنا حتى بارتداء سراويل قصيرة يوم البحث عن البيض في عيد الفصح»

قال سوينبرن. «حسناً، اكتبي العريضة على أي حال. سننسخ عدة نسخ بطريقة أو بأخرى».

كتبت مريديان على الآلة الكاتبة وكتبت، إلى أن بدا ظهرها يتقصف وعيناها تؤلمانها كانت كتابتها مريعة، وشعرت بالخجل من كمية الأوراق التي استهلكتها. بعد مضي ساعة، نجحت في إنجاز نسخة رائعة من العريضة، باستثناء أنها أضافت حرف «إي» زائد على

كلمة زنجي،

قال سويسرن: «ليست مشكلة»، شاطباً على حرف الـ «إي» باستخدام قلم عريض غليظ، مما افسد جمال الورقة على نحوٍ يتعذر إصلاحه «لا ينقصك سوى بعض التمرين»

إنهاك المعركة

كان ترومان هيلد أول العاملين في حركة الحقوق المدنية- كما أطلق عليهم- ممن بدأ يعني لها شيئاً، رغم مرور أشهر بعد لقائهما الأول. لم يحدث هذا قبل تلك الليلة التي اعتقل فيها أولاً، ثم اعتقلت بعده، بتهمة التظاهر خارج السجن المحلي، وتعرضا بعدها للضرب.

أقيمت مظاهرة «الحرية» نحو الكنيسة، وتلا الكاهن الصلاة، وغنى المتظاهرون أغاني عن الحرية، بينما قدمت نساء عدة شهادتهن (المتمحورة حول الأوضاع داخل قسم السود في السجن، ما جعل جسد مريديان يرتعد هلعاً) وأخيراً، جاءت خطة حول استراتيجيتهم، وغناء أغنية «لن أدع أحداً يغير مساري»

تجسدت الاستراتيجية في إقامة مظاهرة ليلية مضاءة بالشموع، يجوب فيها المتظاهرون الشوارع انطلاقاً من السجن. اختير المتظاهرون من الأشخاص الذين لم يعتقلوا من قبل، وكان ترومان واحداً منهم. كما تجسدت بدفع كل شخص لم يعتقل سابقاً ليصبح معتقلاً. كانت هذه مظاهرة ضد التمييز بين مستخدمي مرافق مستشفى المدينة، ومحاولة لإطلاق سراح المتظاهرين السابقين. ولكن حتى أثناء سيرها في المظاهرة، وهي تغني، باتجاه ميدان المحكمة الذي كان على الجهة المقابلة للسجن، لم تستطع مريديان التكهن بآلية عمل المظاهرة. انتابها شعور مؤكد أن المتظاهرين السابقين لن نطلق سراحهم، لمجرد وقوف بضعة أشخاص يغنون بسلام إلى جوار السجن، كما أن السجن صغير جداً لاستيعاب أشخاص جدد. لا بد وأنه مكتظ مسبقاً

بعد مرور بضع دقائق على غنائهم، أضحت البلدة حية تضج بالأنوار الكشافة. ظهرت سيارات الشرطة من كل مكان، حاصرتهم العشرات من قوات شرطة الولاية، لتشكل جداراً يفصلهم عن السجن. لاحظت أن شعرهم بالفعل قصير جداً، وهم بالفعل يمضغون

العلكة. ثم فُتح باب السجن وخرج المتظاهرون السابقون بضجر، ووجوههم مشوهة بفعل الانتفاخات وقد تغير لونها بسبب الكدمات. خرج ترومان مع البقية وهو يعرج، ويتحرك بصعوبة بالغة ناجمة عن ألم مبرح، متمتماً بوتيرة ثابتة لعنات وشتائم بينما كان صف قوات الشرطة يرغمهم بلا هوادة على حث خطاهم للخروج من الميدان. مرّت بضع ثوانٍ قبل أن تدرك مريديان أن دورهم الآن قد حان

حالما أصبح هذا الصف من المعتقلين خارج مرمى البصر، استدارت قوات الشرطة نحوهم، لوحوا بالهراوات وأشبعوهم ضرباً. ضربة واحدة طرحت مريديان أرضاً، داستها أقدام أشخاص يهرولون في كل الاتجاهات لكن لم يكن من مفر. فقط أبواب السجن كانت مشرعة لاستقبالهم دون أي عوائق. وفي غضون دقائق، تعرضوا للضرب في الداخل، حيث كان المأمور ونوابه ينتظرون للقضاء عليهم. وأدركت سبب عرج ترومان. عندما جرها المأمور من شعرها وبدأ شخص آخر بلكمها وركلها من الخلف، لم تصدر عنها إلا صرخة صامتة دوّت في ذهنها، نادت فيها على ترومان. لم يكن مغزى صرختها أنها مغرمة به ما قصدته بها هو أنهما كانا في زمان ومكان من التاريخ يرغمان الصغائر على التلاشي- وكانا حتماً معاً

في وقت لاحق من ذلك الصيف، بعد الخروج في مظاهرة أخرى، رأته يتجه نحو الشارع غير المؤدي إلى الجزء الذي يقطنه السود من المدينة. كانت عيناه منتفختين وحمراوين، وجسده يرتجف، لم يتعرف عليها ولم يرها حتى. أدركت أن تبلده الذهني ناجم عن الإنهاك بعد المعركة. عانوا جميعاً من هذا الإنهاك هي بدورها كانت منهكة كما الآخرين، ولهذا أمضت جزء غير يسير من وقتها تبكي درجت في العادة على الانفجار في البكاء حينما يقع خطب ما أو يتحدث أحدهم بمطاطة أو حتى أحياناً لمجرد أن يتحدث أحدهم. نمطة وتكهن الآن تغرق في بكاء متواصل، وهي تقوم بكل ما عليها فعله تحت التحسين

على الإدلاء باصواتهم، تتحدث في التجمعات إلى الحشود، تربط سيور حذائها الرياضي، وتصحك- بينما الدموع تسيل ببطء دون توقف على وجنتيها. قد يستمر هذا الحال لأيام أو حتى اسابيع. ثم فجأة، تتوقف، وتظهر اعراض أخرى. ارتعاش يديها او عينها اليسرى. أو الحالات التي تكون فيها أحياناً متأكدة من سماع صوت إطلاق رصاص ونشعر بأثر الرصاصة على ظهرها؛ ثم تجمد تماماً في مكانها، بانتظار أن تشعر بسقوط جسدها.

خرجت إلى فناء تتواجد فيه حنفية وبللت أسفل بلوزتها بالماء. عندما عادت إلى الشارع لمسح اثار القاذورات المسيلة للدموع من عيني ترومان، كان قد اختفى، بينما سيارة شرطة تتجول على غير هدى في الشارع. وقفت في الشارع تتحسس البقعة الباردة الرطبة على جنبها، محتارة بما ستفعله.

تعاطفت غالبية سكان البلدة من السود مع حركة الحقوق المدنية في بادئ الأمر، واخبروا مريديان أنها تفعل عين الصواب: تطبع على الآلة الكاتبة وتعلم الأميين القراءة والكتابة، وتتظاهر ضد التمييز بين الناس في استخدام المرافق العامة وتبقى باب منزل الحركة مشرعاً عندما يعود الشطاء الآخرون إلى المدرسة. وحدها والدتها لم تكن متعاطفة معها.

قالت السيدة هيل «حسب معرفتي، لقد اهدرت سنة من عمرك، تعبثين مع هؤلاء الناس تقول الصحف إنهم مجانين. الرب فصل الاغنام عن الماعز والسود عن البيض. لم يزعجني ابداً الجلوس في الجزء الخلفي من الباص، تستمتعين بإطلالة مماثلة ولا تعبسين من مؤخرات البيض الكريهة وهم يمرون إلى جوارك»

حاولت مريديان تجاهلها، غير ان والدتها تابعت حديثها «إن شعر احدهم بانه سيحتاج إلى التبول حين وصوله إلى البلدة، فعليه ان يستخدم دورة المياه في منزله قبل أن يغادرها. هذا ما كنا نفعله عندما كنا يافعين » في نهاية المطاف، تجنبت السيدة هيل نفسها

التورط في المتاعب.

استغرقت مريديان وقتاً طويلاً قبل إخبار والدتها بعضويتها في الحركه، وحين أخبرتها تبين لها انها تعرف. حظيت مريديان الآن بأخبار قد تثير حنق والدتها اكثر. ولإخبارها، استدعت ديلوريس جونز (إحدى الناشطات في الحركة) ونيلدا هندرسون، صديقة طفولتها أوحى هذا التصرف بشيء من الجبن، لكن مريديان عجزت عن مواجهه والدتها بمفردها.

حين كانت مريديان طالبة في المدرسة الثانوية، خضعت لاختبار الذكاء، وأعلموها أن معدله بالنسبة إلى منطقتها وخلفيتها، 140 وهي نسبة عالية على نحو غير معتاد. كانت حملاً حينها، مريضة ككلب وعلى وشك التعرض للطرد من المدرسة، هزّت كتفيها بلامبالاة عند سماع الأخبار. لكن الآن، ورغم عدم إنهائها لدراسة المرحلة الثانوية، فمنحت- إن رغبت بذلك- فرصة للالتحاق بالجامعة. زفّ لها الحبر السيد ياتسن، شارحاً لها الشرف الفريد الذي منح لها- وربما تستحق هذا الشرف أو لا تستحقه، ففي نهاية المطاف، الفتيات الصالحات لا يحبلن في المدرسة الثانوية- وكان يتوقع منها أن تكون أسوة حسنة لأنها ستمثل نوع الـ «منتج» النير الذي تنتجه «نباتاته».

تحدث وكأنها جزء من أملاكه وحسبت أولاً أنه ينوي إرسالها إلى الجامعه لتدرس على نفقته الخاصة. لكن لا. شرح لها أن عائلة كريمة (وثرية) من البيض في ولاية «كونيتيكت» رغبت بمساعدة بعض الفقراء من السود الشجعان، ممن رأوهم على شاشة التلفاز يتظاهرون ويعرضون رؤوسهم للسياط ليلاً، وقررت العائلة، كمبادرة تشي بتحررها واهتمامها، إرسال فتاة سوداء ذكية إلى «جامعة ساكسون» في «اتلانتا». وقد وهبت العائلة الارض لثلاثة اجيال لبناء الجامعة عليها. قالت مريديان بتواضع «انت لا تعني اني اذكى طالباتك» ولكن فكرت بعدها أن هذا قد يكون صحيح ببساطة لان «بنات» السيد

ياتسن لم تكن عادة تنتج أي شيء لكن السأم دغدغها وابتسمت

انزعج السيد ياسن، وقال: «في أيام شبابي، لم نكن نكافئ السلوك الطائش- ولم نكن نعتبره أمراً مضحكاً»، فشعرت مريديان بوجوب تقديم اعتذار للابتسامة التي بدرت عنها، رغم أنها ابتسامة مثيرة للشفقة، وضاع شيء من بهجة التجربة بالنسبة إليها.

كان ترومان هو من أعاد لها ابتسامتها عندما أخبرها أن «جامعة ساكسون» على بعد ساعتين فقط، ويفصلها شارع واحد فقط عن جامعته، «جامعة آر بارون» التي ارتادها في الفترات التي لم يكن يعمل خلالها في الحركة خارج البلدة، إذ كان هناك بالطبع «حركة أتلانتا»(8)، التي انخرط فيها مسبقاً. وكان يلتقي مريديان يومياً

ظل ترومان يردد: «بالطبع»(9)، وهي تنظر إليه بحذرٍ لا يخلو من سعادة «ستكونين ملائمة تماماً لنمط طالبات ساكسون!».

لكن حينها، لم تخبره قط أن لديها طفلاً.

قالت ديلوريس: «من حقك الالتحاق بالجامعة. أنت محظوظة بالحصول على هذه الفرصة» كانت نحيلة ذات بشرة برونزية، وأنف قوي وكبير وحاجبين كأجنحة طائر أسود ترتدي الجينز وقمصاناً نقشت عليها زهور وورود، ولا تهاب شيئاً. قالت: «اسمعي، لن نحدي كل يوم شخصاً يهتم بمعدل ذكائك ويمنحك بعثة دراسية. لست فتاة غبية يا صبيه، ولا تفكري قط بالتصرف كحرقاء الآن» سارتا نحو الباب الأمامي، مدت نيلد هندرسون يدها لتمسك يد مريديان وتضغط عليها

استطردت ديلوريس «بصرف النظر عما تقوله والدتك تذكري فقط أنها تمضي جل وقتها تصنع وسائد للصلاة»

لم تقل نيلدا شيئاً عن التحاق مريديان بالجامعة لأنها رغبت بتوفير كلماتها لتقولها لوالدة مريديان. بكت نيلدا ونظرت إلى ديلوريس ومريديان بحسد حزين. كانت حاملاً مجدداً وقد بدأت علائم الحمل بالظهور عليها. عندما رافقت السيدة هيل إلى الباب ردت بلطف على تحية نيلدا، مما جعل الدموع الحاصرة دائماً تطفح من العين.

كان منزل أسرة هيل أبيض من الخارج فيما إطارات النوافذ فيروزية، ويغص بالأثاث المنزلي، وبدمى خزفية بيض، وأوعية مليئة بالأزهار الورقية. رحبت بهن صور عشرات الأطفال لعائلات أخرى تتدلى من الجدران وقابلتهن بابتسامة عريضة

«حسناً، لا يمكن أن يكون الأمر أخلاقياً، على حد علمي. لا يمكن أن يكون من الصواب التخلي عن طفلك» جلسن متحلقات حول الطاولة الموجودة في غرفة الطعام يحتسين الشاي «إن كان الله قد منحك طفلاً فبقصد أن تتولي أنت رعايته»

تمتمت ديلوريس: «الله الطيب لم يمنحها إياه» كانت ديلوريس جسورة. وقد أحبتها مريديان.

قالت: «لكن هذه هي فرصتي الوحيدة يا ماما».

«كان عليك التفكير بهذا الأمر من قبل».

قالت وهي تنظر إلى كوبها: «لم أكن أعرف حينها»

سألت «كيف بوسعي رعاية إيدي الابن على أي حال؟ لا يمكنني حتى رعاية نفسي»
تجهمت السيدة هيل، واستطردت قائلة وهي تتنهد «هل تعرفين كم سيدة فكرت بالطريقة نفسها وكان عليهن ترك المسألة له لتسويتها؟ لقد فاجأتني لطالما اعتقدت أنك فتاة صالحة وكنت طوال الوقت مستعجلة»

قالت مريديان: «كنت شيئاً ما. لكني لم أكن اعرف حتى معنى أن أكون مستعجلة. لطالما كنت تضمنين حديثك بالألغاز. (كوني حلوة). (لا تتسرعي) لم تقولي قط كلاماً مفهوماً».

قلت السيدة هيل «هذا صحيح. أنحي علي باللائمة لأنني وثقت بك لكي اعرف شيئاً واحداً- كل شخص زلت قدمه كما حصل معك فإن عليه تحمل عواقب ذلك. انت الوحيدة التي تحسب أن بوسعها رفض ذلك ببساطة...» توقفت السيدة هيل ومسحت دموعها.

وبدأت «انظري إلى نيلدا. أعرف أنها لن تكون يوماً...» لكن نيلدا قاطعتها قالت «لا تقولي ذلك يا سيدة هيل» وامتلأت عيناها بالدموع. «أقدم أي شيء لنيل فرصة الالتحاق بالمدرسة مثل مريديان. أتمنى من الله لو أنني تمكنت من إنهاء المدرسة الإعدادية»

لوهلة، وبينما كانت تنظر إلى والدة مريديان، امتلأت عيناها الحزينتان بالكره. كره وإدراك للخيانة. عاشت طوال حياتها على بعد شارع واحد من عائلة هيل. لعبت هي ومريديان معاً في فناء منزل عائلة هيل الخلفي، ذهبتا معاً إلى المدرسة عرفت نيلدا أن المعلومات التي احتاجتها لتتخطى مرحلة المراهقة دون متاعب كانت بحوزة السيدة هيل.

نعمت نيلدا في تلك الفترة بعذوبة ساذجة ومثيرة للإعجاب، ولكن كان هناك أيضاً إن كان بوسع المرء تمييز مثل تلك الأشياء (السيدة هيل لربما تستطيع ذلك) توجس جلي يشي بسقوطها، وقد كبر هذا التوجس جزاء خنوعها وإذعانها للأعباء التي كانت تحملها إياها عائلتها. تُركت لتتحمل يومياً أثناء عمل والدتها مسؤولية رعاية خمسة إخوة وأخوات أصغر منها سناً. كانت تشق طريقها أيام الآحاد لتصل إلى البلدة للتبضع، والتوأم بسببها على الطريق، والطفلان اللذان تعلما المشي حديثاً يمسكان بيديها، فيما أخوها الرضيع مربوط بحزام ومعلق على ظهرها. هذه هي نيلدا- الجميلة كالهنود- كما دأب الجميع على القول، في الرابعة عشرة تماماً وقبل أن تحبل

أيام الآحاد كانت نيلدا حرّة تستطيع فعل ما يحلو لها، إذ لم تكن أمها تعمل في تلك الأيام، ودرجت على تمضية معظم اليوم في الكنيسة مع أولادها الآخرين الذين يرتدون ملابس انيقة وقد صفف شعرهم بعناية. (كانت سيدة ضخمة «صلعاء»، ذات صدر عارم وصوت جميل رنان متى صدحت بالغناء. زوجها مفقود في فرنسا منذ الحرب العالمية الثانية، واثنان من أولادها فقط من صلبه- نيلدا والصبي الآخر الذي يليها في العمر- حملوا جميعاً اسمه. فقدت شعرها على مراحل أثناء حملها بكل طفل). سُمح لنيلدا بقضاء اليوم في المنزل لتغسل شعرها وتعد العشاء وتقوم بوظائفها المدرسية (كانت ترتاد لمدرسة ربما ست مرات في الشهر، ولم يطرق الموظف المسؤول عن تغيب الطلاب باب بيتها قط)، وهي تذهب في فترة العصر بصحبة مريديان وديلوريس لمشاهدة فيلم في البلدة، حيث كن يجلسن في الشرفة فوق رؤوس عشاق السينما ويقبلن الشبان الذين كن مغرمات بهم حينها

عرفت مريديان من يكون والد أول ولد أنجبته نيلدا. كان صبياً يكبرهن في العمر يدرس في المدرسة الثانوية، فتى نبيل عامل نيلدا كما لو كان يحبها أكثر من حياته، وربما كان ذلك صحيحاً. اشترى لها الأمشاط والقمصان وسراويل البرمودا القصيرة، وأول زوج جوارب ترتديه- كان يشتري كل هذا من الدولارات الثلاثة التي تعطيه إياها والدته كمعونة كل أسبوع، إضافة إلى ما كان يجنيه من جزّ المروج خلال فصل الصيف، وحين تكون والدته في العمل، يزورها غالباً لجز عشب حديقتهم ويمكث لمساعدة نيلدا في إطعام الأطفال وتحميمهم ووضعهم في أسرّتهم. كانت نيلدا حاملاً في الشهر الثالث عندما أدركت وجود خطب ما. باحت لمريديان قائلة إن الأمر بدأ عندما لاحظت أن رائحة بولها أصبحت مختلفة.

ضحكت مريديان «ماذا تقصدين بأن رائحة بولك مختلفة؟»

قهقهت بلدا: «لا اعرف لكن هذه ليست رائحته المعتادة»

قالت السيدة هيل: «عليك أن تشعري برغبة لرعاية إيدي الابن، إلا إن كنت صنماً من أصناف الوحوش، وابنتي ليست وحشاً بالتأكيد».

أغلقت مريديان عينيها قدر استطاعتها.

تنحنحت ديلوريس. «السبيل الوحيد بالنسبة إلى مريديان لرعاية إيدي الابن هو أن تنتقل للعيش هنا معك وتجد عملاً في مطبخ أحدهم بينما تعتنين أنت بالصغير». قالت السيدة هيل: «سأمد بالتأكيد يد العون. لن أدع أياً منهما يتصور جوعاً، لكن-» أردفت وهي تنظر إلى ديلوريس وكأن مريديان غير موجودة: «هذا منزل مسيحي نظيف حسن الخلق. نحن نؤمن بالله في هذا البيت»

سألت ديلوريس فيما علت وجهها تعابير العدائية والارتباك. «ما شأن هذا بما نحن فيه؟ في المرة الأخيرة التي رزق الله فيها بطفل عمد أيضاً إلى التنصل من المسؤولية».

تظاهرت السيدة هيل بأن الكلام لم يغضبها أو يهمها. ابتسمت في وجه هذه الفتاة التي وتلو تصفعها. قلت: «لست من هذه المنطقة. الجميع يعلم أن الأشخاص القادمين من أتلانتا لديهم افكار غريبة. الكثير منكم فقدوا احترامهم للكنيسة هل تؤمنون بالله أصلاً؟»

قالت ديلوريس: «فكرت بالأمر قليلاً».

ملأت السيدة هيل معدتها بالهواء وصالبت ذراعيها الممتلئتين قالت «لا افهم كيف يمكنك السماح لسيدة أخرى بتربية طفلك هذه أنانية صرفه عليك ان تشفقي بنفسك حرياً لدي ستة أولاد»، أردفت وقد غمرها شعور عارم بالفضيلة «على الرغم من انني لم أرغب يوماً بان يكون لدي اولاد، الا أنني ربيتهم جميعاً بمفردي»

قالت ديلوريس: «ربما كان بإمكانك فعل الشيء ذاته في عصر العبودية»

أطلقت ديلوريس نكتة وهي تغادر مع صديقتيها منزل السيدة هيل قائلة «لنكن جميعاً وحوشاً»، غير أن مريديان ونيلدا لم تضحكا.

قد لا تسلمه لأشخاص رغبوا به، لربما قتلته عوضاً عن ذلك، ثم قتلت نفسها. سيتفهمون جميعاً الأمر مع مرور الوقت. كانت ستفعل ذلك لولا أمر واحد. نظرت في أحد الأيام إلى طفلها واحتته بقدر ما أحبت القمر أو الشجر، وكان هذا قدراً هائلاً من الحب العادل. رغبت بمعرفة المزيد عن وجوده الكامل غير المخطط له.

سألته: «من أنت؟».

«أين كنت عندما كان عمري اثني عشر عاماً؟».

واصلت أسئلتها: «من أنت؟، تأملت وجهه بحثاً عن إشارات تدل على ندر أو رموز و ندبة ما تشي بأنه عاش حياة سابقة»

«هل كان هناك أناس آخرون في المكان الذي كنت فيه؟ هل جئت من كوكب للأطفال؟» حسبت أن بإمكانها تخيله هناك فحسب، على هكذا كوكب، يشد كمشة من العشب الأزرق بقبضتي يديه.

الآن وهي تتأمله، بدا الطفل جميلاً. ظننت أنه قبيح، مثل حدبة سوء بحملها على ظهرها. قالت «لن يكون اسمك بعد اليوم إيدي الابن. سأسميك مادانك روندي، ليس تيمناً بأحد، ولا متبوعاً باسم أحد».

عندما سلمته، فعلت ذلك بقلب مرتاح لم تنطر حلمها، وهي على يقين من أنها أنقذت حياة إنسان صغير لكن ما كان لها أن تتنبأ بالكوابيس التي بدأت تقض مضجعها. كوابيس

حول طفل اسمه روندي، يناديها، وهو يبكي، يعاني من حرمان لا يحتمل بسبب غيابها، مع ذلك علمت ان الحال معكوس تماماً: بسبب غيابها، ما كان هناك ضرورة لأن يقلق قط من أن يكون ضحية الحرمان. حرمان من حياته، على سبيل المثال. شعرت في صميم قلبها بأن ما فعلته كان الشيء الوحيد الصائب، لكن لم يبدُ لصواب ما فعلته أي أهمية. في أعماق موغلة أكثر مما خيّل لها أو أدركتها حتى، شعرت بالاستياء، وأنها محكومة بالندم لبقية عمرها. خرّب الماضي شكل الحاضر عندما أدركت أن ما قالته ديلوريس جونز لم يكن في الحقيقة صحيحاً. لو رُزقت والدتها بأطفال في عهد العبودية، لما سُمح لها، تلقائياً، بأن تحتفظ بهم، لأنهم لن يكونوا لها وإنما للرجل الأبيض الذي «يملكهم» جميعاً. عرفت مريديان أن العبدات ذقن الأمرّين بسبب بيع أطفالهن، وأنه كان عليهن التضحية بأرواحهن، بسعادة، في سبيل أطفالهن، واعتقدت بنات تلك العبدات أن النعمة الأسمى التي حققتها لهن «الحرية» تتجلّى في قدرتهن على الاحتفاظ بفلذات أكبادهن. وما الذي فعلته مريديان هيل بطفلها الغالي؟ سلّمته وأبعدته عنها. ونظرت إلى والدتها بوصفها تستحق هذا التاريخ الأمومي، وإلى نفسها على أنها تنتمي إلى أقلية وضيعة، لم يسبق لأم من أعضاء تلك الأقلية ان فعلت ما فعلته، وحسب معرفتها، فقد كانت العضو الوحيد.

بعد أن قبلت مجازاً أرض الحرم الجامعي وسارت عبر مروجه عاقدة العزم على ان تجعل من نفسها شخصاً افضل، أيقنت تماماً انها كسرت شيئاً ما، لأنها بدأت تسمع صوتاً عندما كانت تحضر للامتحانات، وعندما كانت تمشي عبر قاعات الجامعة، وتنظر إلى دفءة مهجع الطابق الثالث. حاصرها صوت يلعن وجودها- الوجود الذي لم يرقَ إلى مستوى الأمومة التي خسرتها، وبات يرنّ في رأسها مراراً وتكراراً، إلى ان تدب بعبور الشوارع مترنحة بكل معنى الكلمة، تمسك رأسها بيديها لم لا تموتين؟ لم لا تقتلين نفسك؟ ارمي بنفسك في زحمة السير! استلقي تحت عجلات شاحنة كبيرة. اقفزي عن لسطح. طالما أنت على قيد الحياة! سيظل الصوت مرافقك. سحر الصوت منه وهزئ به. رغبتها تلك

لأن الصوت الذي أجاب ذاك الصوت امتلأ بأشياء مروّعة متعلقة بافتقارها لأي قيمة- كان صوته هي. يتحدث إليها، وملؤه البغض.

عمل المدرّسون معها بجدّ في السنة الأولى من الجامعة كانت تقرأ ليل نهار، لتعوّض ما فاتها ولكن بصرف النظر عن الجهد الدؤوب الذي بذلته، فقد كانت دائماً جاهزة للعمل أكثر، لأنها لم تكن تعرف أحداً في «جامعة ساكسون» تقريباً، ولأن هذه الجامعة مكان أليف لكنه غريب وجامد بالنسبة إليها، ولأنها كانت ممتنة لأي شيء يلهيها عن الصوت الذي يقضّ مضجعها، لم تأخذ قسطاً كافياً من الراحة لتستجيب إلى هذا الانحطاط الروحي في داخلها إلى أن أصبحت في سنتها الجامعية الثانية

الثلج الناصع

نحن طاهرات ونقيات

كالثلج الناصع.

نراقب سلوكنا وكلامنا

كما نراقب ما نرتديه؛

وفي قلوبنا نحمل

أكثر ما نشتهر به

مكرمة حمل

اسم جامعة ساكسون!

لامست النعمة التي حظيت بها أثناء سنتها الأولى في «ساكسون». الجامعة جميلة جداً! أبراج شاهقة يعلوها القرميد الأحمر، ميادين قديمة، أشجار عملاقة- لا سيما الشجرة التي تموقهم عظمة، شجرة «العابر». غمرتها هذه الشجرة بإحساس متساوٍ يجمع بين الضآلة والعظمة، بين الماضي والحاضر، بين الحزن والنشوة التي عرفتها في مدافن «الأفق المقدسة» منحتها شعوراً عميقاً بالسلام (وقد كان هذا ممكناً فقط عندما تشعر بأنها غير مرئية) لأنها عرفت بأن العبيد وجدوا في أغصانها ملجأ وملاذاً عندما كانت تهبط معنوياتها، كما في معظم أوقات السنة الأولى، كانت تجلس تحت شجرة «العابر» تستمد الراحة من حجمها الهائل، وعمرها، والقصص التي رووها الناس عنها وما شهدته من مشاقّ جلوسها تحت شجرة «العابر»، أشعرها بأنها ليست وحدها

[illegible] تمطر [illegible] شمس
كانت [illegible] المدرسة [illegible]
«[illegible]» [illegible]
توكل كل [illegible]
كانت [illegible]
[illegible]

[illegible] طفلا [illegible]
من [illegible] كما
لو [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
في [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
إعلامها [illegible] واثمه

[illegible]
[illegible]

استثنائية. تلك الجامعة التي تتمتع بسمعة اجتماعية وأكاديمية ممتازة، وبالتالي فإنها محظوظة جداً بأن تكون فيها. درست بجدّ وأدرج اسمها على قائمة عميد الكلية، وانضمت خلال سنتها الجامعية الثانية إلى «حركة أتلانتا» اكتشفت استحالة أن تدرس بينما يتعرض الآخرون للضرب ويزجّ بهم في السجون وكانت الحركة، وعلى نحوٍ مفاجئ، بمثابة مهرب لها. بعد أن أصبحت صديقة آن- ماريون، صارتا تتظاهران غالباً معاً وتدخلان السجن وقد تأبطت كل منهما تحت ذراعها فرشاة أسنانها وكتبها وسجائرها. سمح لهما بالتدخين داخل السجن، وهذا ما ساعد في تهدئة أعصابهما المتحفزة. بينما كان التدخين في حرم الجامعة، للمفارقة، يؤدي إلى الطرد، كأيّ شكل من أشكال السلوك «الشائن» الأخرى.

ركزت «جامعة ساكسون» على الشكل، ويتجسد الـ «شكل» الأثير بالنسبة إلى أي فتاة تنهي دراستها الجامعية في أن يتمحور هدفها، أينما وجدت نفسها لاحقاً في هذا العالم، بأن تكون مقبولة كإنسان بذ لأنها عرفت جميع القوانين الاجتماعية اللائقة وخضعت لها. لم تغض إدارة الجامعة الطرف عن انخراط طالبات «ساكسون» في «حركة اتلانتا» ولم تمنعها. وحالما ساد فهم باستحالة ردع الطالبات، قوبل انخراطهن، قدر الإمكان، بالتجاهل. جميع قوانين ساكسون بمنع التدخين واحتساء الكحول والتحدث بصوت عال ومغادرة الحرم الجامعي من دون مرافق، والبقاء خارج الحرم بعد الساعة السادسة، والتحدث إلى الصبية قبل ساعات الزيارة، جميعها بقيت نافذة. وبات من المفهوم أن الطالبة التي تضع نفسها في موقف يقودها إلى الاعتقال فإنها ستتحمل مسؤولية المخاطرة بحياتها الأكاديمية. ولحسن الحظ، كان هناك أساتذة مستعدون للكذب من أجل الطالبات- أسبوع في السجن يصبح أسبوعاً في رحلة ميدانية وهي رحلة بالتأكيد تعود بالفائدة على الطالبات مثل أي رحلة ميدانية أخرى- رغم معرفة الجميع أن هذه كانت مجرد كذبة. بما يؤدي لأن ينتهي المطاف بالأستاذ نفسه خلف القضبان. غض الطرف عن هذا أيضاً، رغم

ظهور اسمه وصورته في الصحف.

وانتشرت أقاويل عن «ساكسون» مفادها أن بإمكانك فعل أي شيء هناك، طالما أنك ترتدي قفازين أبيضين خاليين من أي بقع، ولأنه يتعين على القفازين أن يظلا نظيفين وأبيضين، ينحصر المتاح فعله في أمور قليلة. وفي الحقيقة، شعرت مريديان و الطالبات الأخريات بأنهن يواجهن عدوين. «ساكسون»، التي تريدهن أن يصبحن شيئا ما- أي سيدات- وهو أمر انقرض منذ زمن، والعدو الآخر المتجسد في مجتمع البيض العنصري وكان من الطبيعي أن تنهار الطالبات تحت وطأة الضغط الذي يسببه هذان العدوان. جُرت إحدى زميلات مريديان، وهي طالبة رقيقة من «أوهايو» تدرس الدراما، إلى ما وراء خط الاعتصام على يد أربعة مجرمين، وأرغمت على شرب نصف لتر من الأمونيا. لاحقاً حين تماثلت بدنياً إلى الشفاء، في المستشفى، وهي لا تزال تعاني نفسياً، عوقبت بصرامة عندما ضُبطت في مساء أحد الأيام واقفة بين شجيرات قريبة من مسكنها برفقة حبيبها لم ينتبه أي منهما إلى مرور عشر دقائق بعد انتهاء ساعات السماح بمغادرة الحرم الجامعي. انهارت أعصاب الفتاة، وأرغمت على الانسحاب من الجامعة لبقية الفصل الدراسي

شعرت مريديان، الزوجة والأم السابقة، بنفسها تطير تحت ألوان مريعة بوصفها طالبة «بريئة» في «ساكسون». المشاهد التي رأتها بأم عينيها في شوارع «أتلانتا» أضافه إلى هذا المشهد. دفعها لأن تبدو في معظم لحظات بعضها مشتتة وسريالية. رأت أطفالاً سودا يرتدون سراويل قصيرة، إلى ما فوق سيقانهم السود اللامعة، يطاردهم رجال بالغون من البيض يلوحون بمقابض فؤوسهم. رأت نساء هرمات يطردن خارج المتاجر ويتعرضن للضرب على الرصيف، من دون أن يشفع لهن إدعاءاتهن وانتماءاتهن [illegible] رأت شباباً من السود يتمتعون بجمال روحي مذهل، يتحولون [illegible] إلى رجال لا يولون أي قيمة لأي شيء.

ثمة أشياء أخرى حدثت ذات يوم، ووسط مجموعة من المتظاهرين المتجهين نحو وسط مدينة أتلانتا، مرت مريديان بالقرب من شابة جميلة، ذات جديلتين بنيتين طويلتين، جالسة على درج منزلها، تلوح للمتظاهرين. نادتها مريديان بعفوية قائلة «تعالي وانضمي إلينا» جاءت الفتاة، وجديلتاها تطيران في الهواء. حال وصولهما إلى وسط المدينة، جلستا حول طاولة غداء في متجر «وولورث» وبعد رشقهما بالكاتشاب ورشهما بالخردل والملح والفلفل على يد زبائن المتجر البيض، تم اعتقالهما. حاولت مريديان إبقاء الفتاة، وكان اسمها آن، برفقتها، ولكنها احتجزت وسط الفوضى التي عمّت. في منتصف الليل، تصاعد الصراخ من زنزانة بعيدة في الصف المقابل. كانت الصرخات، حسب ما قاله الحراس، صادرة عن فتاة مدمنة على الكحول تطاردها عناكب ضخمة موجودة في زنزانتها. لكن مريديان عرفت أنها آن، واعتقدت أنها لن تراها مجدداً. وبدأت بالتفكير مليّاً بما فعلته، وأصبحت الصرخات مترافقة مع شعور بالذنب، الشعور الذي كان يثقل كاهلها سلفاً.

اكتشفت مريديان، في الأوقات التي لم تكن فيها مشغولة مع الحركة، أن تفكيرها ينصب بكثافة واستمرار على والدتها، التي بسببها وبسببها فقط كان عليها تحمّل موجة إثر موجة من الشعور شبه البدائي بالذنب. تخيلت والدتها في الكنيسة، التي استثمرت فيها كل شيء ما زال حيوياً في حياتها، تصلي من أجل روح ابنتها، ومع ذلك، لا تربطها بها أي علاقة، ولا تفهم أي جانب من جوانب حياة ابنتها؛ غير أن مريديان لم تدنها بسبب ذلك. فعدا عن كونها والدتها، فإن مريديان نظرت إليها بوصفها تجسيداً لأمومة السود، ونظرت إلى تلك المؤسسة العظيمة التي تنتمي إليها برهبة مريعة. بعد استيعابها لما عنته المؤسسة دائماً من تجسيد للرعب وتضييق الرؤى بالنسبة إلى الأم والطفلة

شعرت مريديان كما لو أن جسدها، الذي يزداد هشاشة يوماً بعد يوم تحت وطأة ضغط

حياتها اليومية، يقف حجر عثرة في طريق المصالحة بين والدتها وذلك الجزء من روحها الذي، ربما، تحبّه والدتها. أصبحت تقلل من قيمة جسدها، وتقلّص اهتمامها به، لأنها بغضت الدور الذي يلعبه كعقبة.

وجدت طريقها إلى النسيان فقط إذا ما حدثت أزمة ما وبينما كانت الطالبات الأخريات يحتشدن مواجهة قوات الشرطة، بدت مريديان مرحبة بها، يغمرها شعور بالجدل الداخلي والإحساس بالحرية، متى رأت الهراوات تنهال عليها. مرة واحدة فقط تعرضت لضرب حتى فقدت وعيها، ولم يكن العطب الذي أصاب جسدها هو ما تذكرته حين صحت، وإنما شعورها بالحسرة، بحرقة قلب يتوق للغفران، عندما رأت الأضواء الساطعة المتفجرة خلف الدم الأحمر الذي غطى وجهها كستارة، وشعور الأمل الذي انتابها متى بدأ النور الفج للوعي بالتلاشي.

لم تطق العيش في الحرم الجامعي بعد وفاة وايل تشايل، إلّا أنها واظبت على حضور الحصص الدراسية وسكنت في حيّ للأقليات يحيط بالحرم. كان مجمعاً سكنياً فقيراً لكنه أليف ولطيف جداً. ولدفع الإيجار وشراء مستلزمات الجامعة مثل مضارب كرة الريشة التي تحمل شعار «جامعة ساكسون»، وبزة سباحة وخفين للباليه وجوارب وغيرها، ذهبت للعمل كضاربه على الآلة الكاتبة لدى أستاذ جامعي تقاعد مؤخراً من عمله لا يبعد مكتبه عن سكنها سوى بضعة أبنية. كان طاعناً في السنّ ويعرف عائلة والدتها منذ سنوات طويلة. إنها والدتها من شجعها على العمل، مذكّرة إياها بأن والدها لم يستطع أن يرسل لها أسبوعياً الدولارين أو الثلاثة دولارات التي طلبتها. كان عليل الجسد وخسارة المزرعة دمرته من جميع النواحي، وما عاد مؤهلاً ليعلّم ولا سيما بعد أن أضحى الدمج يشكل تهديداً على المدارس، فلجأ إلى ممارسة أعمال غريبة هنا وهناك متى عثر عليها.

كانت والدتها أول من لاحظ أن كثافة شعر مريديان السميك الذي يصل طوله إلى كتفيها

قد بدأت بالتناقص، حتى إنها تنذرت حول ضرورة أن تتوخى مريديان الحذر ألّا ينتهي المطاف بها صلعاء، مثل والدة بيلدا لم تتفاجأ مريديان عندما كان شعرها يتساقط لدى تمشيطه، كما لم تفاجئها العشاوة التي كانت تحجب بصرها أحياناً كانت مأخوذة بما يكفي كي لا تنتبه لذلك، وبدا أمراً جوهرياً بالنسبة إليها أن تكون جاهزة لتقبل حدوث أيّ شيء، وقد كانت عاشقة أيضاً، عاشقة لترومان.

الأمير الفاتح

وقف ترومان على الجانب الآخر من باب المدخل مرتدياً ثوباً إثيوبياً فضفاضاً مطرزاً بإفراط بخيوط بيض، وعيناه البنيتان تطفحان بالحماس. كان الجميع يحسبه وسيماً لأن أنفه حاد وبشرته سمراء وليست سوداء؛ أما مريديان ورغم مقتها نفسها لأنها شعرت بذلك، فقد حسبته وسيماً لهذين السببين تحديداً. أو كانت تحسبه كذلك، إلى أن مر على معرفتها به قرابة عام، وبدأت تتأمله عن كثب. وبقليل من المعاينة، تلاشى الكثير من وسامته، بسبب غروره وادعائه. كما أن أسنانه كانت أبعد ما تكون عن كونها جميلة

غير أن السمتين الخبيثتين الخطيرتين اللتين تلازمانه دوماً ستظهران في المستقبل. لهذا فتحت له الباب على مصراعيه بقوة شغوف فارتطم الباب بالجدار كالطلقة. دخل ترومان بخيلاء كما لو أنه أمير فاتح يعود إلى مملكته.

همست مريديان وهي تحضن ذراعيه: «تبدو رائعاً!».

رد عليها بالفرنسية: «وأنتِ أيضاً فاتنة!» كان ترومان يهيم بكل الثقافات الأجنبية في العالم، غير أن الفرنسية كانت الأثيرة على قلبه. أمضى سنة كاملة في أفينيون وباريس، وآمن في أعماقه بأن أي شيء يقال بالفرنسية له وقع أعمق، وأن الناس الذين يتحدثون بها أفضل من هؤلاء (الفقراء والبؤساء!) الذين لا ينطقون بها.

لهذا قالت مريديان «جميل!»[10]، وهو التعبير الوحيد باللغة الفرنسية الذي أحست بالارتياح وهي تقوله. فهمت لحسن الحظ اللغة على نحو أفضل مما تتحدث بها، لأن ترومان واصل الكلام بالفرنسية طيلة السهرة. وعندما كان يحادثها، كان عليها ترجمة كل مقطع إلى الإنجليزية قبل أن ترد عليه. بالتالي هيمن البطء على محادثتهما ولكن هذا لم يكن مهماً. أحبت بقاءها مع ترومان. شعرت بأنها محمية برفقته، وبدا لها شجاعاً

و«جديداً»، وهو على أي حال لا يشبه أي رجل أسود آخر عرفته يوماً، رجل يتحدى الصعاب، وبمقدوره أن يصبح أي شيء، رجل تتطلب كلماته الدقيقة جهداً لفهمها وفي كل مرة يكون قريباً منها، كانت تراودها رغبة بمضاجعته وممارسة جنس منتهب وسريع وطائش معه عندما لمسها الآن، في منطقة التقاء ذراعيها مع كتفيها، ارتجفت أمامه، رغبتها أصابتها بالدوار، وجرى لها تماماً ما هو شبيه بما قرأت عنه في الروايات القديمة لم تشعر من قبل برغبة جارفة لدرجة تصيبها بالدوار وأحست أنها اكتشفت شعوراً مفقوداً.

همس لها بالفرنسية طبعاً «أنا في غاية السعادة لأنك أتيت إلى ساكسون كنت لتدوين هناك في تلك المنطقة النائية». قال فجأة وهو يتراجع قليلاً إلى الخلف، من دون أن تتخلى ذراعه عن تطويقها بقوة. «أنت تخسرين الكثير من وزنك، أليس كذلك؟»

دفنت أنفها وسط حنجرته ومضت ترقوته. كانا في طريقهما لحضور إحدى الحملات، ولكنها أدركت أنه إن لم يتوقف عن مداعبة كتفيها والهمس في أذنيها بالفرنسية (وهو ما بدا مغرياً إلى حد مرعب) والنظر إليها بعينيه البنيتين الجامحتين، فلن يحضرا الحملة أبداً. ولهذا قالت له فجأة: «هيا بنا»، مبعدةً إياه عنها بتردد ولكن بقوة، وقادته نحو الباب.

أثناء مرورهما بالبلدة، أخبرته مريديان عن الطالبات البيض الثلاث المنخرطات في برنامج التبادل الطلابي واللواتي أتين ليتظاهرن معهم عصر ذلك اليوم

قال ترومان. «من أين جئن؟ من جامعة سوارثمور؟»

«كلا، من جامعتي سميث وكارلتون».

«كيف شكلهن؟»

«تبدو إحداهن تماماً مثل الفتى الهولندي الصغير الموجودة صورته على سروال ماركة «دانش بوي» شقراء شاحبة وشعرها قصير يصل إلى أذنيها. أنها الأجمل بينهن. الثانيتان

الأخريان غير جذابتين. سوزان قصيرة القامة ومضطربة وذات ساقين تخينتين. لين نحيلة وداكنة البشرة، ذات عينين سوداوين لفاحتين تنغرز نظراتها بمن تقع عليه عيناها. جئن منذ اسبوع إلى هنا، وقد خرجت مع لين لنحشد الأصوات. تروق لي لين. تعجز عن قول «رأينه» فتقول «رأيتوه» وتبدأ جملتها بالقول «حسناً» اصغ إلي، دعني اخبرك عن منزل تلك السيدة الذي زرناه... في أقصى إحدى المناطق النائية، على حافة اللامكان، جلست هذه السيدة على شرفتها الأمامية، غارقة في أعمق حالات السكينة والطمأنينة. كان من الأجدر بنا أن نعرف أنها على حافة قبرها بمجرّد النظر إلى وجهها. ولكن وجب علينا دعوة الجميع للانتخاب، أليس كذلك؟ إحدى تلك النسوة الضخمات اللواتي يجسدن نمط الامهات، ذات ثديين عارمين، أتفهم ما أقصد؟ مثل جدة الجميع كان طعامها في الفرن في مكان ما من المنزل. حبوب الفاصولياء البيضاء العريضة، أقسمت لين أنها استطاعت تمييزها من خلال رائحتها. صعدنا على أي حال ووضعت لين إحدى قدميها على درج منزل السيدة، فصدر عن بطن لين صوت كركرة وهي تحمل كراسة بأسماء من يحق لهم التصويت. نظرت السيدة إلى قدمها لدقيقة كاملة

سألت: «كيف حالكما يا عزيزتي؟» وبدأت تحرك مروحتها ببطء طلباً لمزيد من الهواء، كان مرسوماً على المروحة يسوع وهو يسير فوق المياه.

قلت لين «اسمي لين رابينويتس».

كررت السيدة: «لين ويز»...

قالت لين: «نعم يا سيدتي».

«ومن أنت هناك يا من تكاد عيناك تقتلعان الملفوف الذي زرعته؟»

قلت «مريديان هيل»، بدأت أضحك لأنها راقتني وكنت بالفعل أغرس نظراتي عميقاً في

حصرواتها، خصرواتها اليانعة الملألئة تحت الشمس، كما لو انها ذهنت بالزيت

«حتنا إلى هن لنطلب منك إدراج اسمك بين المنتخبين» سألت السيدة «حقاً؟»

أصدرت معدة لين صوت كركرة عالٍ جداً. سألتها وهي تمسك بالكزاسه «لم تسجلي اسمك من قبل، أليس كذلك؟».

قالت السيدة: «كلّا».

سألت لين «انتِ السيدة مابيل ترنر، صحيح؟».

عرفت الجواب ولكن كان يتوجب عليها إقحام كلمة (سيدة) في مكان ما من حديثها توقفت المروحة البطيئة لمع بصيص التقدير في عيني السيدة ترنر. «لا بد وانكما فمتما بجوله طويلة. يهودية ومتملقة. هل انتما جائعتان؟» نهضت عن كرسيها و تجهت نحو المطبخ.

تحلقنا حول الطاولة وتناولنا وجبة دسمة، مكونة من حبوب الفاصولياء والملفوف وحبر الذره و لمقبلات. حثتنا السيدة ترنر على ملء أطباقنا للمرة الثانية

قالت لين «اليس هذا رائعاً؟ أكاد انفجر»

قالت السيدة ترنر:

«إن فعلتها وانفجرتِ لن تتسببي بكثير من الفوضى، نظراً لنحولك اود لو احسن إطعامكما. و انا لا أومن بالتصويت. الرب الرؤوف يتولى حل جميع مشاكلي. يعرفني انه يشفي المرضى ويحيي الموتى، ويريح المتعبين ويبارك المستضعفين»

قالت حبيبها «نشكرك على إطعامنا يا سيدة ترنر» ونهضت هم بالرحيل، غير ان لين أرادت أن تجادلها

سألتها مستغيبة بمنطق أهل الشمال: «الربّ إذن يعبد الدرب أمام بيتك، أليس كذلك؟».

قلتُ: «دعينا نذهب»، لكنها أبت، وقد غمرها حماس أكبر

«لا بدّ وأن المسيح سعيد بسكنك في منزل كهذا. حتماً الغبطة تغمره كلما تعين عليك القفز إلى خارج المنزل تحت المطر للذهاب إلى دورة المياه. والروح القدس تبتهل بلا شك عندما يصاب أولادك بالتهاب رئوي كل شتاء»

قالت السيدة ترنر: «ما تقولينه يبدو تجديفاً بالنسبة إلي. تبدين ربما إحدى قريبات يهودا الإسخريوطي» قطبت حاجبيها بحزنٍ وهزّت رأسها.

تجادلنا وتجادلنا إلى أن وصلت السيدة ترنر إلى مرحلة خشيت فيها من أنها قد أهانت دينها بدعوتنا لتناول الطعام. ورفضت لين الاعتراف بحالة النعيم التي اعتقدت السيدة ترنر أنها تعيش فيها.

ظلّت تردد: «فقط لو أننا لم نتشارك الطعام. فقط لو أننا رفضنا أن نأكل. ألا تعتقدين أن السيدة ترنر كانت لتدرج اسمها بين أسماء المقترعين؟»

قلت لها: «بالطبع لا. الأعمى بإمكانه رؤية أن السيدة ترنر في حالٍ جيدة بعيداً عن حدود السياسة».

قال ترومان: «متعصبة».

تراجعت مريديان للخلف وكأنها ستضربه «توقف عن الحديث بهذه الطريقة عن أبناء عمك وعماتك!».

ضحك ترومان: «وجدت وغيرها.. ما اسم الفتاة التي تشبه الصبي الهولندي؟» «جيل»

«هل هذا اسمها؟».(11)

«نعم».(12)

أشعلت مريديان سيجارة ومررتها إلى ترومان. «أعتقد أنهن سيحضرن جميعاً الحفلة الليلة. إنهن تواقات لرؤية كيف يقبّل السكان الأصليون بعضهم البعض بعد حلول الظلام. يا إلهي! هل تعرف ما قالته تشارلين لي. قالت إن جيل تلتقط صوراً لفتيات وهن يمسدن شعورهن وأثناء خروجهن من الحمام»

«وماذا أيضاً؟».

«حسنا، بعدها عمدت تشارلين والفتاة الأخرى التي التقطت صورة لها إلى التهديد بضربها ما لم تُتلف الشريط. قالت تشارلين «لسنا هنا في غينيا الجديدة»

قال ترومان: «كل ما في الأمر أن السود يثيرون فضولهم. عندما كنت في باريس شكّل الفرنسيون محط فضولي. انا على ثقة بأنني قمت بتصرفات غريبة ايضاً»

«مثل التقاط الصور للفرنسيات اثناء تصفيف شعورهن ولحظة خروجهن من الحمام؟ و ان الفرنسيين حقاً لا يستحمون ابداً؟»

ضحك ترومان. «قطتي الصغيرة لديها مخالب حادة. وما تزال كذلك. وتدفع المال مقابل أن يرحمها الناس من فضولهم. لم يعد يزعجني مطلقاً عندما ينظر الاجانب الى شعري ويقولون زنجي ظريف له شعر يشبه الشمندر. صحيح؟»

قالت مريديان: «الجميع محذور بالإقرار بجزء يسير من خصائصهم (السيئة) يعرفون كم يجعلهم هذا ساحرين».

نظرت عبر نافذة السيارة وادركت انهم توقفوا قبل عدد منازل من مكان اقامة الحفلة دنا

ترومان منها وضمها بقوة بين ذراعيه. شعرت بلسانه يلعق ماء الكولونيا الذي رشته على شحمة أذنها. كانت يداه تعصران حلمتي نهديها. عندما سحبت رأسها وابعدته، دفن وجهه في حضنها، وقد أثار تصرفه هذا صدمتها. انتابتها مشاعر دافئة اثارت القشعريرة في نفسها ورحمت صاعدة من اعماق معدتها.

استجداها قائلاً: «دعينا لا نذهب إلى الحفلة لنعد إلى الشقة. الجميع هنا، سنكون وحدنا. أرغب بك الآن».

قالت: «أحبك».

«وسنذهب إلى الحفلة، صحيح؟». استوى ترومان في جلسته ومرر أصابعه بين شعره.

سألت مريديان: «لكن هل تفهم؟ لست مترمتة. خائفة، نعم، لكني لست متزمتة. سنكون معاً ذات يوم قريب».

قال ترومان وهو ينهض ويعدل من وضع ثوبه. «أنت يافعة جداً. ليتني استطيع ان أوضح لك مدى جمال ما ستشعرين به عندما تكونين معي».

صرخت مريديان «أشعر به، اشعر به!». امسكت بيده ومشيا عبر الشارع

رقصت مريديان في الحفلة- ما بدا قدرها في معظم الحفلات، مع شاب ثقيل الخطى من اركنساس اسمه الأول تيريس؛ عمدت متقصدة إلى تحييد نفسها عن شهوته بتقلا في ساحة الرقص من مكان إلى آخر إلى ان تدخل صبي ابيض وليثبت ترتيس تحققه من الانحياز، نقل مريديان بلطف إلى ذراعي الشاب

سأل الصبي الابيض «هل ترتادين الجامعة القريبة من هنا؟»

قالت مريديان «أجل، تقريباً» كان اطول منها بكثير، وعندما نظرت في الاعلى نحوه،

اصطدمت ذقنها بصدره. لم يكن قبيحاً، بدا شجاعاً، ذا شعر أسود قصير، وقد حلق أسفل الخط المحيط بشعره، فيما لمعت أسنانه البيض الصغيرة في ميناتها، كما لو أنها قطع محار صغيرة.

سألت. «من أين أنت؟» مقتت أن تفكر بطريقة مبتذلة في مثل هذه المواقف، بينما بوسعها ملاحظة أنه يحدق فيها بإعجاب، رغم جموده الملحوظ في الرقص.

قال: «من كونيتيكت. جئنا من جامعة كونيتيكت.» ثم استطرد. «كون يو»[13] وضحك. لم تفهم مريديان النكتة. سألته: «ما الذي تريد إقناعي به مسبقاً؟»

وضع أحدهم أغنية سريعة فانطلقا يتحركان في الغرفة بجنون. عندما توقفا ليلتقطا أنفاسهما بحثت مريديان عن ترومان

شرحت لكون يو قائلة: «أبحث عن رفيقي». واصل كون يو المسح الذي أجرته عيناها للغرفة، عاجزاً عن إخفاء قلقه من احتمال أن تتركه.

سأل كون يو وقد طغت على صوته مسحة من الفرح: «أليس هو ذلك الشاب هناك؟»

كان ترومان جالساً على الدرج المفضي إلى القبو، بينما الفتاة الأشبه بـ «الصبي الهوسدي» جالسة على الأرض تحته وقد صالبت ساقيها، ترمقه بإعجاب؟ بفضول؟ بجوع؟ لم تكن مريديان واثقة من تفسير نظرتها تماماً، لكنها متأكدة من أن تنورتها قصيرة إلى ما فوق الركبة

ضحك كون يو. «يبدو أنه يسلّي نفسه كثيراً» جلس القرفصاء ومال نحوها، ومرفقه مستند إلى الحائط بدا ريفياً بالنسبة إليها على نحو غريب رغم أنها صحبته في الجامعة الآن، فطالما افتخرت بامتلاكها ذوقاً متنوعاً إن تعلق الأمر بالرجال، ولم يكن المزارعون

البيض قد درجوا على القائمة بعد. قال: «اسمي سكوت. تيمناً بسكوت فيترجيرالد. امي تعشق كتبه»

قالت مريديان. «ممم.. » وكشفت على مضض عن اسمها.

سيتبين لاحقاً أنه ثرثار أيضاً.

هل ترقص معظم الأوقات؟ هل تحبّ الرقص؟ كم يبعد مسقط رأسها عنها الآن؟ هل تحب والدتها الرقص؟ ماذا يعمل والدها، وهل أحبّ الرقص؟ وما المدارس التي احبتها؟ هل يعلمون الرقص هناك؟ وسألها عن المظاهرات- كم مظاهرة شاركت بها؟ هل تؤمن بصدق ان التظاهر يجب أن يكون على هذه الشاكلة؟ ألم يكن هناك طرق اخرى أكثر نجاعة وبنتائج كارثية أقل من التظاهر في الشارع؟ ألم يُكتب الدستور خصيصاً من أجل حالات الطوارئ مثل أزمة التمييز العرقي الراهنة؟ ما رأيها بالدستور؟ بالآباء المؤسسين؟ تساءل إن كان سيروق لهم ما يحدث في البلاد الآن؟ هل آمنوا بالمظاهرات المحظورة؟ أعتقد أنه سؤال مثير للاهتمام تساءل، تعالي نفكر بالأمر. كيف امضوا أوقاتهم خارج الساعات التي كانوا يعدّون فيها مسودة الدستور؟ هل كانوا يرقصون؟

صرخت: «تيرينس»، متشبثة بكتفه عندما اقترب بخطوات متثاقلة «أنا مسرورة جداً لعودتك، فقد وعدتك بان ارقص معك الرقصة الأخيرة»

بحثت عن ترومان لإنقاذها لكنه اختفى عن ناظريها

ابتسم تيرينس بفخر ومرح. وتحركا متجهين نحو نهاية كنسة

قال ترومان وهو يعدل رداءه «خرجت لأدخن» وقفت مريديان من الشرفة، والجميع قد غادر. انتظرت ترومان وسط مخاوف من بريق الوضاء في عين تيرينس ولم تشعر بأدنى رغبة بالشجار.

قالت مريديان. «يا إلهي، ليس لديك أدنى فكرة كم كانت هذه الليلة مملة». كانت منهكة لدرجة لا تسمح لها بالتذمر.

عندما وصلا إلى منزلها، دعته للدخول، لكنه كان يشعر أيضاً بالتعب والنعاس.

قال وهو يكبح تثاؤبه: «ربما غداً»

لأشهر عديدة لم تر ترومان وحده مجدداً (باستثناء مرة واحدة تفطر القلب). في الواقع لم تره إلّا بعد أن قرأ كتاب «أرواح الشعب الأسود» (14)كانت الطالبات المنخرطات في

مشروع التبادل الطلابي، ثلاثتهن، قد عدن إلى الشمال حينها، وكان بحاجة إلى شخص ما يناقش معه أعمال دو بويز. صرخ. «إنه عبقري»، وقرأ مقاطع من الكتاب زاعماً أنها تعكس روحه وروح مريديان. لكن مريديان كانت تقرأ إف سكوت فيتزجيرالد حينها، رغم أنها لم تتخلَّ عن أيٍّ من أعمال دو بويز التي كانت تعرفها مسبقاً. وبدا النقاش مع ترومان عميقاً جداً. ذهش بالبرود الذي قابلت به تأكيده بأنه قرر بعد قراءة كتاب «السيد»(15)، بأن خروجه برفقة فتيات بيض سيكون مكرساً لممارسة الجنس بشكل أساسي. ضحكت عندما عرفت أنه يتوقع منها أن تكون سعيدة ومطمئنة بقوله ذلك. ضحكت ضحكة مريرة وابتعدت مجدداً، تهدلت ذقنه أمام سوء فهمها لما رمى إليه.

ندمت بشدة على الوقت الذي أمضته مع ترومان، بعد أن باشر علاقته مع طالبات برنامج التبادل الطلابي، وفيما يتعلق بالجزء الخاص بها، فقد دفعت مريديان ثمناً باهظاً.

كانت تمشي في الشارع خارجة من عملها في مكتب الاتحاد الجامعي الأهلي، مطأطئة الرأس، فلم تلمح ترومان وهو يقترب منها. اختارا بعضهما بعضاً مرة. عندما توقف واستدار، القميص الأخضر الذي كان يرتديه جعل عينيه البنيتين داكنتين وحزينتين جداً.

«مريديان؟».

«مرحباً»، قالت وهي محرجة لرؤيته الآن بعد علاقته مع طالبات البرنامج كان الوضع غريباً وظالماً، ودفعتها حقيقة أنه على علاقة معهن- ومن الجلي أن لون بشرتهن جعل منهن سيد ت مثيرات للاهتمام- إلى الإحساس بالعار، كما لو كانت أقل قيمة منهن.

اقترب منها ووضع ذراعه بشكل عادي حول كتفيها. «تمشين مطأطئة الرأس. يجب أن يكون رأسك مرفوعاً. فخورة وحزة»، ودغدغها بمرح تحت ذقنها.

نظرت إليه متسائلة إن كان قد تظاهر، كما فعلت، في ذلك اليوم. قال إنه يتبع قاعدة تقضي بعدم التظاهر بعد الآن «لأن ما أؤمن به لا يمكن كتابته على يافطة» وعمدت إلى إثارة حنقه حول هذا الموضوع وقالت: «ماذا عن كتابة كلمات مثل (حرية، وتحرر ومساواة)؟ هذه الكلمات تفي بما تؤمن به، أليس كذلك؟ راودتها أيضاً رغبة جارفة لإضافة كلمات (طالبات برنامج التبادل الطلابي). ولكن كم هي مهذبة! كم هي مشوشة إزاء نزعاته وميوله. تجاوز هذا كل شيء وطنت نفسها على توقعه

لانها أدركت أن ما تعلمته ينص على أن لا أحد يرغب بفتيات بيض باستثناء نظرائهن من أصحاب الرؤوس الفارغة، المخنثين- الصبية البيض- الذين اكدت والدتها لها بان رائحتهم نتة (رائحة فمهم) كرائحة الذرة المسلوقة (ورائحة أجسادهم) كرائحة الفراء الذي يبلغ ثمنه تسعة وثلاثين سنتاً وبقدر م نسعفها ذاكرتها، فقد بدا امرا مفهوما انه بينما كان الرجال البيض يركبون عجائز سود بعمر أمهاتهم- ليكتسبوا الخبرة- اعتبر الجميع النساء البيض كائنات غير جنسية ومثيرات للازدراء و سخرية لم تكن ر ئحتهن تشبه حتى رائحة الفراء والذرة المسلوقة، لم تكن لهن ي رائحة لانهن لا يتعرقن كن مثل نطبعاً ميتاً

كانت والدتها، ورغم انها ليست خادماً، تعمل غالباً لدى عائلات من البيض في أوقات عيد الميلاد لكسب مالٍ إضافي، وأخبرت عائلتها- بلغة جادة ومدروسة بعناية، بينما أبقت وجهها مركزاً على طاولة الكوي- عن الأبناء الشهوانيين الشبان الذين يعودون إلى ديارهم لقضاء فترة الإجازة، ويخاطبونها باسمها الأول، بالطبع، يستجدونها ويتوسلون إليها وحتى (قالت والدتها بتهكم) يستجبون، متبعين كافة الوسائل التي يتبعها الرجال البيض سحرت والدتها من الرجال الجنوبيين من أشباه المثقفين. «ما الذي تتحدث عنه يا سيد فلان الفلاني؟»، (نحن نتحدث هنا عن ولد عمره واحد وعشرون عاماً، غضبها ودينها جعلاها تشعر بالاختناق). «أنا كبيرة بما يكفي لأكون جدتك. أستطيع تذكر والدتك عندما كانت فتاة صغيرة. ما كنت لتتحدث مع أي من صديقات والدتك بهذه الطريقة. لماذا تضايقونني؟».

هذه التصرفات تستثير مباشرة كرامة السيدة هيل الدينية عوض استثارة كرامتها الإنسانية. (لأنها تفترض مباشرة أن «السيد فلان الفلاني» لن يهتم بالكرامة الإنسانية)، فهي من السود، أليس كذلك؟ وأنثى. (ليست سيدة ولا حتى امرأة، لأن هاتين الكلمتين تستحضران شيئاً أكبر من الجنس؛ الكلمتان تشيران إلى شخص وليس إلى شيء). صحيح، لقد كان أمر الرجال البيض مفهوماً. يروق لبعضهم ممارسة الجنس مع النساء السود وقد صرحوا بذلك. فيما كان الأمر بالنسبة إلى رجال آخرين بمثابة اكتساب خبرة، حجر تدشين للدخول إلى عالم البالغين، وكانت اي خادم أو طاهية او طفلة صالة او اي شيء ليس طاعناً في السن او لا يثير الغثيان ليفي بالغرض. احتكم صوت السيدة هيل على نبر ومحزون، بل ومحيط من الاشمئزاز، وعندما تصف الرجال البيض، فإنها تصفهم بكره مبهك يكيله الذين كان بوسعها التحدث بحرية لأن الرأي السائد بين السود حول الرجال البيض يوافق رأيها، وبالتالي تحدثت عن وجوههم كما لو أنها وجوه ابتال و ثيران او قمله بحر لزجة يسيل اللعاب من افواهها. كما انهم وحسب وصفها مخدوعون تتلاعب بهم زوجاتهم،

وفي هذا ما يثبط اي محاولة لاحترامهم

ولكن ما الذي قالته والدتها عن النساء البيض؟ لم تستطع في الواقع تذكر الكثير، الانطباع الذي تكون لديها انهن كن مخلوقات وضيعة وعاجزة، حمولات ويفتقرن إلى النباهة، قد ترتقي إحداهن احياناً إلى مرتبة العاهرة، وحينها تنحى جانباً بعناية عند مناقشة «الاخريات» بصيغة الجماعة. تمسكت جدتها- الخادم السابقة المنفصلة والتي تعمل الآن قابلة- بآراء حادة، وكانت تعرب عن آرائها على النحو التالي 1. لم تعرف قط سيدة بيضاء احبتهن بعد سن الثانية عشرة

2. النساء البيض عديمات الفائدة باستثناء كونهن آلات لإنجاب الاطفال ما يسهم في مواصلة إنتاج أناس بيض صغار يكبرون ويضطهدوننا 3. من دون الخدم، سيعشن جميعهن في زرائب خنازير.

من كان ليحلم في بلدتها بتقبيل فتاة بيضاء؟ من كان ليرغب بذلك؟ ما نفعهن؟ ماذا فعلن؟ بدا كل ما يفعلنه هو التسكع والضحك بعد المدرسة إلى أن يبلغن السادسة عشرة أو السابعة عشرة فيتزوجن. تظهر صورهن في صفحات المجلات المخصصة للمناسبات، ويمكن للمرء رؤيتهن وهن حوامل مرات عديدة، ثم تعجز بعدها عن التعرف عليهن كفتيات «عرفتهن» يوماً ما، ويطويهن النسيان للابد. لا يسمع أنهن قمن بأي شيء مهم. قد تهرب إحداهن لتنخرط في فيلق النساء. قلة قليلة منهن- قرابة ثلاث او اربع نساء في السنة، النساء غير الجذابات- يرتدن الجامعة في المدينة (وهو ما امد بمكتبة المحبسة و قسم اللغة الإنجليزية بموارد ثابتة) ولكن لم يكن بينهن حتماً اي معمرات الا .... حسناً المدمنات على الكحول منهن إن نجحت إحداهن في .... أمورها .... في .... لدرجة تحرج و .... (.... صدقاء والديها .... في .... بهم .... كل يوم احد) فما كانت احدى هؤلاء لتصل الى مجتمع سود

على المقلب الآخر، كانت النساء السود يقلدن هاريت توبمان، [ ] يهربن ليصبحن شيئاً لم يسبق لاحد غيرهن تحقيقه يا للعار. أصبحت إحدى صديقات شقيقتها بطريقة أو بأخرى رقيباً في الجيش وعرفت كل شيء متعلق بتجهيزات العدو ومعدات الإذاعه. هربت بضع فتيات عرفهن إخوتها وكن مفلسات تماماً وعدن بعد سنوات وقد أصبحن طبيبات ومعلمات في المدرسة. هربت فتاتان أخريان وهن متزوجات من رجلين ليعدن وقد تزوجن بعضهن بعضاً. أشعل هذا الحيوية في المجتمع. بدأت الألسن تلوك الحكايا. ولكن في نهاية المطاف، استمتعن بزيارة ذويهن وأصدقائهن القدماء، وأمتعن الاخرين بدورهن «كيف برأيك استطعن تحقيق ذلك؟» هذا هو السؤال الذي- رغم عدم نشره في الصحف بالطبع- كان متداولاً على ألسنة الجميع. ولكن حتى في أكثر الاشياء تقليديه، كانت النساء السود سبقات لطرق باب المجهول. هجرن منازلهن وهن فتيات سود خائفات وفقيرات وعدن (بعضهن) أمينات سرّ وكاتبات على الآلة الكاتبة ناجحات (بدا أن هذا أذهل الجميع، وجود شركات في أتلانتا ومدن أخرى كبيرة قد توظف أمينات سر من السود). عدن، وقد تخلصن من لون شعرهن الأصلي ليصبح أحمر مائلاً إلى البني أو ذي خصل مصبوغة بالفضي، أو كن ربما يرتدين شعراً مستعاراً. بدا شعرهن جريئاً ومسترسلاً جداً أو جعد بعض الشيء، ليذكرن الجميع بالنساء الإيطاليات- مثل بيير انجلي([ ]) اللواتي شوهدن في الافلام. كانت كتب الجيب التي بحوزتهن وأحذيتهن تلمع وعلت وجوههن (الأوجه القديمة التي يتذكرونها قد خضعت الآن لإعادة تشكيل كامل على يد ماكس فاكتور [ ] وميبلين([ ]) أقنعة مثالية يعبر من خلالها صوت شخص كان يوما ما مألوفاً

ثم كانت الفتيات اللواتي فضلن قضاء أحلى الأوقات وعدن إلى المنزل وفي جعبتهن حكايا فاحشة عن مغامراتهن الاستثنائية في المدينة الكبيرة، كن [illegible] يرافقهن وهن يغرين الرجال المحليين بسهولة مذهلة. بعضهم كانوا فيما مضى عشاقهن وربما لا يراؤون

كذلك. وبفضل ثيابهن الرخيصة ذات الألوان الفاقعة، وأسنانهن التي أصلحنها حديثاً، وسياراتهن المبهرجة، وساعاتهن وقلاداتهن الذهبية البرّاقة- استطعن تحقيق مآربهن. جذبن الانتباه استحققن الإعجاب بجدارة. فقط المبتوذات اللواتي أقصين ليس عن الرجال وإنما عن التجربة والمغامرة- سقطن في مستنقع الحياة الأهلية الذي بدا مصير حتى أذكى الفتيات البيض. لم يبدُ أن هناك ما يثير الحسد والغيرة حول النساء البيض. قد تشتهي إحداهن الشعر الطويل، إن كان متمايلاً وناعماً على نحو ملفت، وهذا كل ما في الأمر. فالشعر شيء ميت يواصل اللمعان- فقط إن دُهن بالزيوت.

مريديان بالطبع أسبغت على نفسها جميع الخصال الحميدة التي تتمتع بها النساء السود، الخصال التي أصبحت الآن واعية بما يكفي لإدراكها. عرفت خلال الفترة التي عاشتها مع إيدي أنها تفتقر إلى الشجاعة، وحسّ المبادرة أو لأفكار هي بنات أفكارها. ومن حيث لا تدري، نبعت الإرادة التي أوصلتها إلى «جامعة ساكسون». اعتبرت نفسها أحياناً مغامرة، وغمرتها السعادة عندما فكرت بأنها تنتمي إلى الأناس الذين أسهموا في ولادة هاريت توبمان، السيدة الأميركية الوحيدة التي قادت قوات مقاتلة في ميدان المعركة

غير أن ترومان، ومع الأسف، لم يرغب بوجود جنرال إلى جواره لم تكن لتستهويه سيدة حاولت، وهي مكبّلة بالشعور بالذنب والفزع والندم، التحكم بزمام حياتها الخاصة. أدركت أن ترومان كان ليحبّها أكثر لو أنها ما تزال تلك السيدة التي كانت زوجة إيدي. لأن جلّ ما أعجبه هو الضوء الغامض لوجهها أثناء وقوفها عند خط الاعتصام- سيدة جذابة ولكنها نائمة.

لأن، وأثناء سيرهما تحت الأشجار على طول طريق الحرم الجامعي قبل دقات ساعة الحرم ترن بتحل محل نغامهما عبر الملائمة التي تنتمي إلى القرن ... من عشر، احتجت لدراعيه تطوق كتفيها. الحقيقة أنها اشتاقت ... ه وندمت ... كل مرة امتنعت فيها عن

تلبية ندائه.

عندما وصلا إلى شقتها، كانت شاكرة لأنه مشى خلفها.

سأل ترومان «ماذا أعطاك هذه المرة؟».

قالت، وهي تؤرجح الأغراض وتضعها فوق الطاولة: «بعض الزبيب وبسكويت فيج نيوتنز وصندوق من الكوكا والمال الكافي لشراء مضارب جيدة للعب كرة الريشة»

قال ترومان وهو يفتح علبة كوكا ويعب منها جرعة كبيرة. «لا بدّ وأنه رغب بأن يكون له ابنة». ثم قال وقد علت ابتسامة عريضة على وجهه: «إلّا إن كان عجوزاً ثرياً ممن ترغب النساء بإغوائه طمعاً» انفجر ضاحكاً عندما فكر بالأمر سألها وقد لمعت عيناه: «هل عرج وهو يطاردك ويركض وراءك حول مكتبه؟».

وضعت مريديان ما تبقى من علب الكوكا في الثلاجة. لم تبتسم، إلى أن دفعها الصمت إلى التفكير بما قاله ترومان، ثم ارتعشت شفتاها لبرهة. قالت بسرعة «كلّا، إن فكرة القيام ببعض الحركات الجسدية ستثير قلبه العجوز حتى الموت»

لم تكن هذه هي الحقيقة بالطبع. الحقيقة أن السيد ريموندس طاردها ودار وراءها حول المكتب. الحقيقة أن منحتها الدراسية لم تغط جميع تكاليف دراستها واحتياجاتها الأخرى أيضاً. الحقيقة كانت أنها اعتمدت على النقود الإضافية التي أعطاها إياها السيد ريموندس. كل علبة كوكا، كل قطعة حلوى، كل علبة من اللحم المشوي التي تأخذها معها إلى منزلها، كل مضرب قدمه لها عنى لتخفف من عبء شراء إحدى السلع الموجودة على قائمة مشترياتها

نعم السيد ريموندس عرج بالفعل وهو يلاحقها حول مكتبه و لأسوأ والأفدح أنه أمسك بها لكنها عرفت أن ترومان لن يفهم أبداً بأن لا فهمت أو صدقت هي نفسها في بادئ الأمر

في المرة الأولى لمسها السيد ريموندس عن طريق الخطأ أثناء مروره بقربها، ظنت أنها تخيلت ما حدث، فهو ذو شأن في نهاية المطاف، أستاذ جامعي، تغطيه أوسمة الشرف (جدران مكتبه في الحقيقة مغطاة بالأوسمة)، لا بل إن الجدران تئن تحت وطء اللوحات الجدارية المعلقة هناك (ولم تكن محنكة بما يكفي حينها لتعرف أنها مبتذلة) والتي تشير إلى أنه شغل مناصب 1. رئيس جمعية الشبان المسيحيين الملونين من عام 1919 ولغاية 1925؛ 2. شيخ في الكنيسة الأسقفية؛ 3. رجل العام للهيكل الماسوني لعام 36-1935. 4. أفضل أستاذ لطرق الزراعة 1939-1938. وقد ألف كتباً في مجالات زراعية متعددة وكان خبيراً متمرساً. عندما أعطاها نسخاً من كتبه بعد أن وقعها، شعرت بغبطة كبيرة وأرسلتها على الفور إلى والدها. أعطاها كتبه في أول يوم عمل لها في مكتبه

لم يخبرها شيئاً عن زوجته التي رأت ذات مرة صورة لها، بوجهها الحاد القاسيم، وبشرتها الداكنة جداً، الأشبه ببشرة النساء اللواتي يختارهن الرجال السود من ذوي البشرة الفاتحة جداً. لاحظت أن الأمور تسير إما بهذه الطريقة بالنسبة إلى الرجال السود ذوي البشرة الفاتحة أو تسير بالطريقة الأخرى. لم يبدُ أن هناك حلاً وسطاً. في حالة السيد ريموندس، وقع اختياره ربما على زوجة من ذوات البشرة الداكنة لأنه أحد «الرجال المؤمنين بالعرق» ممن أكل الدهر عليهم وشرب، الرجال القوميين المتطرفين في زمنه- أي في عشرينيات القرن العشرين. كان وما يزال مغرماً بالتحدث عن العرق كما لو أنه كتلة ذات ماهية متجانسة يمكن وضعها على هذه الشاكلة أو تلك، في أي زمن أو مكان، لإحداث التغيير.

تصرف السيد ريموندس بمعجرف كرمى للعرق برمته، وحسب ما تذكر أنها رصدت جانباً دفاعياً طبعاً في تصرفاته إزاء الرجال الأصغر سناً من ذوي البشرة الأدكن. كما كان عاطفياً جداً عندما يتعلق الأمر بالمحافظة على فصله النساء السود وحمايتهن من الرجال

البيض رآها مرة تتحدث مع طالب لاهوت أبيض على ناصية الشارع قبل أن ينعطف ليدلف إلى المبنى ليبدأ مزاولة عمله، وقد احمر وجهه غضباً. قبل عودتها إلى منزلها، أخبرت بدقة عن عدد النساء السود اللواتي تعرضن للاغتصاب على يد الرجال البيض في الأعوام بين 1896 و1963. افترضت أنه اخترع الرقم، لكنها حبست أنفاسها على أي حال، كان طالب اللاهوت، ويا لسخرية القدر، من جنوب أفريقيا، وقد تحدثت إليه بدافع الفضول المنحرف ظنت أنه ولأنها سوداء، ستلمس مسحة من التوتر تعلو وجهه، ولكنها لم تلحظ شيئاً على الإطلاق. لربما كانت بشرتها توازيه بياضاً وهما متساويين في فهم اللاهوت.

طغى الفضول أحياناً على تصرفاتها مع البيض، لم يبدوا بالنسبة إليها حقيقيين في معظم الأحيان. بدوا أغبياء جداً في محاولاتهم تحطيم كل من يصادفونه في طريقهم من دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عما يفعلونه. كانت تنظر إليهم أحياناً بوصفهم قطيعاً من الفيلة، يسحقون كل شيء تحت أقدامهم، متبلدي الأحاسيس وثقيلي الدم، ويختلفون عن الفيلة بأنهم ينسون ما فعلوه.

كان السيد ريموندس ممشوق القامة عظامه بارزة وبشرته بلون حلوى الكراميل لممددة، وشعره أبيض قصير فيما جفنه الأيسر متهدل. كرهت أسنانه؛ كانت كلها أو معظمها اصطناعية، تربطها أسلاك بعضها بعضاً، وكانت الأسلاك تلمع لو أنه يطبق فمه، لكنه لم يفعل ذلك قط. وبدت أسنانه نتيجة لذلك مغطاة بطبقة من الفانيلا الصفراء، ورائحة أنفاسه مثيرة للغثيان، كما لو أن الفم برمته أنبوب من أنابيب الصرف الصحي، لم يكن نحيلاً طيلة حياته، وبقيت للآن عظامه بارزة وليس نحيلاً في شأنه كل مفتول العضلات، وأصبح هزيلاً مع تقدمه في العمر حين أمسك بها عندما دخلت تحدر إلى مكتبه وحاول فرك عضوه الهرم على جسدها، لم تشعر سوى بعظام حوضه القاسية تنكزها في بطنها

رغب بان تجلس على حجره، وهذا ما كانت تفعله أحياناً، وهو يفتح درج مكتبه ليخرج الأطايب التي اشتراها من أجلها. علب من التونا وأكياس من النعناع وشوكولاته «بيبي روث»، وأمشاط ابتاعها من متجر رخيص، كما كان يجلب لها أحياناً ورقاً للطباعة. عمل على دفن انفه الطويل في شعرها أو قد يتمادى بقدر ما تسمح له ليصل إلى المنطقة تحت ذقنها، متلوياً تحتها طيلة الوقت لتجد متعته الميتة طريقها إلى عضوه الرخو. لم تذكر أن الحظ حالفه يوماً ولو لمرة واحدة.

في كل يوم حين كانت تنهض لتحضر له رسائل مكتوبة على الآلة الكاتبة وسط ضباب حقيقي يشكله مستنقع انفاسه العطنة، كان يطبق ذراعيه عليها، يجزها بعيداً عن الباب، والعظام الطويلة لفخذيه ترغمها على فتح ساقيها، محاولاً إلقاءها على الأرض، وهي تبتسم وتقاوم وتبتسم، متظاهرة بأنها لا تدرك نواياه- وهي فكرة اسهمت بلا شك في إشعال رغباته وإلهابها أكثر. وبينما كانت تتلوى وتلتف، مبقية وجهها بعيداً قدر الإمكان عن شفتيه وأنفسه، كان وجهه يصبح شاحباً تحت وطأة تصميمه وعرقه، ويصبح صوت تنفسه اجش ومتعباً، وعندما ينظر إليها كان بريق عينيه مثيراً للشفقة.

سأل ترومان: «ما خطبك؟».

قالت بسرعة «لا شيء، ما الأخبار؟»

قال مسهداً وهو يستلقي على الأريكة «أعمل مجدداً في النادي الريفي ب للهول، اكره هؤلاء السفلة لا يمكنك تقدير الصعاب التي أقاسيها لاحمي كفاف يوم » مد جسده وطوق خصرها، ليسحبها إلى الأريكة «هؤلاء المجانين يرمون لفائف السجائر في البركة لتحقيق غرض واضح ألا وهو دفعي إلى اخراجها بيدي ولا يمكنني الانتظار إلى ابعد لإخراجها غير معقول! يعلو صوت عجوز خرائي مناديا «ترووومان، اذهب واخرج أعقاب السجائر من البركة قبل ان يصل المزيد من ضيوفي» وبينما اضطر لاعقاب، نمشي

بالطبع بعض نسائهم المحيلات العجائز برفقٍ لمراقبتي وإسداء النصائح يتمتمن قائلات: «ترووماتن، أعتقد أن عليك الاقتراب اكثر إلى هذه الجهة، أليس كذلك؟» أو. «أنت ولد رشيق جداً، قياساً بصبي بمثل حجمك». ويتوجب عليّ الوقوف هناك ورسم ابتسامة عريضة على وجهي وتحمل ما يجري. أنا أحتقرهم. قال بحزم وهو يوجه لكماته إلى الوسادة، فيما يده الأخرى تمسك بقوة بذراعها. «أنتن النساء محظوظات حتماً إذ لا يتعين عليكن التواصل معهم طيلة الوقت».

الضحكة القصيرة المكبوتة التي جاءت كرد على ما قاله كانت سوداء لا تخلو من التهكم، ونظر ترومن إلى مريديان بحدة.

قال: «أنت على حق يجب ألّا نتحدث في أشياء حزائنية كهذه الليلة. اقتربي مني يا امرأة. اشتقت إليك».

لم تستطع منع نفسها من ملاحظة أثر شعوره بفحولته في بث الرضا في داخله. الضغط المطبق على خصرها، مماثل للامر الفظ الذي أصدره، غير ضروري البتة، لأنها كانت مستلقية بالفعل على حضنه، مثل سمكة منجذبة إلى الشاطئ.

داعب بأصابعه الطويلة الدافئة الجهة الداخلية من ذراعيها، ثم قبلها في شفتيها. كان ذهنها لا يزال يعمل على نحوٍ مثالي، فقد خططت، بسبب الطالبات المنخرطات في برنامج التبادل الطلابي، أن تبقى جامدة بلا حراك. إلا أن شيئاً حياً بدأ يتحرك، ليتسع ويمتد ويصل إلى قعر بطنها، وشعرت بذلك بالفعل، ولاحظت الامر بحذر، كما لو أن مركز جسدها برمته قد بدأ بالذوبان، وقررت أن توقف عمل دماغها بسرعة، وبدأ جسدها يتحرك نحو جسده طواعية وعلى نحوٍ متعمد حتى بدأ يمص حلمتيها من فوق سترتها. سنوب في جلسنها وحلقتها ثبت فمه على إحدى الحلمتين، فيما انشغلت أصابعه بفرك الحلمة الأخرى ومداعبتها

نفيت حينها طالبات البرنامج إلى ركن قصي من العالم لم تكن أفكارها بحاجة إلى تعقبه. طاردتهن إلى هناك على متن مكنسة متخيلة، ابتكرت خصيصاً لهذا الغرض. كانت مكنسة سوداء طويلة يحيط شريط أصفر بمقبضها، وطهرت بيديها السماء والأرض فلم يبق أحد سواهما. تردد ترومان عندما لمست يده سروالها الداخلي. نهضت بصمت وتركت تنورتها وسروالها الداخلي يسقطان على الأرض. نزلت بنظرها إلى عضوه، بدا كبيراً جداً بالنسبة إليها ومائلاً على نحوٍ غريب، كما لو أنه اعوج تحت وطأة ثقله المتعجرف. عندما أمسكت به بيدها، ارتعش ترومان وتقلص وجهه. حزك وجهه مشاعرها. قادته إلى مفاتيح جسدها وتصاحبا (فكرت في الأمر بوعيها على هذه الشاكلة)، تصاحبا، بدا وكأن الأمر استمر لساعات، وحدث عدة مرات أن شارفت بلوغ النشوة لتفقدها مجدداً! أخيراً عندما أنهكت بما يكفي لتصرخ، وصل ترومان إلى النشوة وغط بسرعة في النوم. تمتم عندما أدار لها ظهره بأنها مثيرة جداً. عندها فقط تذكرت أنه لم يكن يرتدي أي واقٍ ذكري - الوسيلة الوحيدة التي تعرفها لمنع الحمل

وعندما رفع ساقه عنها (غفا وقد ثبت باطن قدمه بكاحلها) هرعت إلى الحمام وصفعت جسدها على الحرارة. تمنت لو أن بحوزتها دش مهبلي. عوضاً عن ذلك، أخذت كأساً من الماء الساخن وغسلت فرجها ببعض الماء أثناء استلقائها في حوض الاستحمام. كانت قد اتخذت قراراً قبل المجيء إلى «أتلانتا» بعدم ممارسة الجنس. وعندما عادت إلى غرفة الجلوس، كان ترومان قد رحل.

عادت إلى آخر طالبة من طالبات البرنامج، الفتاة التي راقبتها، [illegible] ولهذا السبب [illegible]، إلى جانب أسباب عديدة أخرى، لم يعرف أحد بحملها [illegible] في الحرم الجامعي، وهي في طريقها لإجراء الإجهاض، كانت [illegible] الحمراء. بدا كلاهما [illegible] بالنسبة إليها في ذلك اليوم لاحقاً عندما مزق الطبيب جسدها دون

إعطائه أي مخدر (وبينما يلقنها المواعظ حول ضرورة التحلي بأخلاق حميدة) ورأت نجوم الظهر من الألم، كان بوسعها رؤيتهما يضحكان معاً، من دون اكتراث. لم يكن هذا لأنها ترغب به، فهي لم تعد كذلك. ما أغاظها أنها ذهبت لتحمل كل هذا الألم، وهو غافل تماماً عما يحدث لها. كما اشمأزت من خصوبة جسدها الذي يحبل بمجرد ممارسة الحب وبسهولة أكبر من أي امرأة سمعت عنها في حياتها. بدا من المجحف وعلى نحو مضاعف أنه بعد كل «تجربتها» الجنسية وإنجاب طفل وإجراء عملية إجهاض، لم تصل مرة واحدة إلى النشوة الكاملة.

كان طبيبها يعمل في «جامعة ساكسون»، ولكنه يعمل الآن في عيادته الخاصة. قال بعصبية: «يمكنني ربط قناة فالوب إن سمحت لي بإجراء هذه العملية الخارجة عن روتين عملي الأساسي». ارتاح مرفقه بتثاقل على سرّتها وسرى ألم شديد من رحمها ووصل إلى أصابع قدميها. شعرت بأنها بالتأكيد لن تمشي مجدداً. سفرت نظرها عليه إلى أن غطت عينيها غشاوة حجبت عنها رؤية وجهه القاسي بوضوح. «حرقهم من الجذور هو كل ما يهمني». غادرت مكتبه بساقين مفتوحتين على اتساعهما والدماء تملأ فوطة «الكوتيكس» الصحية ، فيما رغمتها التشنجات على الانحناء أكثر فأكثر، وكانت تبكي لأسباب أخرى

لم يعرف برومان قط. فكرت في إخباره، ولكن عندما أخذت بعين الاعتبار أنه قد يكون وقحاً ويسمح لنفسه بالإشفاق عليها، أدركت أنها تفضل أن تقطع لسانها نصفين على إعلامه. بعد أن غادرت طالبات البرنامج، اقترب منها ذات يوم بعد انتهاء إحدى حصصها الدراسية

قال وهو يثبت ناظريه ويحدق بها كما لو أنه يرى شيئاً ما بوضوح لكن بجهد عارم. «تعرفين، لم أعرف ما خطبي. من الواضح أن صفة المراس كشغف [illegible] لا أحد سبباً لدفعنا إلى الانفصال».

قلت وكأنها تخاطب نفسها أكثر مما تخاطبه: «هل تمزح؟» لم تشعر بأي أحاسيس نحوه وبث هذا شعوراً بالارتياح في داخلها. تساءلت عن السبب أو بالأحرى عن السبيل الذي جعل مصطلح الثعلب الحجري سائداً جداً. لم يكلف أحد نفسه حتماً بتحليله أثناء نطقه. كانت تحمل في ذهنها ثعلباً حجرياً كان ثقيلاً ورمادياً ولم يكن بوسعه التحرك.

قال: «لا تكوني هكذا»، محاولاً منعها من متابعة سيرها ووقف ينظر في عينيها. «أعتقد أنني مغرم بك أيتها المرأة الأفريقية. لطالما كنت مغرماً بك، ومنذ البداية».

ضحكت. بدا الأمر عادلاً فحسب، وكان عقلها يعمل على نحو مثالي برغم كل شيء. «هل تمزح معي مجدداً؟».

«يمكن لنا أن نكون سعداء معاً. أعرف أن بوسعنا ذلك. يمكن لي أن أجعلك تصلين إلى النشوة. كنت على وشك فعل ذلك في آخر مرة. أليس كذلك؟» نظر إليها، منتظراً أن تتلعثم أو تحمر وجنتاها. «ظننت طوال الوقت أنك لا تحبين ممارسة الحب، لكنك تحبين. أليس كذلك؟ على أي حال، جسدك جميل. دافئ جداً، لونه برونزي جميل.. ».

ابتعدت عنه، وهي تشعر بأنه من العار عليه ما يفعله، وأثار ما كشفه عتابها.

«لقد انقضى الأمر. لنبق على حالنا كما نحن عليه الآن»

لكنه نظر إليها بعينين تحملان اكتشافاً جديداً.

همس مبتعداً: «أنت جميلة». ثم قال على عجل: «لتكوني أم أطفالي السود لحملي»

رفعت حقيبة كتفها الحمراء وبدأت بضربه. ضربته ثلاث مرات [illegible] ما الذي حدث. ثم ضربته مجدداً على [illegible] وخرج [illegible] من أحد [illegible] الدماء ووصلت إلى قميصه [illegible] إلى الدماء [illegible] ظهرها وتركته [illegible]

الطلاب الاخرين الدين تجمهروا حوله.

الحلم المتكرر

حلمت بأنها شخصية في رواية وأن وجودها شكّل معضلة مستعصية، لا يمكن حلّها سوى بموتها في النهاية.

حلمت بأنها شخصية في رواية وأن وجودها شكّل معضلة مستعصية، لا يمكن حلّها سوى بموتها في النهاية.

حلمت بأنها شخصية في رواية وأن وجودها شكّل معضلة مستعصية، لا يمكن حلّها سوى بموتها في النهاية.

رغم تخليها عن قراءة الروايات التي تشجع على مثل هذا الحل- وتقريباً كل الروايات تفعل ذلك- فإن الحلم ظلّ يراودها.

شعرت كأن انهياراً أرضياً طفيفاً بدأ بالحدوث خلف حاجبيها، كما لو أن الأشياء الموجودة هناك شرعت في الانهيار. كان شعوراً عضوياً ولم تلق له بالاً. اقتصر كل ما فعلته على عيش حياتها من دون حساب لأي عواقب. قصدت بمفردها بلدات صغيرة لا ترحب بخطى أسود على الأرصفة بعد حلول الظلام، وكانت تقف منتظرة، تراقب الشمس وهي تغيب. مشت لأميال وهي تجوب شوارع «أتلانتا» جيئة وذهاباً إلى أن يهدها التعب، من دون أن تنتبه ولو لمرة واحدة لوجود السيارات. بدأت بنسيان أن تأكل

في اليوم الذي سبق تخرجها من «سكسون»، لاحظت فجأة عدم تطرق أي رف زجاجي نظيف موجود في غرفة الطعام إلى زجاج مغمور بالضوء الأزرق، وحين رفعت إحدى يديها ووضعتها أمام وجهها، بدت يدها زرقاء أيضاً، كما لو أنها مست البحر. وعلى الرغم من أن مارينور انتقلت للعيش معها، إلا أنها لم تأت على ذكر السحر الأزرق أمامها، ودأبتا على الجلوس وتناول الأطايب التي كان يعطيها إياها الدكتور ريموندس

وهما تقرآن عن الاشتراكية.

عشت الفتاتان ودرستا بما يكفي لمعرفة أنهما تمقتان الرأسمالية؛ وأدركتا بأنهما أبلتا بلاءً حسناً في امريكا لارتياحهما مباشرة من أبويهما وأميهما. تركز الاختلاف بينهما على الاتي. لم تكن ان- ماريون تعرف إن كانت ستحقق أي نجاح لو كانت رأسمالية. بينما لم تعتقد مريديان أن بوسعها التمتع بامتلاك أشياء يتعذر على الآخرين امتلاكها. أرادت أن- ماريون أن يحظى السود بالفرصة نفسها ليجنوا قدر المال نفسه الذي يجنيه أثرى أثرياء البيض. لكن مريديان تطلعت إلى دمار طبقة الأثرياء واجتثاث جميع الاحتكارات الاقتصادية الشخصية. ارتكزت نظريتها الأساسية على فكرة عدم السماح لأحد بامتلاك أراضٍ اكثر من تلك التي يستطيع العمل فيها بيده في اليوم الواحد. فيما اعتقدت أن- ماريون أن هذا طريف. قالت إنه عندما يمكن للسود امتلاك الشطئ، أرغب بامتلاك أميال وأميال منه، ولا أرغب مطلقاً برؤية وجه لم يدع للسير على رمالي. ذكرتها مريديان بإعجابها المزعوم بالنظريات الاشتراكية والشيوعية. أجابت أن- ماريون نعم، أنا من أشد المعجبات بتلك النظريات، ولكن نظراً إلى أنني لم أحظ بفرصة التمتع بعلاقة عابرة مع رأسمالي حتى الآن، يتوجب على تطبيق هذه النظريات الانتظار قليلاً.

لكن مريديان كانت تقول إن هذا ربما ما قاله هنري فورد بالحرف؛ قالت ان- ماريون أخبري هنري أنني أتفق معه.

كان الضحك يتخلل تبادل الآراء هذا محاولتين التظاهر بأنهما لم تكونا جديتين.

كانت ن- ماريون تقول وهي تقضم قطعة حلوى تباً للديمقراطية . للعلم الحر ليصاجع الجمهوريون والديمقراطيون بالهيئة التي تعرفهم فيها حد ب عضهم بعض

كانت مريديان تضحك ملء شدقيها، الى ان تقع يدها من الضرب على سريرها

ولكن ذات يوم تحول الأزرق إلى أسود وفقدت بصرها مؤقتاً لبضعة أيام. حتى ذلك الحين لم تكن قد فكرت من قبل باستشارة طبيب، وذلك لسبب يتيم هو عدم امتلاكها للمال. وسبب آخر، أنها إن ذهبت إلى طبيب الحرم الجامعي، فسيطالبها بدفع أتعابه لقاء إجرائه لها عملية ربط قناة فالوب، ومع ذلك فإنها لم تتفاجأ عندما أفاقت من غيبوبة طويلة بعد عدة أيام عقب عودة بصره ووجدته واقفاً إلى جوارها بدا وجوده ملائماً

من دون الانتظار لسماع أعراض مرضها، كان قد رفعها على سرير المحص الطبي، متبعاً سلوكاً لطيفاً إلى أبعد حدّ أمام الممرضات، وأجرى فحصاً شاملاً ومؤلماً لحوضها، وتحسس نهديها على نحوٍ روتيني كامل، وتساءلت إذا ما كان قد سبق لها وضاجعت شباناً، وسبب قيامها بذلك. ألم تكن تعرف أن الشبان في هذه الأيام سيئون ويمكن أن يوقعوها في المشاكل؟

ارتأى الطبيب أنه من الأفضل أن تزوره في مكتبه خارج الحرم لإجراء المزيد من الفحوص، فهو يمتلك هناك، حسبما قال، أجهزة أكثر دقة تتيح فحصها على نحوٍ أفضل

عادت إلى شقتها أكثر إعياءً مما كانت عليه عندما غادرتها. وبعد يومين ويا للسعادة، لم تعد تفقد الوعي واختفى السحر الأزرق- الأسود. ثم اكتشفت- لدى محاولتها النهوض من السرير- أن ساقيها توقفتا عن العمل. وعلى ضوء اختبارها الشلل قبل ذلك، فقد أقلقها الأمر على نحوٍ أقل من فقدانها للبصر. ومع مرور الأيام، حاولت تناول بضع لقيمات من الأطباق التي حضرتها الممرضون، واكتشفت أنها تشعر بالشبع أكثر وأكثر، دون أي شهية، وبدأت وبي الدهشة والمفاجأة، تتذوق طعم النشوة

كانت حياة وهي مستلقية على سريرها، غير جائعة أو بردانة أو قلقة (لأنها اكتشفت أن الجزء القلق من دماغها كان هو الانهيار الأرضي الواقع خلف حاجبيها وأنه قد انهار بالفعل وتوقف هذا الجزء عن العمل جراء ذلك). أحست كما لو أن هناك شيئاً ما دافئاً وقوياً يحميها

وأنها كانت جزءاً محبباً من الكون؛ وأنها كانت صادقة كصدق الصخور، ونقية نقاء أصفى اللآلئ.

وعندما جلست آن- ماريون إلى جانبها على السرير توبخها لامتناعها عن تناول الطعام، دُهشت لعجز آن- ماريون عن ملاحظة مدى سعادتها ورضاها.

ذُعرت آن- ماريون ودقت ناقوس الخطر. كانت مريديان تذوي أمام ناظريها. ورغم ذلك فإن فكرة موت مريديان وهي تصوب نحو سقف الغرفة الأسود ابتسامة جذلة بدت منافية للعقل، ولم تحرك ساكناً. ولكن ذات يوم عندما جلست في سريرها المقابل لسرير مريديان، تقرأ كتاباً عن الأيديولوجية الماركسية التي اشتملت على «المانيفستو الشيوعي»، الذي اعتبرته بحق تحفة فنية مثيرة، وقع نظرها على رأس مريديان وأصيبت بصدمة. بدا رأسها كله محاطاً بضوء خافت، كما لو أنه وأطراف شعرها، محوطان بالضوء والشعاع. وخز المشهد مكاناً لاواعياً في ذاكرة آن- ماريون وأخذها إلى مرحلة ما بعد تعميدها.

قلت «بيأ». وضربت بقدمها على الأرض، منزعجة من تفكيرها بمريديان من منظور ديني.

سألت مريديان وقد علت وجهها نظرة حالمة «ما بك؟» حركت رأسها قليلاً وتلاشى الضوء الخافت المثير.

حضنت آن- ماريون كتابها كما لو أنه عاشق سيغيب في رحلة طويلة. ثم قالت «لقد ترعرعنا على نحوٍ خاطئ! هنا مكمن الخطأ». ما قصدته أنها لم تعد تؤمن بالله ولم تروق لها التفكير بيسوع (الذي ما تزال تكن له مشاعر إعجاب مرير وقسري).

سألت الآنسة وينتر «منذ متى تلازم الفراش؟»

قالت آن- ماريون: «قرابة الشهر».

قالت الآنسة ونتر ببشرتها الصفراء وعينيها السوداويين المتفحصتين وشعرها المستعار الأزرق المنمق: «كان يجب إحضارها إليّ في وقت أبكر من الآن» كانت الآنسة ونتر عازفة الأرغن في المدرسة، معبودة أيضاً في «جامعة ساكسون»، فهي واحدة من المعلمات السود الثلاث في الجامعة. المعلمتان الأخريان تعلمان مادتي التربية الرياضية واللغة الفرنسية، بينما تعزف هي التراتيل الإنجليزية والألمانية القديمة التي يتطلبها البرنامج كل صباح، وكانت الموسيقا تصدح وتحلق كحال الأرواح الصاعدة نحو السقف المقنطر للكنيسة. ومع ذلك كانت خلال درس الموسيقا تتعمد التمرد ضد تقاليد «ساكسون» التي تحظر تعليم موسيقا الجاز التي تعلمت في مكان ما من أوروبا أن تلفظها «جاص»، والموسيقا الروحية والبلوز التي كانت تلفظها «بلبوز». وفي كل عام يسود اعتقاد بأنها لن تعود لتعلم في «ساكسون» في السنة التالية، إلا أنها صمدت. وعلى ضوء تحفظها وهيئتها الأنيقة التي بدت عليها (لم ترتدِ قط ملابس غير متناسقة)، كان يتردد صدى صراعها مع رئيسة الجامعة وعميدة الكلية في كافة أرجاء الحرم الجامعي

تنحدر الآنسة ونتر من بلدة مريديان ذاتها وعرفت أفراد عائلتها طوال حياتها كونها خريجة «ساكسون»، وعندما عرفت بقبول مريديان فيها، كانت مشاعرها الأولى والتي كانت بدائية. استمتعت بكونها الشخص الوحيد من البلدة الذي ارتاد مثل هذه الجامعة؛ لم تشأ مشاركة هذا التميز مع أحد. ومع وصول مريديان، اجتثت بنجاح هذا الشعور من داخلها، مع أنها لم ترد حتى على التحية الخجولة التي ألقتها الفتاة في أول يوم تعلمها فيه.

حضرت ذات يوم مسابقة خطابة في مدرستها الثانوية القديمة، حيث كانت مريديان تشق طريقها بنجاح نحو التميز. كانت مريديان تلقي خطاباً تشيد فيه بالدستور وتثني على أفضلية الحياة على الطريقة الأمريكية. لم يلقِ الجمهور بالاً لما كانت تقوله، ولم

يصدق طبعاً كلمة واحدة منه، لكنه كان مستغرقاً، يصغي إليها وهي تتحدث بشغف فيما فاضت عيناها بمسحه من البسالة الحربية. ثم وفي منتصف الخطاب، بدا أن مريديان نسيت ما عليها قوله، ترنحت وصمتت على المنصة. حثها الجمهور على المواصلة لكنها لم تتابع. غطت وجهها بيديها وتعين عليها الاستعانة بشخص ما لتترجل عن المنصة. خرجت والدة مريديان إلى الرواق حيث كانت مريديان وسمعت الآنسة ونتر حديثهما. حاولت مريديان أن تشرح لوالدتها أنها سمعت للمرة الأولى نفسها وهي تتحدث، وعرفت أنها لا تصدق ما تقول، وقد شتت تفكيرها هذا الاكتشاف ما حال دون إكمالها للخطاب. لم تكن والدتها- التي لم تصغِ لهذا الشرح على الإطلاق، أو لم تحاول على الأقل أن تفهمه- لتقول شيئاً آخر: ذكرت مريديان بأنها تضع ثقتها بالله حين يتعثر معها أمر ما. ترفع رأسها أعلى قليلاً ، وتحدق بعينيها للأسفل لتشاهد ما يمر في طريقها، ولا تنظر مطلقاً إلى الوراء، وهكذا دواليك.

كانت مريديان جالسة وقد احمرت عيناها من البكاء، تنظر للأعلى نحو والدتها بيأس. أما أمها وقد وقفت فوقها، فقد بدت ضخمة، عملاقة، سيدة بإمكانها الوثوق بالله، امسكت رأسه، ولم تنظر إلى الوراء قط، اجتازت كل المحن، سواء صدقت الأمر أم لم تصدقه. فيما بدت مريديان على المقلب الآخر أصغر مما كانت عليه بالفعل وبدا أنها تود لو تذوب في مقعدها. احنت ظهرها إلى الأمام كما لو انها على وشك التقلص لتغدو كرة أو لتمحى من الوجود.

سحبت الآنسة ونتر ثنية كم معطفها الرمادي المصنوع من فراء الميت، ووضعت يدها المعطرة على كتفي مريديان. أخبرتها ألا تكترث لأمر الخطاب. قالت لها: «إنه الخطاب نفسه الذي أرغموني على تعلمه عندما كنت أدرس هنا، ولم يرتفع مستوى صدقه عما كان عليه حينها» لم تكن قد باحت بشيء من هذا القبيل لأي شخص من قبل، وتفاجأت

بالشعور [illegible]

ورقه [illegible]

معظم من [illegible]

[illegible]

المجمهرة

[illegible]

وجدة حديه

وهذا هو تاريخ والدة مريدان كما بلغها

[illegible]

لم يكن وجودهما حلال فصل الصيف صعباً جداً تعلّما قطف التوت لبلاً بعد العمل النهاري في الحقول، وجمعا سلطة السمك النيئ، وفي الخريف اقتاتا على الجوز الذي وجداه في الغابة. عملا على تدخين السمك الذي اصطاداه من الجداول ومن اللعبة الجامحه التي علمتها لهما لنصب الأفخاخ. أفلحا في العيش على هده الشكلة إلى أن أصبحا مراهقين. ثم قضت والدتهما نحبها، كنتيجة لسنوات طويلة من التجويع البطيء، بيع الطفلان في يوم دفن والدتهما. اشتهرت جدة جدة السيدة هيل برسومها التزيينية للحظائر، وأدرّت المال على الرجل الذي ملكها وسمح لها بالاحتفاظ ببعضه لنفسها، ونجحت من خلال هدا المال في شراء حريتها، ليس هذا فحسب، وإنما حرية زوجه واطفالها أيضاً في طفولة جدة مريديان، كأن لا يزال هناك حظائر متفرقة في أرجاء الولاية تتألق بشخوص رسمتها والدتها. في مركز كل شجرة أو حيوان أو طائر رسمته، هنك شيء ما مرسوم هناك بطريقة ما، مما شكل جزءاً من النموذج المنكرر، وهو وجه صغير مشوّه، سواء وجه رجل أو امرأة أو طفل، ولم يستطع أحد التنبؤ بأن هذا سيصبح علامتها المسجلة

تزوجت والدة السيدة هيل من رجل يتمتع بالعديد من الخصال الحميدة المثيرة للإعجاب. كان رجلاً يبرّ بوعده، يدير مزرعة مزدهرة ولديه وجه وسيم، لكن لم تكن لديه أدنى رغبة في تربية الأطفال- رغم استمتاعه بممارسة الحب مع أي سيدة حسنة المظهر يلتقيها ولديها رغبة بذلك- وكان يضرب زوجته وأولاده بسعادة تفوق سعادته بضرب بغاله

أمضت السيدة هيل الجزء الأول من حياتها وهي تهرول مبتعدة عن طريق والدها، لاحقاً عندما أصبحت مراهقة، تعلّمت أيضاً تجنب طريق الرجال البيض لأنها كانت جميلة ومسلمة وسوداء. كانت حياتها، كما أخبرت مريديان، حياة شخص يهرول هارباً طوال الوقت. والشيء الوحيد الذي أبقاها على قيد الحياة هو تصميمها على أن تصبح معلمة مدرسة

كانت قصة سعيها وراء التعليم مثيرة للشفقة.

وقفت أولاً في وجه والدها، الذي ارتأى أنه لا ضرورة لذهابها إلى المدرسة لأنها إن تعلمت فقط طهو الكرنب وإعداد البسكويت وقلي الباميا، قد يرغب بها بعض الرجال من أصحاب الأرواح البائسة، وثانياً تعين عليها أن تقرر قبول تضحية والدتها بنفسها، والدتها التي أحبتها حتى العبادة، فوالدتها حينها كانت حاملاً بولدها الثاني عشر، وقد غزا الشيب شعرها، فأجرت صفقة مع والدها ما أتاح لها الذهاب إلى المدرسة. إنه اتفاق رديء: تكلف المدرسة أحد عشر دولاراً سنوياً، ويتوجب على والدتها دفع كل قرش من التكاليف. أبت أن تشكو وتناقش حتى المشاق التي ستترتب على الاتفاق، خرجت والدتها لتغسل ثياب الآخرين، وتذكرت والدة مريديان كيف كانت تمشي بتثاقل- بعد إنهاء الغسيل والعمل في الحقول- وقد تأبطت لوح الغسيل تحت ذراعها. كان لدى السيدة هيل فقط سروالان نسائيان قطنيان، ترتدي أحدهما وتغسل الآخر، ترتدي وتغسل، ولديها أيضاً فستان واحد فحسب، وتتبادل هي وشقيقتها الفستانين كل يوم لتنعما على الأقل بهذا القدر الضئيل من التنوع في ملابسهما. كانتا تخرجان حافيتي القدمين معظم الأوقات، ورغم كل ذلك، أنهت والدة مريديان المدرسة بأعجوبة، وفوق ذلك ساعدت أربعاً من شقيقاتها وأشقائها على أن يحذوا حذوها، وأصبحت معلمة مدرسة، تجني أربعين دولاراً في الشهر، على مدار أربعة أشهر من السنة، وكان طلابها يعملون في حقول القطن بقية الوقت. اشترت لنفسها معطفاً وزوجين جديدين من الأحذية عندما قبضت راتبها الأول. وكان لها أيضاً بعد وقت قصير شرف دفع ثمن كفن والدتها الزهري.

انتحبت مريديان عندما تحدثت والدتها عن طفولتها، وتعلقت بيديها، متمنية من صميم قلبها لو أنها لم تكن ابنة هذه السيدة المسترقة سلفاً. كل المحرقة التي تلبست صوتها عندما كانت والدتها تقول «لم أسرق يوماً، كنت نظيفة اليد دائماً، لم أخطئ في حق أحد

قط، لم اكن يوماً طالحة، وهبت ثقتي ببساطة لله»- كل هذه المجرفة مرّت مرور الكرام بالنسبة إلى مريديان ولم تلحظها، وبدا لها أن إرثها من جلد والدتها ومعرفتها المعصومة لطريق الصلاح وسعيها لسلكه بشتى الوسائل، إرث لا يمكنها مضاهاته يوماً. لم يخطر على بالها قط ان نقاء حياه والدتها وجدتها المفرط كان بداعي الضرورة. لم تعيشا في عصر كانت فيه الخيارات متاحة.

لم تستطع البوح بأيٍ من هذه الأفكار أمام الآنسة ونتر. اكتفت بالابتسام لها من عليائها الساكن الناجم عن مرضها الذي استطاعت الوصول إليه بحبور. رأت الان ومجدداً سحباً تعبر رأس الآنسة ونتر وسلّت نفسها في التقاط وجوه مألوفة رسمتها الغيوم. عندما غطت في النوم، حلمت بأنها كانت على متن سفينة مع والدتها، وكانت الأخيرة تحملها فوق الدرابزين لإلقائها في البحر. كان الخطر يحيق بها من كل حدب وصوب ورفضت والدتها إطلاق سراحها.

همست وهي تلعق الملح العالق على ذراعي والدتها السوداوين: «ماما، أنا أحبك. اطلقي سراحي».

عى نحوٍ غريزي، كما لو أن مريديان كانت ابنتها التي ولدتها، أجابت الآنسة ونتر، وهي تقترب من أذنها المرتاحة على الوسادة «أنا اسامحك»

اجهزت مريديان صباح اليوم التالي على كمل فطورها، وإن لم يمكث طويلا في معدتها. طلبت للمرة الأولى إعطاءها مرآة وحاولت أن تجلس في السرير لتجرب قواها على النهوض، وطواها النوم. راقبت آن- ماريون الشمس وهي تتسلق مجدداً لتنير أطراف شعرها، وأيقنت عجزها عن تحمل مشاقّ صداقة تستدعي منها كل هذا السهر والعناية والبهطة. وبسبب نوايا مريديان الحسنة، قد لا تكون جاهزة أبدا للمستقبل، وستدفع ثمناً مؤلماً جداً لذلك. عجزت آن- ماريون عن مواصلة الاعتناء بشخص لا تستطيع إنقاذه. ولم تستطع

أيضاً إنهاء صداقة مع أحدهم من دون مهاجمته.

ذات صباح وبينما كانت مريديان واقفة أمام النافذة، غارقة في أفكارها، تبدو أقرب إلى الجميلة، ونحيلة على نحو مثير للشفقة، أقدمت آن- ماريون على خطوة حلمت دائماً بالقيام بها: كانت مرادفاً للركلة. شرعت في إطلاق النكات لدفع مريديان إلى الضحك- إذ لم تستطع هجرها وهي تبدو على هذه الحال- وعندما نجحت في نيل مسعاها، في اللحظة التي تلاشت فيها كآبة مريديان السحرية المثيرة للاهتمام، قالت لها، بوجه صارم جداً: «مريديان، لا أستطيع تحمل أعباء محنتك. كما لا أحتمل فكرة المعاناة بحد ذاتها، لقد أصبحت من الماضي».

لاحقاً ورغم لقائهما في نيويورك والسكن معاً في غرفة واحدة، فيما بدت مريديان ناسية لهذه الجملة الوداعية، واصلت آن- مريديان التفكير بأن تلك كانت عبارتها الأخيرة.

بعد عودة مريديان إلى الجنوب وضبط آن- ماريون لنفسها وهي تكتب الرسائل لها- مستجدية شهراً بعد آخر اكتشاف اسم البلدة التي تعيش فيها الآن والعنوان الذي يتعين عليها بعث الرسائل إليه- لدى ضبطها لنفسها تفعل هذا، لم يكن هناك شخص أكثر استغراباً وارتباكاً منه، وجلست تكتب كل رسالة كما لو أن حملاً ثقيلاً عَلَق في ركبتيها، مجبراً إياها على البقاء منكبة على طاولتها، حيث كتبت تحت وطأة ضراوة شرسة بدافع من الشعور بالذنب والإنكار والحنق

ترومان هيلد

النخب الأخير

أشرب نخب بيتنا المدمَّر،

نخب بؤس حياتي،

نخب وحدتنا معاً؛

ولك أنت أرفع كأسي عالياً.

لاشرب نخب الشفاه الكاذبة التي

طعنتنا في الظهر، للعيون التي لا تعرف الرحمة،

الباردة كالموت،

ونخب الحقيقة القاسية:

حقيقة أن العالم وحشي وقاسٍ،

وأن الله حقيقةً لم يخلّصنا.

ترومان ولين: الزمن في الجنوب

لين: جالسة على درج شرفة المنزل الخشبي المقصوف وهناك أطفال سود في كل مكان حولها. بدو جميعاً عن بعد مثل زهرة عملاقة ذات بتلات بشرية دائرية. لين هي مركز الزهرة ترومان اقرب إليهم ولاحظ أن الأطفال يتناوبون على تمشيط شعرها بدا لهم شعرها جميلاً لأنه سهل التسريح، يلمع وقد لملمته ورفعته أيد سود وبربرية كما لو كان قطاراً. ربما الأطفال يجدلون شعر لين كضفائر مهيئينها للزواج. هم لا يرونه. انقط صورة بآلة التصوير وأظرها، لكن شيئاً ما استوقفه قبل أن يضغط على زر آلة التصوير. ما عاد يعرف ما الذي استوقفه حينها.

إنه العرق، شعور يائس راوده حيال الأضداد، وما الذي يعقلانه ببعضهما بعضاً. ترنح فجأة وركع على ركبته ليلتقط صورة للسقف المدمر ولوح الصفيح الصدئ الموجود على الخشب والذي شكّل أحد جدران منزل قريب متهالك.

ترومان ولين كان لديهما دراجة نارية مُستعارة. يجوبان بها الطرق المرعبة في المساءات المعتمة كان الغبار يغطي وجهيهما ويشكّل طبقة من المسحوق والطين كانت ترتدي خوذة، وقد جمعت شعرها الطويل خلف رأسها، فيما أفلتت خصلات من شعرها لتغطي عينيها، وتتطاير على فمها. كانت تمسك بخاصرته وتشعر بأضلاعه تكافح لتصمد في وجه الريح وبدا جسده وقد أحاطت به سترة منتفخة وكأنه جسد رجل سمين ونحيل في الوقت عينه. كان ركوب الدراجة النارية خطيراً بسبب بياض وجهها، لكن عند الغسق، يمران محتميين بالرؤية غير الواضحة. كان بالإمكان تمييزهما على نحو أوضح في الليل.

يمثل السود الجنوبيون بالنسبة إلى لين الفن وقد استجدت الصمت لتفكيرها بهذه الطريقة وحولت شواري، إلّا أن ذلك لم يحدِ نفعاً بالنسبة إلى عينيها، المعتادتين على

ضواحي الشمال حيث يبدو كل منزل معقماً ومماثلاً للمنازل الأخرى حتى قبل استكمال بنائه، حيث للازهار هيئة واحدة وأسماؤها مدونة سلفاً في القواميس، تعجز الجبات عن إعطاء عبير فواح أو شكل مفاجئ، وعادة ما يُدمغ الناس بأحتام ماصبهم؛ بالنسبة إليه، هي المسترخية على كرسي كبير مصنوع من قشر البلوط الأبيض، تحت لحاف أطلق عليه اسم «مشية الديك الرومي» من أتدبولسا في جورجيا، في كوخ رراعي حشبي صغير لم يعرف الطلاء يوماً، جسد لها الجنوب- والسود الذين يعيشون هناك- الفن الأغاني والرقصات والطعام والكلام. ويحها! كم كانت رومانسية، غارقة في حب الهواء الذي تتنفسه، ونبتة زهرة العسل التي تنمو خلف الباب تماماً

حذرت نفسها مراراً وتكراراً من أنها «ستدفع ثمن هذا. ربما التفكير بالناس على أنهم فن يعتبر خطيئة» ومع هذا كانت تقف جامدة أمام مشهد امرأة سوداء بدينة تدندن لنفسها مرتدية فستاناً أصفر رثاً، وصوتها المتدفق الذي ينضح بالحنين والتوق- ليسامحها الله، والسود- يجسد المعجزة البكّاءة ذاتها التي لطالما مثلها الفن بالنسبة إليها.

كن ترومان قد طمح كيله من الحركة والجنوب. ولكن الأمر مغاير بالنسبة الى ليں كان «الميسيسيبي»- عقب احتفاء ثلاثة من نشطاء الحقوق المدنية في العام 1964- بدأ يغويها عى مدار سنتين، لم تفكر بأي شيء آخر: إن كان «الميسيسيبي» اسوا مكان في أمريكا بالنسبة إلى السود، فإن هذا لا بد يعزى لسبب ما، فكرت أن الفن الذي شكل حياتهم سيشهد ازدهاراً أكبر هناك. أما ترومان الذي تخلّى عن طموحه السابق بأن نعيش على نحو دائم في فرنسا، فقد اعتبر عى مضض أن «الميسيسيبي» مجرد بديل وهكذا بعد ما يزيد عن سنتين بقليل، وبعيد فساد الجثث وتعذر التعرف عليها، سوى من كان سيشرف عثر على جثتي رجلين بيضيين وآخر اسود من عوائل تشوني وجودمن وسويرنر محبة في العادات البانية بمقاطعة نيشوبا في الميسيسبي. حينها، لم تلحظ العاثر، وصل لين

وترومان.

عن العاهرات والزوجات

[illegible]

[illegible]

[illegible] حركة داخل الغرفة [illegible] في إحدى زوايا الغرفة

[illegible] لا تذكر اسم بنت القاهرة أمامي [illegible]

«ماذا قلت؟»

[illegible] لا تذكر اسم بنت القاهرة أمامي لا تذكر اسم بنت القاهرة [illegible]»

[illegible] «مهلاً [illegible]

[illegible]

[illegible] الجزء جداً الآن»

[illegible]

أفعله على التفكير بما فعله هؤلاء المعتوهون بذراعي ابنة القحبة»

«هل تريد مني أن أتحرى عن الأمر؟».

«كلا، لا أعتقد ذلك»

لكونها بيضاء البشرة، كانت لين مذنبة بتهمة البياض. لم يتمكن من إيجاد طريقة لتفسير ذلك، فما من ضرورة، نقطة انتهى. ثم كان السؤال: هل يمكن للمرء أن يكون مذنباً بتهمة لون بشرته؟ بالطبع كان السود لسنوات «مذنبين» لكونهم سود البشرة. كانت العبودية هي القصاص الذي دفعوه لقاء «جريمتهم». وحتى لو تخلى عن هذا البحث حول ذنب لين، لأن البحث يمضي منطقياً إلى العنصرية، فقد أرغم على البحث في مستويات أخرى في السراء والضراء، وبصرف النظر عن دلالة هذا على شخصيته، لم يستطع - بعد كلمات صديقه- منع نفسه من التفكير بأن لين كانت في الحقيقة، مدانة. بيت القصيد يكمن في معرفة كيف ذلك.

قال تومي أودز: «أنا آسف يا صاح. ما كان علي أن أتحدث عن فتاتك المسنة بهذه الطريقة».

تمتم ترومان «لا بأس يا صاح، ما من مشكلة»، بينما واصلت الافكار دورانها في راسه بشكل محموم وبتنس. بدا كأن تومي أودز قد قال كلمات تناسب أفكاراً كان يجبن بكثير من أن يلتفت إليها. ما هي الجوانب الأخرى التي قد تكون لين، زوجته، مدانة فيها؟

«البيض داعرون كما تعرف، هذا كل ما في الأمر. إن لم أكن سابقاً اكرههم استناداً إلى مبدأ ما، فأنا اكرههم الآن لأسباب شخصية وحسية. لقد فكرت مراراً وتكراراً، وما أنا مسلّق هنا وما فكرت فيه هو الآتي: ألا أسمح لأحد بتقديم المظاهرات والمواعظ كبديل عن مطاردة حصى هؤلاء المهرجين».

أكانت لين مدينة لمجرد أنها سيدة بيضاء؟ آه، أجل. هذا هو السبب بالطبع. وتذكر ترومان ذات ليلة عندما ذهب بصحبة تومي أودز وتريلينج ولين إلى مطعم «مونفلاوير» لتناول الشطائر. ما كان عليهم فعل ذلك، طبعاً. لقد حُذِّروا من مغبة ذلك. كانوا على دراية أكبر بحيثيات الأمر. ولكن ثمة لحظات في حياة المرء تعدو فيها المخاطرة بكل شيء هي التأكيد الوحيد على أنه على قيد الحياة. ويمكن إدراج تلك الليلة في خانة هذه اللحظات ما الذي كانوا يحتفلون به. آه صحيح. أصدقاء تومي أودز من الزنوج العاطلين عن العمل والذين يقضون جلّ وقتهم واقفين على ناصية الشارع

لأشهر عديدة، داب على تمضية سهرة أيام السبت في قاعة البليارد في «شارع كارفر»، يتبادل أطراف الحديث ويضرب الكرات، ويلعب مع زنوج لا عمل لهم سوى الوقوف على ناصية الشارع. مضى شهر تقريباً قبل أن يفتح فمه لينطق بحرف واحد حول الآثار التحررية للاقتراع. علت الأصوات في بادئ الأمر لإسكاته قائلة: «يا رجل، لا أود سماع هذا الهراء!» و«يا رجل، دعنا نحافظ على نظافة هذه اللعبة!».

لكن الصبر كان إحدى خصال تومي أودز الحسنة. اكتفى بداية بالصمت والتدرب على عضبه، وبعد مرور أيام قليلة، عاود فتح الموضوع مجدداً. ومع نهاية الشهر الأول، أحبه الزنوج الذين كانوا يلعبون معه كثيراً وأحبوا الاستماع إليه. مع مرور ثلاثة أشهر، شكلوا فرقة أطلقوا عليها اسم «آلة اقتراع الزنوج على ناصية الشارع». ومن خلالهم تمكن جمع المسنين والجدات والأجداد العجائز والمحتالين الشبان صعبي المراس و المتعصبين والعاهرات وحتى العجوز الثمل دائماً الذي يدير قاعة البليارد من تسجيل أسمائهم للإدلاء بأصواتهم في الانتخابات المقبلة. وفي ليلة السبت هذه بالتحديد، قرروا الاحتفال في مقهى «مونفلاور» المطعم المغطى بالدهون الذي لا يزال يعلق على بابه عبارة «يسمح بالدخول للبيض فقط»

كان الطعام رديئاً جداً واستعصى عليهم تناوله، لكنهم غادروا المكان بمعنويات عالية، كانت لين تقهقه وهي تتهكم حول شعر النادلة الأشبه بخوذة مصنوعة من ورق القصدير الاصفر ولكن بينما كانوا يمشون في الشارع، تبعتهم سيارة ببطء، إلى أن وصلوا إلى المنعطف المؤدي إلى «شارع كارفر» حيث التقوا ببعض أعضاء فرقة «آلة اقتراع الزنوج على ناصيه الشارع» التي أسسها تومي اودن، ورافقتهم الفرقة إلى بر الأمان أمام قاعة البليرد. بعد تلك الليلة، أصبح هو ولين حذرين من أن يشاهدهما أحد معاً ولكن نظراً إلى أن لين كانت السيدة البيضاء الوحيدة التي يمكن مشاهدتها على نحو منتظم برفقة رجال سود، فقد كان من السهل التعرف عليها، على عكس ما اعتقده.

وبهذ وبالنسبة إلى تلك الليلة، ربما كانت لين مذنبة ولكن لِمَ كانت بصحبتهم؟ هل كانت هي من دعت نفسها بنفسها؟ كلّا. لقد دعاهما تومي أودز إلى حفلته الصغيرة. ووجود لين تسبب بلحاق السيارة بهم، ولهذا السبب فقد كانت مذنبة. مذنبة بلون بشرتها البيضاء، ولعبانه بالموافقة على تلبية الدعوة.

ومع ذلك وقعت لين في غرام تومي أودز، وأعجبت بفرقة «آلة اقتراع الزنوج على ناصية الشارع» وهي من صممت وحاكت تلك الشارات التي كانوا يرتدونها، وكانت مصدر فخر واعتزاز كبيرين لهم.

سألت إحدى العجائز اللواتي كنّ محاطات بالمرافقة كالملكات أثناء سيرهن في الشارع وصولاً إلى المحكمة: ما المقصود بـ «آلة اقتراع الزنوج على ناصية الشارع؟». أجاب المحتالون دون أن يرف لهم جفن: «يعني لسنا صادقين فقط وإنما ملونون أيضاً» بينما قالت المتظاهرات للأحداث العجائز سامحين للكهول بلمس تجاعيدهن «تم ... في الوقت المحدد إلا أننا معصورون» أو يسري فروش السارد بقول مع ضبس للمتعصبين الذين سيعقدون حواجبهم في وجوههم إن قالوا إجابة مختلفة «علامة على

الثالوث المقدس، مع المسيح».

وهكذا كانت لين مدانة بجرمين: الجرم الأول مرافقتهم، والجرم الثاني لكونها موجودة، نقطة انتهى. كانت هذه على الأقل رؤية تومي أودر للأمور ومن كان ليجادله، وهو المدان بعشق العاهرة البيضاء التي تسببت في خسارة صديقه لذراعه؟

لدى تفكيره بهذا الأمر، انتفض من على كرسيه المجاور للسرير كما لو أن صدمة كهربائية أصابته. انزلقت زجاجة النبيذ من بين أصابعه وتهشمت على الأرض.

قال تومي أودر مطلقاً أنيناً: «إياك وأن تكون قد سفحت النبيذ، لقد كنت متحمساً لتذوقه»

قال ترومان: «سأجلب زجاجة أخرى». أحضر مناشف من الحمام ومسح النبيذ المراق. جرح إصبعه بقطعة زجاج وأدرك أنه كان يرتعش. عندما وضع سلة المهملات خارج الغرفة ليأخذها الحارس، ألقى بنظره على تومي أودر، ما يزال الراقد على السرير يشبه صديقه بعض شيء، لكنه عجز عن استشعار المسافة التي تفصلهما عن بعضهما بعضاً. وحين خطا خارجاً من الباب، كانا قد أصبحا مختلفين. كان بوسعه قراءة الرسالة التي ما كان صديقه السابق تومي اودر ليتمكن من صياغتها بالكلمات «تخلص من عاهرتك يا صاح». هذا كل شيء.

التخلص من عاهرة امر بسيط، إذ يمكن الاستغناء عن العاهرات ولكن كيف يمكن التخلص من زوجة؟

قرأ في إحدى المجلات البارحة فقط ان لاموميا كاتريم [illegible] قد تخلص من عاهرته صحيح انها زوجته، لكن كان ينظر إليها على ما يبدو حتى تحت ذلك القناع بوصفها شيطاناً ومنبوذة. وأعجب انس بلاموميا لحس بصيرته. لكنه لم يكن متيقناً. ربما كل ما

يثبته هذا أن لامومبا شخص متقلب. وأنه تزوج عاهرته أصلاً لأسباب واهية. من المحتمل أنه كان يفكر بالزواج بسيدة سوداء (وقد ورد في المقال أنه كان يفكر بذلك) لأسباب واهية بدورها. فكيف له أن يصرح بكل ثقة أنه سيتزوج بسيدة سوداء في المرة المقبلة في حين لم يبدُ أن هناك سيدة سوداء بعينها في ذهنه؟

لو أن شقيقته بالذات أخبرته أن زواجها المقبل سيكون بلامومبا لكان في جعبته بعض الأجوبة قبل حفل الزفاف. أجوبة من قبيل عدد المرات التي يريد لامومبا منها أن تظهر على التلفاز برفقته مثلاً، أو كم مرة سيستعرضها أمام أصدقائه كدليل يثبت سواد بشرته.

فكر في راندولف كاي(23)، نجم السينما الذي بدوره تخلص من زوجته البيضاء العاهرة، وسط تصفيق السود. ولكن راندولف كاي وزوجته السوداء الجديدة ذات البشرة اللامعة قد انتقلا إلى عالم البيض على نحو كامل، إلى درجة تبجيل القصف الأمريكي على أهداف مدنية في فيتنام. أضحى راندولف كاي الآن في الواقع يصدح بأغاني حبٍّ للرئيس. لكن ربما كان من الغريب أن يكون مثيراً للاستغراب كل هذا القدر. ربما كان جلّ ما يفعله في نهاية المطاف إخفاء عجزه عن التصرف بحسم ووفقاً للنظام العام على غرار ما فعله هذان الرجلان. لا ريب أنهما رجلان عظيمان، أدركا، على عكسه، أن الوقوع في غرام الشخص غير المناسب هو الخطأ. لو استطاع فقط الاقتناع بأنه من الممكن عشق الشخص الخطأ لكان في ديارِه حزاً طليقاً. وعلى غرار ذلك، ما مدى صعوبة أن يكره زوجته. ما كان ليكلف نفسه حتى عناء المحاولة

لكنه فعلها بالطبع.

كان هناك رجل يحتقره اسمه توم جونسون، عاش مع سيدة بيضاء سنوات، من دون أن يعرف معظم الناس هذا. عمد إلى نقلها مراراً وتكراراً من منزله إلى منزل صديقه في الشارع نفسه، وكلما زاره أصدقاء مهمون، لم يكن لأحد أن يجد أثراً لمارغريت، بل إنها

تنتظر في منزل صديقهما. كانت شقراء مكتنزة، ذات صدر عارم وضحكة رنانة. بادر ذات مرة إلى سؤال توم- الذي كان يفكر بالترشح لمنصب سياسي- عن سبب عدم زواجه بها. ضحك توم وقال: «أيها الفتى، يبدو أنك لم تفهم شيئاً بعد. مارغريت شيء هرم عدب. نحن نعيش معاً منذ خمس سنوات. لكنها بيضاء البشرة. أم إنك لم تلاحظ ذلك؟ مد توم يده المكتنزة ليقرّب رأس ترومان من رأسه فيما كانت عيناه ترقصان. (ليست سوى مجرد فرج بالنسبة إلي). ثم قرّب رأس ترومان أكثر وقال بصوت تشوبه غبطة تآمرية- «إنه لذيذ. هل تود تذوقه؟».

«طالما اعتقدت أن-» كان قد بدأ حديثه، لكن توم نهره.

«هذه حرب يا صاح، حرب! كل شيء مباح، من المباح أن تعبث بالرؤوس المعملة!»

ثم بدأ يلتقيهما معاً، ليس علناً وإنما مع مجموعة صغيرة من الرجال، في العرف والحانات السرية. كانت مارغريت تلعب البوكر وقد راقه رؤيتها تفوز. تفمر صارخة بصوتها الذي يشبه صوت فتاة صغيرة، فيما كان ثدياها الكبيران يقفزان ليبرزا من فوق البلورة ذات الفتحة الكبيرة عند العنق، وجميع الرجال يتأملونها بصبرٍ ومتعة، إذ كان فضولهم إزاء جسدها الضخم قد أشبع. بعد أن أخبره توم ما أخبره لم يعد مستغرباً.

مشهد سعادتها نصز بحذ داته، يستمتع الرجال بالتكافل، كاستعدادهم للتواطؤ حول سر كون توم ومارغريت معاً وماذا عن مارغريت؟ صبحات الحبور تلك- ما لشعور الذي انتبها؟ ام ن الاكترات بهدا والسوال عنه قد عدا الان أمراً عير رحولي ولا يمت للسود بصلة؟

لدى بناء مركز المجمع انخرط برسم لوحات جدارية حول الصر ع على طول جدار واحد. الشبان الذين يودون استخدام المركز للرقص ولعب كرة الطاولة والورق وغيرها

كانوا يصنعون الطاولات والكراسي. كانوا خجولين وعذبين، صبية ريفيون ساذجون إلى أبعد حد، خائفون بكل معنى الكلمة من النساء البيض. كان لقاؤهم الأول مع لين طريفاً. لم يرغب احد منهم بأن يراه شخص ما يتحدث معها على انفراد، وحتى كمجموعة، كانوا يتحدثون معها مع المحافظة على مسافة ما تفصلها عنهم كان باستطاعتها، فقط بمجرد الحديث معهم والاقتراب منهم اثناء حديثها، إرغامهم على التراجع لعشرين ياردة. اصبح هذا يشعره الآن بالحري عندما يفكر بتومي أودز.

لم كانوا خائفين منها؟ إنها مجرد امرأة. لكن من الصعب عليهم النظر إليها على هذا النحو. كانت بالنسبة إليهم، ببساطة وتجرد، درباً يقود إلى الهلاك. استشعروا سلطتها عليهم في عظامهم؛ كانت أمهاتهم يخشينها حتى قبل أن يولدوا. وأثناء مراقبته لخوفهم منها، لاحظ شيئاً غريباً. لم يكونوا ينظرون إليها على أنها كائن بشري، وإنما كنوع من الدمى الكبيرة والغامضة. شيء قادم من السينما والتلفاز، من لوحات الإعلانات والإعلانات التجارية الخاصة بالسيارات والصابون. راق لهم شعرها، ليس لأنه كان مرتباً على نحو خاص، بل لأنه طويل. كان الطول بالنسبة إليهم يعني الجمال. حتى إنهم أحبوا ذيول الأحصنة

امام هذا الخوف، استغلت لين سحرها الأخاذ. خبزت لهم البسكويت وسمحت لهم باحتساء النبيذ في منزلها، ولعبت كرة السلة معهم في المركز. كانت تقفز وهي مرتدية سروالها القصير محركة شعرها الطويل ذات اليمين وذات الشمال، ضحكت وتعرقت وصرخت وشتمت أجبرتهم على أن يغرموا بها ولكن في طور تشكل هذه التتمة والإعجاب المتبادل، كانت «حركة الحقوق المدنية» نفسها في طور التغير. لم تعد مرحباً بلين في أي من الاجتماعات. أقصيت عن المظاهرات. لم يعد يسمح لها بكتابة المقالات لنشرها في الصحف. امضت جل وقتها في المركز او في البيت. اما الصبية، المتوحشون لأن من

مكانتهم كما ينبغي للشبان السود فعله، فقد حافظوا على ولائهم لها على نحوٍ غير قابل للتفسير. عمدوا إلى زيارتها، حاملين إليها الأخبار التي ما كان لها أن تعرفها لولاهم. كان ترومان أيضاً يرزح تحت وطأة التوتر الناجم عن خوفه من الطرد من المجموعة، ومع ذلك ظل احد لاعضاء المشاركين في جميع النقاشات، فقد كان مفهوماً أنه لن يبح لزوجته بحرف واحد عمّا يجري.

نيويورك تايمز

قصد مريديان بعد مرور ثلاث سنوات على زواجه بلين. قاد سيارته من «الميسيسيبي» إلى بلدة صغيرة في ألاباما حيث كانت تعيش مريديان آنذاك. كان لا يزال يحوزتها بعض الممتلكات حينها، وتعلم في إحدى مدارس الحرية وتحتفظ بقصائدها عوض حرقها. استجداها، أو حاول استجداءها (لأنها بدت غير مدركة لأركان الاستجداء)، لمنحه فرصة أخرى كانت مغرمة به، افترض متسرعاً- عندما ابتسمت له- ولم يجد أي سبب لإنكارها هذا.

قالت بوهن وهي تهز ببطء كرسيها الأصفر: «كرمى للين وحدها، لم أقو على فعلها. فما الذي تملكه غيرك الآن؟».

قال ساخراً: «كل شيء. فهي ما تزال سيدة أمريكية بيضاء».

سألت مريديان: «هل الأمر بهذه السهولة؟» وتوقفت عن هز كرسيها، وابتعدت عنه متجهة نحو النافذة. كشف الضوء عن نقاط سود صغيرة على شكل بتلات في عينيها البنيتين «لقد كانت كذلك عندما قررت أن تفضلك على كل شيء. أليس هذا صحيحاً؟ أم ماذا؟»

«كيف تستطيعين الانحياز إلى صفها؟».

«صفها؟ أنا واثقة من أنها انحازت له مسبقاً. أحاول معرفة مكاني ضمن هذا كله. أي صف لي؟» لم تكن متشنجة. لم ترتعش أبداً. فكرت حينئذ. «ألا تعتقد أنك مدين بشيء ما إلى كامارا؟» نظرت محدقة مباشرة في عينيه

«دين أكبر لجميع الأطفال السود الذين يرزحون تحت وطأة عنصرية البيض»

«وابنتك واحدة منهم بلا ريب، أليس كذلك؟» أوقفت الكرسي الهزاز وأصاخت السمع.

تابع قائلاً «كما أنني لا أدين للين بالطريقة ذاتها التي أدين بها لك. لاحظت أنني لا أكذب وأقول بأنني لا أحبها على الإطلاق. لقد عنت الكثير بالنسبة إلي. لكنك مختلفة. حبك مختلف-».

«لأنني سوداء؟».

«لأنك أنت هي ما أنت عليه. اللعنة! المرأة التي كان ينبغي أن أتزوجها ولم أفعل!»

تمتمت قائلة: «التي كان ينبغي أن تحبها ولم تفعل».

غاص ترومان في كرسيه محدقاً بها، كما لو أنه يراقب قارب نجاة بعيداً يغرق.

شعر ترومان بأن ذكاء لين يكبله ويضغط عليه. عجزها عن كبح جماح نفسها ومخيلتها وأمنياتها وأحلامها. خطر له أن هذا الافتقار لضبط النفس، الذي نال إعجابه في بادئ الأمر وطالما كان ينعشه، مرده لأنها لم تجد من يمنعها قط عن فعل ذلك. افترضت أن ما من شيء بوسعها اكتشافه قادر على تحطيمها. فتنه حدسها؛ وعلى الرغم من ذلك، لم يكن جاهزا لحبها على مدار فترة طويلة، وإنما لفترة قصيرة فحسب

كم كان مذهلاً في بادئ الأمر معرفة أنها تقرأ كل شيء. أنها تفكر بعمق. أنها تاقت لتعريض جسدها للخطر في سبيل نيل حريته. كم أدفأته مثاليتها. وجذبته إلى العالم، وجعلته منشوقاً لضمها تحت جناحيه، تحت نفسه، ليقيها ويحميها من أوهامها. وحبها للخطر واستجابتها السياسية الساخطة لأي شيء يسبب له المعاناة، كان جزءاً حتمياً من سحرها، وعلى الرغم من ذلك فقد آثر أن يكون هذا السحر جزءاً منها بالكاد يلحظ أو يستدعي أي تعليق. يمر مرور الكرام. أشبه بحديث المرء عن حقيقة أن لينين كان يطلق لحيته. ولكنها كانت تثير ضيقه بأسئلتها المفحمة التي تنشطر وتتشظى بلا توقف وتغرق

حياتهما، مثل مياه نبع تنبثق بالقرب من خزان مياه وتضعضع إسمنت جدار الخزان، كان يفكر بمريديان، التي تخيلها أكثر هدوءاً ويمكن التكهن بتصرفاتها بهاؤها الخجول المرهف، قدرتها المحدودة نسبياً على التعبير عن نفسها (لين على النقيض لا تتوقف قط عن الكلام، علاوة على أن لكنتها لم تكن محببة). قوتها التي تخيلها والمستمدة من لون بشرتها لن تمانع في أن تصبح منهلاً لشخص آخر... جميع الأشياء التي يفتقدها في لين بدت موجودة وجلية في مريديان. بدت مريديان سيدة يمكن الركون إليها، كما تركن السفينة إلى مينائها، ويركن القطار إلى مكان مبيته.

ذهل لمعرفة أنها قد صرفت النظر عنه منذ زمن بعيد. في الواقع عندما نظر إلى عينيها، عرف أنه يتذكر شخصاً آخر، شخصاً خلقه بنفسه. لماذا، أمن المعقول أنه لم يعرف هذه المرأة أبداً! لمس للمرة الأولى خصلة من خصال مريديان التي أحزنت لين- التي عرفتها معرفة سطحية فقط- أنه يمكن لأي شخص أن يلاحظها. مريديان، بصرف النظر عما تقوله لك، وبصرف النظر عما تقوله لها، فهي تبدو دائماً ساهمة تفكر في شيء آخر، تدور في ذهنها محادثة أخرى ربما، محادثة سابقة، تستمر وتتواصل على مسار متوازٍ أو محادثة مستقبلية تسير في سياق متطابق. كان هذا صحيحاً دائماً.

دار في خلد ترومان أن هناك أيضاً شيئاً ما مظلماً، ظل يتأرجح كرقاص الساعة، أو مثل نصل خلف عينيها المفتوحتين الصريحتين، يدفع المرء للشعور بأنه مدين يدفعه للتفكير بالمفصلة يثير شكوكه بأنها غير متوازنة. عندما لاحظ ذلك، شعر بخصيتيه تتقلصان وتنكمشان: ورغم ذلك كان ما يزال يرغب بها، لكنه ما كان يرغب (أو يستطيع) ممارسة الحب معها

وأمام هذا القلق الرابض خلف عينيها، وهذا النشاط الذهني الواضح، تقمصت هدوءاً ظاهرياً مخادعاً عرف ذلك في هذه المرأة التي لم تبد يوماً في عجلة من أمرها، ولكن مقدر

عليه ملاحقتها، لربما لم يبق من العمر كثيراً والمستقبل قد يمتد لوقت قصير، لكن الذاكرة شغلت الكثير جداً من الوقت.

زفر بقوة وبعمق.

قالت مريديان بسعادة: «أوه، لا، لقد رغبت بفتاة عذراء، ألا تذكر؟»، (تعذر عليه تذكر أي شيء من هذا القبيل)، «لقد رغبت بامرأة لم تخض علاقات جنسية عابرة»، (متى قال إنه يريد ذلك؟)، «لكن على المقلب الآخر، أردت سيدة تتمتع بخبرة حسية واسعة... لتضاهي خبرتك الآن وبما أنه لدي ابن، الذي دفعني خوفي منك إلى إنكار وجوده، ولأنك تريد أيضاً أن تمارس الحب معي، ولأنني لا أملك أي خبرة حسية للتبجح بها، لم يرق موضوع الزواج بيننا ابداً إلى مستوى مناقشته. وجدت في لين محبوبتك المثالية: عذراء تتوق لممارسة الجنس وميسورة لدرجة كافية تتيح لها اكتساب خبرات حسية»، قدمت مريديان هذا الشرح بنبرة إرشادية وتوجيهية.

كل ما قالته كان صحيحاً مئة بالمئة. برغم يقينه أنه لم يقل لها أياً من هذه الأشياء ابداً أراد عذراء، فقد ترعرع لينتظر وينال عذراء؛ ولم تساوره الشكوك ولو حتى لمرة و حدة في هذا الأمر. كان ضارياً كالشبان الآخرين الذين رافقهم، تواقاً مثلهم للإغواء وفقاد العذراوات بتولتهن. من أين توقع أن تأتي هذه العذراء؟ من السماء؟

عندما مارس الحب مع مريديان، كان من المستحيل تقريباً الولوج بها، بدا وكأن فرجها مقفل بشكل كامل بواسطة عضلة مشدودة تقاومه. لاحقاً توقفت الدماء، وعلى الرغم من انها لم تفه بكلمة واحدة عن كونها عذراء، فقد افترض ذلك. نجح لاحقاً في فهم سبب تمنع فرجها وتشنجه بهذه القوة. كانت مهتاجة يشوبها قليل من الخوف. الخوف لأن الجنس لطالما عاد عليها بعواقب وخيمة، والخوف لأنها إن لم تمارس الحب معه فقد تقع في حبه، وإن مارست الحب معه فقد يفقد الاهتمام بها. وهو ما بدا، بالنسبة إليه، قد حدث معه

حتماً

لكن الحقيقة كانت مختلفة. فبعد أن مارسا الحب، عرف أنها كانت متزوجة ولديها طفل. كيف له ان يتخذ زوجة لديها مسبقاً طفل؟ وقد تخلت عن الطفل وأبعدته عنها. يا للاشمئزاز الذي انتابه نحوها. الاشمئزاز من عينيها اللتين، اعتقد، بأنهما تلمعان على نحو يفوق الطبيعي. الاشمئزاز من جسدها النحيل الذي تعلق عليه نهداها (اللذان أعجباه كثيرا) بتثاقل كبير. عندما عرف عن الطفل نظر إلى نهديها على أنهما إبريقان مستعملان، من أملاك رجل آخر.

رغب بفتاة مثالية في أعين العالم بأسره، وليس سيدة متوحشة تلد ذريتها وتحبها. ومع ذلك، لو أنها دنت منه في الشارع، تجرّ طفلها بيدها، لما رمقها ولو بنظرة واحدة، لما كانت بالنسبة إليه موجودة أصلاً كسيدة يمكن أن يقع في حبها. ومن دواعي السخرية، أن إدراكه لقصوره، الذي كبر بحماس عاماً بعد عام، هو بالضبط ما ابقى مريديان ماثلة في افكاره بوصفها تأنيب ضمير مستمر. أينما حلّ، كان يفكر بوجهها وجسدها، وكيف كانت يدها ترفرفان على ظهره عندما تقبله. فكر بالمرات التي بدت فيها محرجة منه دون سبب معروف بالنسبة إليه. فكر بالمرات العديدة التي شعر نحوها بفوقية. كان هناك ذكرى محددة آلمته بالتحديد: قبل سنوات، عندما كان يواعد الطالبات البيض المنخرطات في البرنامج. طرحت عليه سؤالاً، تدفقت كلمات مثقلة بالعار من فمها وعرف أنها قصدت نسيان انها سألت أصلاً- «لكن ما الذي تراه فيهن؟»

واجاب بفظاظة، دون تفكير، بطريقة ترمي إلى جعلها تحتقر النطق لصمم لعملها الريفي:

«إنهن يقرأن صحيفة ذا نيويورك تايمز»

شعر ترومان بأن تلك النظرة المتبادلة، أيضاً، تجمعت في مكان ما خلف عيني مريديان، سيكون نسيانها مبهجاً بالنسبة إليه، كما سيكون مبهجاً لو أنه لم يكن قط ذاته السابقة. لكن الهروب من لين، عند كل مناسبة متاحة، والتواجد لبضعة أيام بالقرب من مريديان، كان أفضل شيء يمكنه فعله.

زيارات

في الصيف الذي سبق وصول مريديان إلى تشيكوكيما، القريبة من ساحل جورجيا، عمدت لين إلى زيارتها. آخر مرة رأت الفتاتان بعضهما بعضاً كانت بعيد وفاة كمارا، ابنة لين وترومان، قبل عام مضى. سكنت مريديان في منزل مفروش على نحو لائق وقد شهد مجتمع السود أحد عروضها والشلل الذي تبع العرض. كان المنزل في قرية زراعية غير معروفة على خط جورجيا- ألاباما، وعجزت مريديان في البداية عن تخيل السبيل الذي أوصل لين إلى معرفة مكانها هناك وتكمن الإجابة البسيطة في أن ترومان اتصل بها على ما يبدو فقد كان ترومان بدوره يزورها حينها، وأضحت زياراته اعتيادية جداً لدرجة أصبحت بالكاد تلحظها.

ثمة فترات في حياة مريديان لم تستطع فيها استيعاب أنها مريضة. صحيح أنها فقدت جزءاً كبيراً من شعرها مما دفعها في نهاية المطاف إلى حلق شعر رأسها وبدأت بارتداء قبعة تشبه قبعة عمال السكك الحديدية المخططة بالأبيض والأسود. كان القطن الذي صنعت منه القبعة متيناً وخفيفاً بينما عملت حافة القبعة على حماية عينيها من اشعة الشمس وكان صحيحاً أيضاً أنها ضعيفة وقد بدت علامات المرض ظاهرة عليه. لكن وجودها وسط القرويين السود الفقراء الذين يعانون من سوء التغذية- ويحاولون النجاة اعتماداً على حمية مكونة من اللحم المملح والبطاطا خلال فصل الشتاء والخضار الطازجة من دون تناول اللحم خلال فصل الصيف- لم تظهر غريبة عن المكان في الواقع بدت وكأنها تنتمي إليه.

وعلى غرارهم، كان بمقدورها استحضار أي طاقة يستدعيها تحقيق مهمة ما، ومثلهم، بدت هذه القدرة بالنسبة إليها شيئاً وهبها أسلافها لها من أيام العبودية حين لم يكن هناك ذكر لشيء من قبيل عبد مريض، وإنما «متمارض» وعلى غرار المزارعين الصغار

عديمي الحظ المحيطين بها، الذين كانوا يعتنون بمحاصيلهم «وفق ما يقتضيه الطقس»- يجلسون في الأيام الماطرة، وينطلقون لزرع المحاصيل أو جزها أو حصدها في الأيام المشمسة- فقد عاشت «وفق ما يقتضيه» مرضها. ومثلهم، بدا التذمر غير مجدٍ بالنسبة إليها

تساءلت مريديان عمن تكون السيدة البيضاء الجسورة التي تطرق بابها كما لو أن قبضتها مجبولة من حديد. ثم عرفت أنها لين، فتغيرت أشياء كثيرة.

قالت وهي تدعوها للدخول إلى منزلها: «سأعد بعض الشاي».

قالت لين: «شكراً مريديان» تخففت من حمل حقيبتها وارتمت بتثاقل على الأريكة «أنا منهكة!».

ارتدت تنورة صفراء طويلة كالتي يرتديها الهنود وتبدو مثل غطاء سرير، نُقشت عليها فيلة بنية وسود- وبلوزة سوداء فضفاضة مطرزة بالأزهار وثمة مرايا صغيرة تحيط بعنقها. تدلى قرطان ذهبيان مشغولان بتكلّف من أذنيها على امتداد عنقها فيما بشرتها الذهبية التي اكتسبت سمرة ذهبية بعد تعرضها ليوم كامل لأشعة الشمس، أصبحت الآن بلون الطباشير الأبيض، واحمرت أوردة عينيها وانتفخت فيما تهدل الجفنان، وشعرها الداكن مشعث ومملّ.

قالت لين «لم أنم طوال ثلاثة أيام لعينة»

«عليك التوقف عند إحدى تلك الحانات الاسكتلندية الجديدة بها رخيصة»

«لا تعد رخيصة إن كنت مفلسة». قالت لين ببرود، وهي تنقل بصرها في أرجاء الغرفة، تسمّرت عيناها لدقيقة على إحدى قصائد مريديان اللاذعة التي علقتها على الجدار باستخدام دبابيس. كانت آخر عنصر من عناصر القيمة الشخصية التي تتحلى بها

مريديان، وقد عقدت العزم على إبقائها هناك عندما تُخلي المنزل

قالت مريديان «ترومان هنا، كما تعرفين». وأحضرت الشاي. أضافت السجق البولوني والجبن الخفيف، الطبقان اللذان تبرع بهما الناس لمساعدتها على الاحتفاظ بهما أينما حلّت، إضافة إلى شطيرة زبدة الفول السوداني مع المربى. شرعت لين في تناول السجق بلا خبز، الذي كان أبيض ويشبه الإسفنج، ملفوفاً كسجق لحم الخنزير، ثم لعقت المربى دون أن تمس الفول السوداني، كانت تمد لسانها نحوه برقة كما الهرة ولم تخطئه أبداً

قالت فيما تركيزها كلّه منصب على الطعام «اعتقدت أنه ربما يكون».

قاطعتها مريديان «حقاً يا لين، ليس هناك أي شيء بيننا على الإطلاق. علاقتنا بريئة كبراءة العلاقة بين أخ وأخته». ربما كان ذلك أقل براءة مما قد يبدو عليه الأمر «لا شيء بيننا»

ضحكت لين وبدت ضحكتها مثل نباح قصير استحال إلى سعال: «أعرف أنه لا شيء بينكما» كان صوتها غليظاً بسبب التدخين فيما تجعدت شفتها العلوية والتمت لتحلف بطريقة لم تتذكر مريديان أنها كانت على هذه الحال من قبل. «لهذا السبب طار إليك مثل الحمام الزاجل اللعين. لا شيء بينكما، ويحك»

كانت على وشك أن تقول، «لكن ويحك»

«لين...».

ضحكت لين مجدداً «هناك دائماً شيء ما بينكما» وأخرجت لفافة سجائر «ربما لا تعرفين ماهية ما بينكما» قالت بصوت يشوبه قليل من الاستغراب. ولكن بسخرية قاطعة: «ما بينكما هو كل شيء كان من الممكن أن يحدث ولم يحدث، لأن كليكما كان جبناً حتى الموت من بعضكما بعضاً. الرجال والنساء السود خائفون حتى الموت من بعضهم بعضاً،

كما تعرفين. ليس رجالك ونساؤك السود العاديين بالطبع الذين يقبلون بعضهم بعضاً كأشخاص طبيعيين فقط. لكن الأشخاص من أمثالك وأمثال ترومان عليهم على الدوام تحليل مشاكل بعضهما بعضاً. ربما يتعين عليك وعلى ترومان أن تقفلا الباب على نفسيكما في غرفة في مكان ما وتدخنان أنفسكما بحماقة، تتهاويان إلى دراعي بعضكما السود وتمارسان الجنس مراراً وتكراراً». قطبت جبينها. «بالطبع، جميعكم تملكون ذلك التاريخ الطويل جداً من الفشل في جميع علاقاتكم الشخصية لا بدّ وأنه من الصعب مقاومة ذلك. أو ربما هناك نساء شقراوات بيض كثيرات يبعن مساحيق القدمين وكريم الحلاقة من ماركة ناكريما. هل عرفت أن ترومان يفضل الشقراوات؟ أعتقد أنه يفضلهن».

أخذت مجة عميقة من لفافتها ونفثت الدخان.

قالت بعد برهة: «لا بدّ وانه عميق التفكير تروجتي، وظل يحاول أن يحفر من شأن نفسه حتى الموت في كل مكان، وأنت- حسناً، من يعرف ما الذي فعلته بنفسك. لا ألومك رغم كل شيء لأنك لم تتزوجي. كان هذا تصرفاً ذكياً حقاً. ذكياً حقاً. أتمنى لو يدعني أحد ما أحبث بعهودي. لقد كان ترتيباً خرائياً، بعد أن رُزقنا بطفلة». رفعت كوب الشاي وأعادته إلى مكانه دون أن تأخذ رشفة منه

سالت «لقد اكتسبت بعض الوزن، أليس كذلك؟».

قالت مريديان: «جميعنا اكتسبنا، أو خسرنا»

قالت لين «حسناً، قطعاً لم يزد وزنك»، ورمقتها بنظرة حادة، «في الحقيقة، بقد-».

قالت مريديان متعمدة مقاطعتها «لا يمكنك ملاحظته، هذا كل ما في الامر» عرفت كيف يبدو شكلها، لم يزعجها الامر، لكنها لم ترغب بسماع لين تعلق على الموضوع

قالت لين «وبدا الشيب يغزو شعري لديّ خصل بيض في مقدمة رأسي كلها. صبغته

ذات مرة كما تعرفين، من الصعب التأقلم مع ما أصبحت عليه، وأنا أهرم بهذه السرعة».
مدّت يدها لتلمس الخصل البيض غير المرئية تقريباً الموجودة عند صدغيها.

قالت مريدين «لقد عشت حياة قاسية».

أردفت لين شاردة الذهن، وهي تبحث عن مرآة: «الأشخاص الوحيدون الذين أحبوني يوماً كانوا الفقراء الذين يعيشون في الغابة، في المستنقعات. لم ينظروا إليّ أبداً بعين النقص. لم يحتقروني قط. بعد أن رزقت بكامارا، جلبتها إلى هنا لمرة واحدة ليروها وقد أحبونا نحن الاثنتين. لم يحتقرونا. لم يدفعونا للشعور بأننا سرقنا أحد الرجال النادرين. جعلونا نشعر وكأننا عائلة واحدة. كانوا بالطبع النمط القديم من السود، مثل تلك العجوز المتدينة التي قدمت لنا الطعام ذات مرة. أتذكرينها جاؤوا ببساطة إلى الشرفة وقالوا: تفضلوا جميعاً أنت يا صبية، دعيني أرى هذه الطفلة الكبيرة اللطيفة ما اسمها؟ كامارا هذا اسم جميل حقاً. يا الله، أوليس رأسها مليء بالشعر. وانظروا إلى عينيها الكبيرتين، السينين تماماً كلا، أعتقد أن عينيها خضراوان. كلّا، أعتقد أنهما بنيتان. حسناً، تعالي إلى أهلك تعالي إلى هنا هذا حسنٌ».

كانت لين على وشك النحيب. سالت الدموع وبللت ذقنها.

قالت مريدين «بدا وكأنه اكتسب اللون الأبيض جراء التعرض لاشعة الشمس»

«لم يدفعونا يوماً للشعور بأن هناك على الارض اناساً اقل شأناً ومن كانوا ليفعلوا أي شيء يجعلنا نشعر بهذا الإحساس انا وطفلتي الحلوة السمراء ذات (شعر). استفقت من شرودها، (يبدو وكانه اكتسب اللون الأبيض جراء التعرض لاشعه الشمس) حر ما يهمني لطف و دب وكياسة- هذا ما يملكه الناس الجنوبيون الساحرون هنا نه محرد حراء»

«ترومار حرج و حد معه ه التصوير سيعود في ي لحظة»

«أخذ معه آلة التصوير! ربما يلتقط صوراً لجميع الفتيات الصغيرات اللواتي يود أن يعاشرهن. هذا ما يهمه فقط من الفقراء، ناهيك عن السود». مسحت عينيها ورفعت قبضتها وكأنها تحيي شخصاً ما.

قالت مريديان: «نسيت السكر». نهضت ودخلت إلى المطبخ.

قالت لين: «يجب ألّا تنسي السكر ويحي، أنت بيتي كروكر اعتيادية. كيف تفعلون كلكم هذا، أتساءل؟ رؤوفون دائماً وهادئون. سيدات شابات مثاليات؛ سواء عشتن في منزل كبير كمنزل بيج ميسي أو عشتن كعبيد. لا بدّ أن السبب يعود إلى خبز الذرة ذلك. جعل منكم جميعاً متملقين».

قالت مريديان: «لم أدعُ ترومان. لم أوجّه له دعوة يوماً». قالت لين: «لا أكترث لأمر ترومان». أشعلت سيجارة قنب هندي وأخذت نفساً عميقاً. «لم أعد أكترث لأمر ابن العاهرة هذا».

راقبت مريديان لقاءهما في الفناء الخلفي من منزلها. لم يبتسما ولم يتلامسا. كان ترومان متجهماً، فيما وجه لين متوتراً. وقفت مريديان وسط غرفة الجلوس وبدأت بممارسة التمارين الرياضية. تظاهرت أولاً أنها تلعب ببطء رياضة القفز بالحبل، لترتفع قليلاً عن أرض الغرفة وتثب في الهواء، ثم تلامس أصابع قدميها. بعدها استلقت وبدأت برفع إحدى ساقيها ومن ثم الساق الأخرى، مبقية عليهما معلقتين في الهواء لتعد حتى الرقم عشرة.

«ما الذي بحق الجحيم تعنيه أيها الزنجي؟» كان صوت لين خشناً ومسعوراً، قادماً من الفناء الخلفي، وهوى صوتها ليعكر مثل صوت حجر صفو الصمت المخيّم على الحي.

«هلا أقفلت فمك أيتها الحيوانة»

«ليس قبل ان تخبرني لماذا لا أعثر عليك مطلقاً ما لم أبحث في فناء مريديان الحلمي».

«لا أعيش معك. لا يتعين علي شرح أسباب تصرفاتي لك. ليس بعد الآن. لا يتعين علي ذلك».

قالت بحمقة: «انظر إلي»، فهو كان بالفعل ينظر إليها. «أتعتقد أن بوسعك الدوس علي ومواصلة طريقك... تدمر حياتي»

زمجر قائلاً: «لا تذكري مهنة الرقص الرديئة التي مارستها. لو كان بإمكانكم الرقص أيها القوم، لما كان عليكم أن تقلدونا طوال الوقت»

قلت. «أنت حمار أنت حمار جيد يستطيع الكلام. أنت الزنجي الوحيد في العالم الحرّ الذي لا يستطيع أن يؤدي رقصة واحدة. في كل مرة تدهب إلى هناك وتهزّ مؤخرتك، تبدو مثل لوطي يعاني من تشنجات».

اصبح صوته فجأة متوعداً: «توقفي عن قول كلمة (زنجي) الحرانية».

قلت «كن بإمكاني احتراعها لكنت على الأقل بقيت في حالة صحية جيدة»

قال «لطالما احتجت لطبيب نفسي. هذه احدى الأعراض الناجمة عن عرقك».

بدات لين بالبكاء. مسحت أنفها بطرف تنورتها رافبها ترومان بقرف

«عرقي؟ عرقي؟» اشاحت لين بوجهها كما لو أنها تتوسل الاشحرر صحكت رغماً عنها

لم يكره قط، من الاحية الجمالية، بيض لين مثل اليوم. لقد صدمه لأن لمها احمر ومقشراً، شعرها كمد وتمحصه عن كثب بسرعه- كساه بعض الشيب وبدينه حداً، صحم حتى من اخر مرة راها فيها، بعد موت كامارا لم يستطع منع نفسه من التفكير بانها تشبه الحنزير إلى حدّ بعيد بدت عيناها أصغر من اي مرة راهما فيها، وكل ما كانت تحتاجه

أذناها البيضاوان هو ان تستطيلا قليلاً وتنقلبا للأمام.

لكن ما الذي كان يحدث معه (حدث معه)، لتخطر له هذه الأفكار؟ كان هناك شجرة جوز كبيرة بالقرب منه. استند عليها.

قال أخيراً: «لين، لِمَ لا تعودين إلى ديارك؟ لا يوجد أي شيء بيني وبين مريديان. الأمر ليس كما تعتقدين. هي لا تفهم سبب إصراري على مضايقتها أكثر مما أفهم أنا»

«تور»

«مريديان باتت من الماضي، أختي...» بدأ ترومان، لكن لين نهرته

قالت «لقد سمعت كل هذا الخراء مسبقاً. لكنه لا يعكس ما فعلته بي وبكمارا. الهرب حالما يصبح السود جميلين...».

حان دوره ليضحك. سأل: «ألا تصدقين ذلك؟»

«أنا على يقين من أنني أعيش حياة مزرية كحياتك. لا بدّ وأنك تعتقد أني غبية تزوجتني فقط لأنك أجبن بكثير من أن تلقي قنبلة على جميع المجانين الذين يزعجونك أنت مثل بقية هؤلاء الرومنسيين السود المسرحيين. لا تملك حياة خاصة بك على الإطلاق ما لم تكن موجهة ضد البيض. حتى إنك لا تستمتع بمضاجعة جيدة دون أن تأمل بأن هناك مجنوناً في مكان ما يصرّ على أسنانه في اللحظة ذاتها»

«تزوجتك لأنني أحببتك»

«حقاً. وردت شيئاً غريباً في المنزل لتسليه أصدقائك»

قال ترومان عندما رأى مريديان تخرج من المنزل: «احرسي ي ...»

قالت مريديان موجهة حديثها إلى لين: «سأخرج لأتمشى. لكن إن كنت تشعرين بالنعاس أو التعب، يمكنك أخذ قيلولة على الأريكة في غرفة الجلوس. سأترك الباب مفتوحاً»

سألت لين " لا يبدو ترو في حالٍ جيدة؟»، بينما وقفت مريديان تراقبهما لم تكن قادرة على تجاهل صوتهما العاليين وقد أثارا حنقها.

قالت: «يبدو إلهاً».

قالت لين. «ناضج جداً. ما زال شاباً .. ألا توافقينني الرأي؟ أنت في الرابعة والثلاثين الآن، أليس كذلك يا عزيزي؟» طرحت سؤالها واستدارت للحظة نحو ترومان، فيما عبس ترومن في وجهها. «هل تصدقين أنه شارف على منتصف العمر؟ أنا لا يمكنني تصديق ذلك. هذا بفضل الحياة الرغيدة وهو بالطبع مصاص دماء يمص دماء العذراوات البيض لشابات ليحافظ على حيويته. هل كنت تعرف ذلك؟»، رمقت ترومان بنظرة حادة وحانقة

«أخبرها عن هذا الشيء الصغير الذي لديك يا عزيزي (وبالطبع هو ليس الوحيد)، وتخص به لعذراوات البيض لا تكذب وتقول إنني لم أكن عذراء».

«اخرسي!».

قالت لين، «انس الجنوبيات تعشن حياة آمنة جداً»، محاكية لكنة الجنوبيات المتحذلقات وهي تلف خصلة من شعرها المنسدل الدهني بعض الشيء حول إصبعها «أعلنت أبي ساكون ضجرة حتى الموت لهذا قصد رجالك الشمال، يا سكرتي يبحثون عن سحم لابيض العض الذي يثبت وصولهم أفهمت ما أرمي إليه؟ أخبرني ما شعورك عندما تكونين فاشلة تماماً» (قيل هذا بينما بيب دبمبس تدير معصمها) في لاحتفاظ برجلك؟»

«تعرفين كان بوسعي - أجل، إن لدي موجزة سميه وكل تب لاشياء أن أمشي في لشارع في أي مكان قريب من هنا وأنال كل ما أريده: أن أجعل جميع الرجال يلحقون بي،

فيما ألسنتهم السود الصغيرة متدلية من أفواههم»

شعر ترومان كما لو أن روحه، المعلقة و المترنحة طيلة حياته، قد سقطت من أعلى الرفّ.

«تحتاجين إلى عقل مريض ليضحك على تلك المزحة القديمة السمجة أيتها العجلة السخيفة» ود لو يملك القوة ليمسحها عن وجه الأرض بمجرد نظرة

أخرجت لين نظاراتها الشمسية وارتدتها، وهي تبتسم وتهزّ رأسها، كما لو أن أمامها جمهور عريض.

قالت «مرحى! تحت تلك البضات القديمة الطر ر الطهرية المختارة يقبع قلب قاتل عرفت ذلك».

«أستميحكما عذراً، لكني سأقفل باب المنزل».

قالت لين وهي تقهقه: «منزل مقفل، فرج مقفل»

قالت لين لاحقاً وهي تبكي دافنة رأسها بين وسائد الاريكة. «لم اقصد سوءا من وراء ما قلته يا مريديان، السبب هو أن لديك كل شيء. اقصد انت قوية جداً، اهلك يحبونك، ويمكنك التغلب على كل شيء. أنا لا شيء لدي. لقد تخليت عن كل شيء من اجل ترو، وكل ما يفعله هو التبزز علي».

مكثت في أثناء تتجادل مع ترومان إلى أن تركها ورحل. حبسها دمع [illegible] مريديان من خلال نافذة مفتوحة. فكرت بينها وبين نفسها هي تماما مثل العروس [illegible]. تقفل الباب وتترك النافذة مفتوحة على مصراعيها

مشت مريديان إلى أن أنهكها التعب، فيما فكرة واحدة ظلت تدور في خلدها «الشيء الوحيد الجديد الآن» قالت لنفسها، وهي تتمتم ذلك بصوت عالٍ، مما دفع الناس للالتفات

إليها والتحديق بها، «سيكون رفض المسيح لقبول الصلب المسيح الملك» قالت ذلك وانعطفت لتدخل في زقاق موحل «كان عليه أن يرفض. مالكوم أيضاً كان عليه أن يرفض، جميع شخصيات الروايات تلك التي تنشد الموت لإنهاء الرواية يجب أن ترفض. يتعين على جميع القديسين ان يناوا بأنفسهم. يؤدون مهمتهم الجليلة- ثم يبتعدون. يزورون أوروبا، هاواي، يصبحون مهندسين زراعيين او يربون الكلاب المرقشة» لم تكن تكترث لما قد يفعلونه، لكن عليهم أن يفعلوا شيئاً آخر

نظرت إلى لين، التي حتماً لم تكن قد أصبحت قديسة بعد لم تعرف ما الذي يمكن للين أن تفعله كانت منهكة في تلك اللحظة ولا طاقة لديها لتكترث.

قالت لين: «اصغي إلي، عندما كنت أنا وكامارا نعيش في (إيست فيليج)- يا للجحيم، (لوير إيست سايد) شارع رقم 12- لم أستطع السير في الشارع وأخذها إلى روضة الاطفال دون ان يكون هناك زنوج يرغبون بالقفز فوقي ماذا كان بوسعي فعله؟ أنا امرأة، صحيح؟ ما كانوا ليستريحوا ابداً حتى يضاجعوني. ثم يأتي البكاء والترجي عندما لا اشعر برغبة في منحهم اي شيء. لهذا عادة ما كنت أكتفي بالقول تباً يجب ان آخذ قسطاً من النوم انهض عني أيها الزنجي. لا تأخذ الليلة برمتها كنت أحياناً أنام وهم فوقي»

سألت مريديان بسام: «أكان عليك قول كلمة زنجي؟» أدركت ان استخدام الكلمة لدى العديد من الناس الذين يتبعون المفردات الرائجة لم يكن يعتبر مهيناً، وإنما مجرد طريقة في الكلام وادركت أنها ستظل تمقت الكلمة إلى أن يهال التراب على وجهها

عرفت حينها ان الامر لا يعني شيئاً على الإطلاق للاشخاص الذين [illegible] في نهاية المطاف اي شيء بوسعهم الاستهزاء منه، او الحديث عنه او [illegible] «[illegible] سمحت لهؤلاء [illegible] بالدخول حياتك طالما رغبت دون [illegible] وشأنك؟ [illegible] لا اعرف [illegible] جداً التوسل والإصغاء الى [illegible] يتوسلون امر متعب كما انك لا تعرفين ما الذي يحدث في

المدن. هناك كل تلك الفتيات البيض اللواتي يشعرن بالذنب لأنهن يرغبن ويسعدن بالإبقاء على شاب أسود، حتى لو كان واضحاً للعيان أنه متشرد مدمن. لست مثلي. حاولت من جهتي على الأقل أن أكون مع المتشردين الراقين- مثل الشعراء العجائز او من كانوا نجوم الجاز في السنوات الماضية. على سبيل المثال».

قالت مريديان. «لا تذكري أمامي أي أسماء. صدقيني إن قلت أن لا رغبة لي بأن أعرف».

«لا أدفع نفسي للجزع، بتحليل كل شيء أفعله. ما هي الخيانة بين الأصدقاء على أي حال؟».

«الأمر مختلف بين الأصدقاء».

«لا يمكنك أن تفهمي. حياتك... جداً... ثمة شيء ما لا يسير على ما يرام في حياتك، كما تعرفين. إنها ملعونة جداً جداً. كما لو أنك ترسمين دائرة حول حياتك وتسيرين على حدود الخط تماماً. لماذا عدت إلى هنا. ما الذي تبحثين عنه. هؤلاء الناس سيظلون دائماً على حالهم لا يمكنك تغييرهم، لا شيء يمكنه تغييرهم».

قالت مريديان: «لكن يمكن لي أن أتغير. آمل ذلك»

«أعيش حياتي لحظة بلحظة، لا أنظر إلى الوراء. أحد ما تقدمه لي الحياة.. آه تباً! حياتي مريرة جداً. كان ترومان الشيء الثابت الوحيد فيها. لا أملك حتى صورة لأهلي» صاحت عيناً لين «لست احتاج إلى صورة لأتذكرهم، كلا الأمر ليس كذلك كل ما علي فعله هو إغلاق عيني لأراهم جميعاً في حال جيدة»

«كان والدي في الحقيقة، والدي كان رائعاً- اعتقدت على الأقل بأنه كان رائعاً. لم يكن أميرك الجذاب، ولكن بطريقته اليهودية الرتيبة والحذرة. كان رائعاً. كان يكتفي بقول بضع كلمات عندما يود تأديبي، كنت أكبر. كان دائماً نبيلاً جدا وعادلاً جداً لم أصدق رنة فعله

عندما اتصلت لأخبره أن كامارا تعرضت لهجوم ولقيت مصرعها. أتعرفين ما الذي قاله؟ رفضت أمي التحدث إلي، على الرغم من أن حدسها قال لها بلا شك إنني كنت أبكي. أخذ والدي سماعة الهاتف، وطلب مني أن أكرر ما قلته. قلت له إن ابنتي لقيت مصرعها وقال: (وابنتنا أيضاً) كان يقصدني! وعندما توقفت عن التنفس لأنني ظننت بأنني لم اسمع جيداً ما قاله- قال بهدوء وكأن شيئاً لم يحدث- «لا يهم؟ هل هناك أخبار أخرى؟» كانت لين تأكل العنب، بصقت بذرة. «الوغد الذي لا قلب له، أقل شيء كان بوسعه فعله هو تهيئتي لتقبل الشخص الكريه الذي أضحاه. الآباء أشخاص رديئون». أردفت وقد قطبت حاجبيها. «عندما توفيت تاتا العجوز، تذكرت حينها لطمه. رفضت أن أتذكر ذلك حتى ذلك الحين»

تابعت لين. «الأمهات حيوانات أيضاً. كل ما تفكر فيه أمي هو صورتها في عيون الجيران». غاصت مريديان في كرسيها، وقد تخدرت قدماها.

قالت «لقد أضحى كل هذا وراء ظهرك».

قالت لين: «أنت لا تعرفين نصف الحقيقة»، موجهة صوبها نظرة نارية «انت حقاً لا تعرفين».

حدقت مريديان فيها وهي نعسانة ومشوشة وكأنها بوغتت

«قال ترومان إن إحدى تخيلاتي أن أغتصب على يد رجل اسود صغير الاشياء وفرمها على هذا النحو. لكن الأمر لم يكن كذلك!» كانت عيناها المتضرعتان مغشيتين بالدموع. جلست على الأريكة ومسحت عينيها «أنت الشخص الوحيد الذي بإمكاني التحدث معه حول هذا. الوحيد الذي يصدق أن ما حدث لم يكن خطئي. صحيح سمحت لأحد أصدقائه...».

قالت مريديان «لا يمكنني سماع هذا». نهضت فجأة بيأس وقالت «اعتذر، ليس

بمقدوري سماع هذا».

صرخت لين: «انتظري دقيقة. أعرف أنك تفكرين بالإعدام خارج نطاق القانون وكيف تكذب النساء البيض دائماً حول اغتصاب رجال سود لهن. ربما لم يكن هذا اغتصاباً لا أعرف. أعتقد أنه كان كذلك. شعرت بأنه كان اغتصاباً».

جلست مريديان مجدداً ونظرت إليها من خلال أصابعها التي تباعدت لتصبح مثل مخالب تغطي وجهها.

«ألا تفهمين أنه لا يمكنني سماعك؟ ألا يمكنك أن تفهمي أن هناك أموراً لا أود معرفتها؟».

قالت لين: «لا تصدقينني أنت أيضاً؟».

قالت مريديان ببرود: «كلا».

«تباً لك إذن».

«اخلدي إلى النوم يا لين. لمَ لا تخلدين إلى النوم؟».

لكن لم تكن لدى لين أي نية لمغادرة الغرفة. قد لا ترغب مريديان بسماعها، لكن كان بوسعها الجلوس هناك وحدها لتحاول أن تتذكر ما حل بحياتها وبحياة ترومن

لين

تذكرت أننا في فصل الربيع، وأنها تركت منزل والديها، على أمل أن يكون ذلك إلى الأبد. ولكن لم يتحول هذا الأمل إلى حقيقة، فلم تكن لديها أدنى نية بالكفاح من أجل تحقيق ذلك، ولم تكترث أصلاً. توجها شمالاً عبر الطريق السريع العابر للولايات، رزحت سيارتهما القديمة المهيبة السوداء المهلهلة تحت وطأة ثقل كتبها ولوحاته وبكرات قماش الكانفا وآلتي تصوير، وصدحت بالموسيقا القادمة من إذاعة مخصصة للسود في «نيوارك»، والتي استطاعا بأعجوبة التقاط بثها إلى أن وصلا إلى المناطق المحاذية لحدود ولاية ماريلند.

التقيا على مدار ستة أشهر سرّاً في منزل والدته. كانت غرفته في أعلى الدرج، اللوحات- التي رسمها روميير بيردن وتشارلز وايت وجاكوب لورنس- غطت الجدران، وهو ما كان مألوفاً بالنسبة إليها كما لو أنها غرفتها في البلدة المحاذية. كانت أكثر ألفة لأن غرفتها بدت وكأنها لا تزال محياً طفلة في السادسة عشرة من عمرها، لديها أحذية للرقص وجوارب ضيقة وزهور ورقية أخذتها من زينة مسية في إحدى المدارس الثانوية، ووجوه نجوم السينما الذين شجعتها والدتها على الافتتان بهم. لا وجوه سوداً بالطبع (على الرغم من أنها امتلكت في إحدى المرآت صورة لسامي ديفيس جونيور وماي)، وكان هذا شيئاً عادياً ولا حتى أوجه ليهود حقيقيين للسبب عينه لا أوجه لأشخاص داكني البشرة وراشدين ذوي أجساد رائعة ومنفطرسين مثله. غرفة شابة. بصرة ومبتدئة ترتدي لباساً كطفل خاطئ لمسحوق الوجه. شباب تحت السرير الزهري المغطى مثل وردة محفوظة تحت زجاج وشعرت الآن بصوفية عندما دلفت إلى غرفتها، وكأنها أصبحت واسعة معروفة (منذ علاقتها مع ترومان) لدرجة تجعل الغرفة تضيق بمعرفتها وعلى الرغم من أنها كانت غرفتها، فقد كانت الغرفة في منزل والدتها غير مخصصة بالقدر الكافي مما سهل عملية التفتيش والمصادرة. وكان المحض لتأمل أيدي حريته ولدتها دائماً بشيء بعقل بسر بالهيئ

عندما تعقبتها والدتها إلى منزل ترومان، سمعوها تصرخ من على بعد ثلاثة مبانٍ، لأنه في تلك اللحظة أدركت والدتها أنها تعقبت ابنتها الوحيدة التي تسللت من المنزل بمكر حاخام يهرب من مجزرة لتصل إلى حي يقطنه السود. صرخت دون توقف، دون حتى أن تتوقف لأخذ شهيق على ما يبدو، على طول الطريق الموصل إلى درج عائلة هيلد.

في المكان الذي توقفت فيه لوقتٍ كافٍ لتقرع الجرس، كان رنين الجرس نفسه أشبه بزعيق كليل لغضبها. ذلك الطنين الأجش، المتبوع بصراخ والدتها، الذي غدا نواحاً حينها، استقر في خلفية دماغ لين مثل تسجيل صوتي دوّار مكتوم. لم يكن ليتركها، حتى عندما كانت في أقصى درجات سعادتها، مثل صرخة الولادة بالنسبة إلى أم متيقظة تطهر إلى الوجود في اللحظة التي تنمو ذاتها فيها بعيداً عن والدتها. عندما ماتت والدتها، عرفت أن الصوت المكتوم سيظل يدور في رأسها.

تومي أودز

«ألتونا جوبر؟» ضحك تومي أودز «هبدج فيليبس وما اسم ذلك الشاب الآخر؟» ووقف فوقها بينما انكبت على ماكينة الحياكة، كانت عيناه السوداوان اللتان عادة ما تكونان حزينتين تشعان فرحاً

«أراهن أنهم لم يقبلوا شخصاً مثلك وإن قابلوا فما كانوا ليعترفوا بذلك. أراهن أنك تبثين الذعر في نفوس هؤلاء الزنوج حتى الموت وهم يرتدون سراويلهم القصيرة»

لكن نصف لعوب فقط إذ لم يرقه اختيار البيض المسبب إلى الحركة لملابسهم أثناء تواجدهم وسط مجتمع السود. رغبت فتاة تطوعت لتدوين الملاحظات أثناء اجتماعات الكنيسة بالجلوس بطريقة تجعل فستانها ينحسر ويرتفع عالياً حتى يصبح من الممكن رؤية سروالها الداخلي. هذا ما فعلته في ركن الابتهالات. النساء العجائز الورعات والرجال العجائز الأنقياء الذين ينقصهم التعامل مع مثل هذه الحالات واجهوا صعوبة في التعبير عن شكواهم. فيما هي، الفتاة الشقراء ذات الوجه الألماني الفارغ اكتفت بمص علكتها بهدوء وحدقت بهم، غافلة عما يثير حنق لين. ولم يجرؤ أحد بالطبع على تحذيرها. لم يكن هذا يدعي الخوف. فقد كانوا ببساطة مهذبين جداً ولا يمكنهم إجبار صبية ما جاءت على مجتمعهم بهذا التصرف مثل عاهرة تفتح ساقيها لأي أحد.

نظر تومي أودز نحو لين نظرة فاحصة. بعد أن اكتسبت بشرتها سمرة منذ قدومها إلى الجنوب بدت مسترخية وسعيدة. فكّر بحياتها مع ترومان - كيف أنهم [illegible] لا يستمتعون أبداً بالقيادة على المقعد نفسه في سيارتهم. بل بعض [illegible] دائماً [illegible] أحدهما يعمل سائقاً لدى الآخر ولا يوجد أي [illegible] مثلاً [illegible] فقراء ولا يمكنهم شراء جهاز تلفاز. لكن بدت [illegible] ترومان يرتشف [illegible]

القصائد عادة، تقرؤها على مسامع اصدقائها، ثم تمزقها. كانت تلصق أحياناً إحدى القصائد الجيده على نحوٍ خاص- القصيدة التي تعجبها- امام الصوان، على مستوى النظر، ولا خيار أمامت سوى قراءتها. كتبت قصائد حب عادة ما خاطبت بها ترومان، او قصائد تدور حول الحاجة إلى النبل في قلب حركة الحقوق المدنية. كان كتابها المفضل كتاب جين ستيمبريدج «انا اعرف الملوث» الذي يعد التماساً للحب والمجتمع. كان جلياً أيضاً في شعرها وفي الأشياء التي قالتها حول فكرة أن لقومها السود جمال متمرد، ضربٌ من عذوبة الرمق الأخير، لتي انقرضت وأكل الزمان عليها وشرب في الأعراق الأخرى. رعب بممارسة الحب معها، لأنها في المقام الاول بيضاء البشرة، وهو ما عنى افتراضها بأن اليد الطولى ستكون لها، ولانه أراد أولاً إرغامها على مضاجعته بطرق تثير رعبها وقرفها. فكر بتعليقها من شعرها الطويل في شجرة ليعمل ورنها على سلخ شعرها من فروة رأسها تدريجياً. تساءل إن كان هذا ما يحدث في نهاية المطاف لشخص شق باستخدام تلك الطريقة

لكن مشاعر لين نحوه كبرت يوماً بعد يوم، كما كبرت مشاعرها نحو الجميع. وكانت عاملة جيدة. وللأمانة فقد كانت أفضل من النساء السود اللواتي اردن دائماً خوض جدال حول نقطة ما عوض القيام بما طلب منهن فعله. واحبت فعل اشياء كرمى له، كان الامر تقريباً كما لو أنها عرفت ان استرضاءه وطاعته كانا واجباً خطب لتشارب طواعية، واستمعت إلى مضايقاته بحماس، وحاولت ان تكون بهيجة و لا تظهر الكثير من خصال أهل الشمال وألّا تكون متغطرسة. ولسبب غريب ترقى إلى ان يكون حدساً مسبقاً تقريباً، جدلت شعرها إلى ضفائر قوية شبكتها بمتانة على اعلى راسها

لين

ولأن تومي أودز هو من اغتصبها، وحسبما قال، لم يكن ذلك اغتصاباً بمعنى الكلمة، فهي لم تطلق صرخة واحدة، بل ولم تقاوم كثيراً. كان الأمر بالنسبة إليها أسوا من الاغتصاب إذ خالجها شعور بأن الظروف لا تسمح لها بالصراخ. وحسبما قال تومي اودز، ما كان سوى زنجي وحيد بذراع واحدة يقاسي فترة عصيبة من حياته ولم يعد من أحد يخصص وقتاً له، إلّا أنها منحته وقتاً، أليس كذلك؟ لأنها لم تكن مثل تلك النسوة السود الفطات اللواتي رفضن أن يكن متعاطفات ويمارس الحب معه- ألم تكن كذلك؟ كانت لطيفة لا تشبه تلك النسوة أو أيّ نسوة أخريات رفضنه لنفورهن منه ولأنهن متحاملات فيما مظهر جذمور البتر اثار قرفهن. كانت سيدة حقيقية وأنقذته- أليس كذلك؟

ناشدته قائلة وهي تدفعه من صدره: «لكن يا تومي أودز، أنا متزوجة من صديقك. لا يمكنك فعل هذا»

قال: «لا ضرورة لإخباره»، وراح يفك ضفائرها ويلفّ يده بشعرها مرة تلو الأخرى. قال: «قبليني»، وجذبها نحوه. تجمد الدمع في عينيها بينما شعرت بأن شعرها يقتلع من جذوره.

قالت وهي تنشج بنعومة «أرجوك لا تفعل هذا»

«تعرفين انني لا أستطيع كبح نفسي»، قال بسخرية مكشوفة، ناظراً إلى خديها الأحمرين حيث انتفخت الشعيرات الدموية الحمراء الدقيقة و تفجرت. كانت عيناه مكرتين ونصف مغلقتين، تطفحان شهوة باردة كالثلج «انت سمينة وحمراء الخد ، مثل خنزير صغير جميل» رفعها ليرهه من شعرها، وقربها منه بقوة

«تومي أودز».

قال. «ضعي ذراعيك حولي وقولي إنك تحبينني».

«أرجوك تومي أودز» أصبح صوت بكاؤها عالياً الآن وعندما تخبطت ذراعاها، ارتطمتا بمنطقة جدمور البتر. عادت حنجرتها للعمل.

سأل تومي أودز: «هل تقرفين منها؟ هل تعتقدين أني عاجز؟ أو أنك بالفعل لا تأمنين مع زنوج؟ الزنوج ذوي البشرة الأدكن من بشرة زوجك؟»

تأوهت. «تعرف أن هذا غير صحيح»

رماها على السرير وكان يرفع تنورتها بأسنانه. خرجت يده من شعرها واندست بسرعة داخل بلوزتها. قرص حلمتيها إلى ان أصابهما ألم لاسع.

قالت بتوسل: «أرجوك».

قال: «لم أقصد ذلك حقاً أعرف أن قلبك يعرف طريقه» (وهو يمص حلمتها اليسرى). «أنت لست كالأخريات».

قالت: «يا إلهي-».

جاءت لحظة عرفت خلالها أن بمقدورها دفعه عنها، لكن كانت ومضة استلقت عوضاً عن ذلك تفكر بمشاعره ومكابداته، كيف أنه أسود البشرة وينتمي إلى اناس عاشوا بلا امل؛ فكرت بفقدان ذراعه. شعرت بأن الذنب ذنبها. وولج بها فيما توقفت عن المقاومة لكن حاولت عوض ذلك أن تفكر بتومي اودز الذي كان عليه حين كان صديقها- وعندما شارف على الانتهاء، لفت عنقه كالشال، وقبل أن يغادر حيرته انها تسامحه وقبلت مقدمة جدمور البتر الملساء المدورة التي كانت بلون الكبد المحزوز. يبتسم لها من مسافة، ولم تعرفه قال: «ملتقى»

ظهر تومي أودز في اليوم التالي برفقة ريموند وألتونا وهيدج

قال وهو يدفع الصبية الثلاثة أمامه إلى داخل الغرفة: «لين، سأريك ما أنت عليه».

فكرت بياس، كما لو أن الأمر كان ينتظر هذه اللحظة بالذات لينبثق من ذاكرتها، انبثقت لوحة عنصرية رأتها ذات مرة في مجلة «إسكوير» لسيدة بيضاء عارية فتحت يديها وساقيها على امتدادهما على سطح مكان ما ويحيط بها رجال سود. فكرت: اغتصاب جماعي. انقبضت عضلات شرجها، وغصّت حنجرتها بصوت اختناق مسموع

سألت: «ما الذي تريده؟» ناظرة- للمرة الأولى- إلى الأسفل حيث استقرت أعضاء هيدج وألتونا وريموند الحميمة. نظروا إليها بطريقة غير مباشرة، كما لو أنهم محرجون. كانوا جميعهم يدخنون الحشيش وبإمكانها شمه.

مشيراً إلى جسدها كما لو كان أرضاً محتلة، حاول تومي أودز حث الفتيان واستثارتهم لاستكشافها:

قال «نهدان» وهو يفركهما بأصابعه، «مؤخرة»

ألحت لين: «ما الذي تريده؟»، غضبت لأن رؤية أوجه ألتونا وهيدج وريموند من خلال النافذة الأمامية بددت ظنونها، ولم تكن قد قفلت بابها

سأل تومي بفتورٍ وبلادة ممسكاً بمؤخرة عنقها: «ما الذي فعلته عصر أمس؟». استجمعت لين شجاعتها: «ما الذي فعلته؟ لقد اغتصبتني» قال «امممم»، ابتسم للفتيان الذين كانوا متيقظين وفضوليين وصامتين، كما لو أنهم يحبسون أنفاسهم «وما الذي فعلته عندما كنت أتهيأ للنهوض عنك؟»

لم تجب. عصر عنقها. بدأت بالقول: «أنا -».

قال تومي اودر «اغتُصبت فتاة سوداء عمرها تسع سنوات على يد حيوان أبيض الأسبوع الفائت في بلدة تشولا. أخرجوها من النهر ميتة. حركوها باستخدام عصاة. ذلك كان اغتصاب وليس في [illegible]». احكم قبضته «أخبرينا أيتها القاهرة ماذا فعلت عندما كنت على وشك أن أقضي وطري منك؟»

قلت لين: «لم يكن الأمر صائبًا أبدًا. قبلت ذراعك»

صوب ما فيه «[illegible] وماذا فعلت أيضًا؟»

كان يمسك عنقها مستخدمًا [illegible] مرفقه، فيما وجه دفعها نحو السقف. عصرها

قلت لين: «سامحتك»

صحت تومي اودر «سامحتني؟» «نعم»، قالت لين

خفف من حدة قبضته. وقف معًا الآن. لفت ذراعه كميه، [illegible] بخفة من [illegible] انعكس [illegible]. كانا يبدوان مثل [illegible] وجه [illegible] ويبدو [illegible] [illegible] لما أراد في وجوههم [illegible] ملامح [illegible] من ملامح البيض [illegible] [illegible] [illegible] إلهي [illegible] من فكرة عنصرية مبتذلة

[illegible] تومي اودر [illegible]؟

أغلقت [illegible] كلا من [illegible] كانت في مركز [illegible] «[illegible]» عنصرية [illegible]

السود. فكرت بالقوة والإذلال وسطوة السود. لم يعد هؤلاء الفتيان أصدقاءها بعد الآن؛ منظرها وهي عارية سيحولهم إلى متوحشين.

قال تومي أودن: «هيا، تذوقوا بعضاً منه».

تنحنح ألتونا جونر- الذي شكّل رأسه تماماً على الهيئة التي يُشكّل عليها رأس شخص يحمل مثل هذا الاسم، مثل بطيخة، طويل بشعر قصير جداً.

قال: «إنه؟ إنه؟ ما الذي تتحدث عنه؟ هذا ليس، هذه لين».

تحدث هيدج فيليبس على غرار اسمه. لم يكن هناك أي مواربة في مظهره. كان قصيراً وسميناً وبشرته سوداء ودهنية على نحوٍ مفرط مما يجعل تمييز ملامحه متعذراً إلى أن يبتسم. عندما تحدث ضربت إحدى قدميه الأرض كما لو أنه يجرب شيئاً ما، كما لو كان توّ قاً للمغادرة والوصول إلى الشارع

قال للين: «لن نؤذيك. ظننا أن هناك حملة هنا هذا المساء»

ريموند الذي كان أكثر حياءً من الآخرين، لكنه اكتسب نوعاً ما ذلك الخط الرجولي الذي مهما كان هزيلاً، لا بدّ من أخذه بعين الاعتبار، قال بنبرة خزينة مماحكة مخاطباً تومي ودز «كما تعرف يا تومي، لديّ حبيبة»

قال أودن برصا: «انظروا، لا شيء خاص فيها. أنتم أيها الفتيان خائفون منها. هذا كل ما في الأمر تباً. الماجنون يغتصبون أمهاتكم وأخواتكم لأجل وهذه فرصتكم للحصول على قطعة من بضائعهم».

قال ألتونا جونر «أنت مجنون يا صاح»، ونظر إلى لين بشفقة، لأنها لم تغتصب بوضوح- حسب رأيه. سمع طوال حياته أنه من غير الممكن اغتصاب امرأة دون قتلها بالنسبة إليه،

في الحقيقة، الاغتصاب يعني أن تضاجع جثة هامدة أن تتنازل لين حقيقة لتنام مع تومي أودز عنى شيئاً مريعاً وثمة خطب ما بها. وكان آسفاً.

غادر الفتيان الثلاثة.

قالت لين: «إنهم ليسوا مثلك»، رغم أنها فكرت منذ برهة أنهم مثل تومي أودز تماماً «لا يحتاجون لاغتصاب سيدة بيضاء لإثبات أنهم أشخاص مهمين»

قال تومي أودز: «اغتصاب، لقد ضاجعتك. ضاجعنا بعضنا بعضاً».

رماها على السرير مجدداً وتخبط بثيابها. حتى قبل أن تبدأ بمقاومته عرفت أنه لا ضرورة لذلك. تومي أودز كان عنيناً. بصق في وجهها، بال على أرض الغرفة، وتركها مستلقية هناك.

عندما عاد ترومان إلى المنزل من جديد، لم تستطع لين البوح له بما جرى. كانت بالكاد قادرة على التحدث معه. حزمت أمتعتها وتهيأت للرحيل. تمنت لو كان باستطاعتها الذهاب إلى الشرطة، لكنها خافت من الشرطة أكثر مما خافت من تومي أودز، لأن الشرطة تهجم الشبان السود في المجمع دون تمييز، والناس الذين تود أن تراهم محميين سيعانون. علاوة على ذلك فكرت بأنها طالما لم تبح بشيء، فإن ترومان لن يعرف أبداً. اعتقدت أن معرفة كم يكرهها أصدقاؤه ستجرحه أن يعرف مدى انحطاط فهمها كان. كما لو أن تومي أودز فكر بأنها لم تكن إنسانة، كما لو أن بياضها، وتعر بياضه، وخطره، ولطبيعة المحظورة تاريخياً لبياضها، شجعته على محاولة تحطيمها من دون أي شعور بالذنب. كانت فكرة مروعة جداً حتى إنها ارتعشت لمجرد التفكير بها.

أصرت على النظر إليهم بلا كراهية بوصفهم أناساً عانوا وقاسوا، وهذا ما خدعها، وجعلها مثل طفلة هلعة ومذعورة منهم. لكنها لم تفكر في حيوات أفراد، شبان من أمثال تومي

أودز تنهار حصونه الهزيلة المقاومة للكراهية تحت تأثير اعتداء شخصي. كان الثأر سلواه الوحيدة وفكرت، ممن سيأخذ رجل كهذا ثأره؟ لن يأخذه من الرجال البيض عامة؛ بالتأكيد لا. لن يأخذه من المأمور أو القاضي أو رجل الأعمال القابع في بيته يمكث على شرابه. لن يأخذه من زوجة رجل الأعمال، لأنها ستصرخ وتزجه في السجن مدى الحياة. هو- تومي أودز- حقق في الواقع (وفهمت هذا جيداً جداً مما شكل سلوى لها) تحسناً وتقدماً في خياره حول الشخص الذي سيعاقبه، وذلك عندما اختارها لأنه، اسمعوا هذا: هو لم يتمل، كما فعل الرجال السود بمنتهى الحماقة لسنوات، خلال عطلة نهاية الأسبوع وطعن رجلاً أسود آخر حتى الموت. ولم يتزوج من سيدة سوداء بهدف تملك، على نحو خاطئ مجدداً، ساريته الخاصة ليجلد الناس عليها. كان هذا بالتأكيد دليلاً على نضج شخصي غريب من جانب تومي، لم يعد هناك أي فتيان بيض أيضاً في الحركة، لهذا لم يعد من الممكن ضربهم أو رميهم بازدراء مترافق مع شعور بالذنب في الشارع خلفها ما حدث. سيدة بيضاء دون أصدقاء. سيدة يفترض المجتمع الأبيض مسبقاً أنها تضاجع كل زنجي تقع عليه عينها. أجل، منطق تومي أودز - على الرغم من أن التعقيد الذي لربما شابه- كان مثالياً

لكن ترومان لم يكن يريدها أن تغادر. لم يعطها المال لتغادر حتى بعد أن أخبرته، وهي في حالة هستيرية أخيراً، ما حدث. اختار ألا يصدقها.

صرخت. اسأل تومي، فقط اسأله! لكن لو فعل، لن نعرف قط

سأل ترومان تومي أودز: «لماذا فعلت ذلك يا صاح»

«لأن امرأتك ليست حراء. لم تقاوم حتى. اكتفت بالاستلقاء تنتظر أن أفرغ»

كانت لين تبكي كل ليلة أثناء نومها. لم يستطع ترومان تحمل الأمر، لهذا فرق المنزل، نام على أريكة في المركز. امتدت يده وقبضت على أسفل حنجرة أودز السوداء الهزيلة،

مثل عنق دجاجة

قال. «إنها أفضل منك»، بينما جحظت عينا تومي أودز، مدعياً الجزع. قال ترومان بسخرية: «أيها الوغد، يا بن القحبة. لقد شعرت بالأسف عليك، لأنك فقدت ذراعك اللعينة».

رفع قبضته المطبقة تحت ذقن أودز وهزه ممسكاً بياقة قميصه نحو الخلف والأمام، بالكاد لامست قدماه الأرض. كان الأمر أشبه برفع كيس ثياب متسخة مهلهلة

«شعرت بالأسف عليك وانظر ماذا فعلت».

لم يرفع أودز يداً ليدافع عن نفسه. نظر إلى عيني ترومان، وكانت عيناه تضحكان. كانت الضحكة فيهما أشبه بمكعبي ثلج ذائبين يلمعان في صحن.

«تتمنى لو أن ذراعي اللعينة هي ما شعرت بالأسف عليه».

«ماذا تقصد، يا بن القحبة؟».

لكن تومي أودز الذي تعب الآن من كونه في وضع غريب، انتزع نفسه من قبضة ترومان. سوّى ياقته ودس قميصه تحت سرواله، مد يده لترتفع منطقة جذمور الكتف من جهته، مثل ديك رومي يصفق بجناحيه، ومرر أصابعه بين شعره

قال «لم لا تستوعب وتدرك الحقيقة. هي لم تتورط معك بسبب أي شيء خسرته».

«لم لا تقول ماذا تقصد!».

قال تومي أودز بمكر «أعني صحيح أنك تتحدث الفرنسية عندما ترغب بإثارة إعجاب الناس، وصحيح أنك ذهبت إلى الكنيسة، وترسم وتمارس أشياء من هذا القبيل وعشت ذات يوم ما وراء البحار لمدة ستة أشهر دون وجود أي رجل أبيض أو منطق حصر. لكن لم تفز بالسيدة الحسناء بسبب ذلك. آه لا!! أنت مثل كتاب لم يسبق لها أن قرأته؛ مثل بلدة

أرادت عبورها، مثل ثمرة مانغو وددت تذوقها لأنه لا ينمو في فناء منزلها يا ولد لو كنت قد فقدت إحدى ذراعيك، لكانت ربما اختطفتك قبل زمن بعيد مما فعلت»

تملكت ترومان رغبة جامحة بتهشيم تومي أودز كان حافزه طاغياً

«يحظى الرجال السود بمعاملة تمييزية يا صاح ليعوضوا عن كل ما حرمنا منه. لم تكن تضاجعك أنت، لقد كانت تكفر عن خطاياها».

قال ترومان: «هذا ليس صحيحاً»، بدا ضعيفاً، حتى في عين نفسه

قال تومي أودز: «شعرت بالأسف علي لأنني أسود يا صاح»، وللمرة الأولى شابت صوته مسحة من الكآبة. «الشيء الوحيد الذي يمنحني بعض العزاء في هذا العالم العبي، وهي تظن أن عليها أن تعوضه من خلال سخاء فرجها». أضحى صوته أجش «كان علي قتلها»

وقف تومي أودز وجهاً لوجه معه. بدا مريعاً وسقيماً ومنهكاً وقذراً. بدا ميتاً. قال: «اسمع يا صاح، أنت تود الدفاع عنها. لا مانع لدي. لا أكترث يا صاح. تود ضربي، أنا جاهز يا صاح تريد قتلي. انظر، لن أتذمر حتى أو أشتكي. هل ترغب بأن أذهب لأجد لك بندقية؟ أم تود فعله بقبضتك؟ هيا يا صاح. اضربني، ستتحسن حالك»

لكن ترومان كان قد استدار وابتعد.

وهكذا، جلست لين وحيدة، لا تبارح المنزل الآن لأنها تخشى من الذهاب إلى المركز الذي ساهمت في إنشائه. خائفة وتشعر بالخزي وغير مدركة بما يكفي لقيمتها الخاصة لتكون غاضبة من كونها تشعر بالخزي. ظلت تعد الأيام حتى تأكدت من أنها ليست حاملا. عندما باعت إحدى قصائدها- إلى جامع أعمال أدبية أراد أن يوثق الحركة من خلال الشعر- وأراد توثيقها من خلال وجهة نظر السيدة البيضاء- ابتاعت حبوباً لمنع الحمل، تكفيها لشهرين.

أوصدت لين الباب على نفسها بسبب ما فعله تومي أودر. أوصدته حتى في وجه أصدقائه هيدج وألتونا وريموند. عادوا مراراً وتكراراً. كانت في بادئ الأمر تنظر إليهم من خلف ستارة النافذة، مسربلة بالعار وتشعر بالحنق بسبب الخوف الذي ينتابها في نهاية الأمر- وبدافعٍ من الخوف فحسب- فتحت الباب وسرعان ما عاد كل شيء على ما يبدو إلى طبيعته. كان الفتيان دمثين وخجلين أكثر من أي وقت مضى. لم يكن تروماں يتواجد في البيت كثيراً وإن تواجد فلم يكن يبادلها أطراف الحديث. وفي الليالي التي كانت الوحدة تصرعها إلى درجة الانتحار، لعبت الداما مع ألفونزو شقيق ألتونا الذي يعمل في الفناء المخصص للخردة. رجل ظهر فجأة غير مدرك على الإطلاق لوجود «الحركة» ولم تنتابه الرغبة قط بالإدلاء بصوته أو بالتظاهر أو بأي شيء من هذا القبيل. عاملها بالكياسة المتصلبة والرصينة التي عُرف بها زنوج الزمن الجميل. ولقاء لطفه، دعته للنوم معها، وليرد جميلها، لحسها من شحمتي أذنيها حتى أصابع قدميها.

تحوّل منزلها في ليالي أيام السبت إلى مكانٍ يصخ بالموسيقا. أصبحت محميه لأن لأنه وجدت في ألفونزو صديقاً خاصاً. (بدا الجميع مدركاً أن تروماں لم يعد يكترث) جاء الرجال والنساء إلى المنزل لأنهم سمعوا بأن المرء يستطيع الاستماع إلى الأسطوانات الموسيقيه والرقص وتدخين الحشيش. ولكن إن اعتقدت بأن صداقتها لألفونزو ستحميها من الرجال الآخرين، فقد كانت على خطأ. استجدوها وتملقوها وترجوها وبعد صدهم، رأت دائماً كيف تتغير وجوههم الرقيقة والوديه لتغدو جامدة تغطيها مسحه من الكراهية. ارتعدت وبدأت تذعن مع مرور الأشهر. حاولت عبثاً أن تكون صداقات معهم ليصبحوا أصدقاءها مثل ألفونزو لكنهم بدؤوا يترجلون من سياراتهم على عجل، د حدونها الى السرير (أو يمارسون الجنس على أرض الغرفة، أو في مقابل الجدار). كما لو أنها عاهرة، ينهضون ويغادرون ولم يتحدثوا إليها في العلن.

عرفت النسوة ذلك. بدأن يلعنها ويهددنها، وبدأت بعضهن يعتدين عليها جسدياً. وبدأت وعلى نحوٍ غير متوقع بالتلذذ بعصبهن الضال، لاستخدامه كاعتراف بخصالها التي تصعّب مقاومتها في تلك الفترة. وكلّما كانت تجد نفسها محاطة بنسوة سود، تجد في ذلك حجة لإسدال شعرها وتمشيطه. وعندما لفّته على يدها واستشعرت به ينزلق على خصرها، خُيّل إليها أنها تمتلك كنوزاً لم يملكنها يوماً.

بدأت تعتقد بأن الرجال ينكحونها حباً بها وليس كرهاً لها. وعدم كرههم لها منحها شعوراً بأنها قادرة على البقاء على قيد الحياة. كان بوسعها تجرّع كراهية والدها ووالدتها، ولكنها عجزت عن تجرّع كراهية الرجال السود لها. وعندما توقفوا عن المجيء إليها- ولم تعرف لماذا فعلوا ذلك- أدركت أنها كانت بحاجتهم. وبعدها، بقي هناك لين وترومان فحسب، وعندما نفدت حبوب منع الحمل، حملت بكامارا، واستقلّت أخيراً حافلة إلى نيويورك، حيث أسكنتها مؤسسة الرعاية الصحية في شقة مكونة من غرفة واحدة تقع بالقرب من الجادة «سي».

وهبت ترومان بسخاء إلى مريديان لتعيده إليها مستجيبة لإلحاحه

عن إعادته مجدداً إلى ذاته

انطلق قطار الأنفاق مخترقاً النفق، يزعق وينثر الشرارات مثل شهاب ولم يكن بوسع لين الجلوس بينما يلوذ بالفرار. عبر كالومض شارع «نانتي سيكس»، ثم «شارع 125»، حدث بعدها وقوف صادم، إذ قاومت العربة التوقف المجاني، وانزلقت الأبواب لتنغلق بقوة محدثة صوت ارتطام قوي. لم تنجح رسوم الغرافيتي المنتشرة على الجدران كبقعٍ يطغى عليها اللونان الأحمر الفاقع والأصفر الصارخ في إضاءة المقصورة الرطبة والمعتمة للمحطة

همس صبي إلى زميله: «انتبه لموضع قدميك يا صاح»، أثناء توقفها على الدرجات الملوثة بالشحوم وهي تعبر.

أجاب الصبي: «على الفور».

عبرت بين الناس بسرعة للخروج واستنشاق بعض الهواء، فيما كان جزء من ذهنها يفكر بأن الهواء المنعش هو بالضبط ما تحتاج إليه لم تعد تنتبه إلى ان المدينة برمتها غدت خالية من أيّ هواء منعش. في أحيان قليلة فحسب، عندما كانت تصطحب كامارا إلى المنتزه، وحتى حينها استدارت يساراً لتخرج من قطار الانفاق، مهرولة الآن بساقيها الرشيقتين، متخيلة نفسها أنها أصبحت بالفعل داخل الشقة، حيث المكان نظيف بإضاءة هادئة وجدران بيض حيث وصل ترومان الليل بالنهار ليحرر تحف الامريكيين من أصل افريقي، تحف الفن التي لا تضاهى.

لن يتشاجر، قالت لنفسها محذرة سنتصرف كسيدة راقية شديدة ... بالمفصل وسيستجيب بدوره لصرخة المساعدة التي أطلقتها من أجل طفلتها!

رغبت بالقول باستماتة عذبة: «لقد لحق الأذى بأسماء مقلدة لورينا بويع في طريقة

كلامها أو القول وهي تقف بتراخٍ ويداها في جيبتيها مثل ميا فارو وهي تنظر إلى مقصورة تعذ شطائر التاكو: «أقصد، الطفلة في حالة يرثى لها». أو مثل ساندي ديبس لكن بطريقة ظريفة، وهي على وشك الاختناق بقينها: «وقعت... حادثة. ابنتنا. تعرضت لاعتداء. آه هلا أسرعت قليلاً!» وكان ترومان ليستجيب مدفوعاً باللطف الغامر الذي تعرفه عنه

صعدت الدرج قاطعة كل درجتين معاً، شعرها أشعث ومتسخ، غطى وجهها السخام، إلى أن وقفت أمام باب منزله. الشقة 3- سي ترومان هيلد، فنان.

فكرت حينها فقط باستجماع أنفاسها، لملمة نفسها، بلع بطنها وقد شعرت به رخواً ومنفوخاً في الوقت ذاته. لم يعد قياس خصرها سبعة. كانت أهمية هذا تزداد اضطراداً كلما طالت فترة وقوفها متكوّمة على نفسها هناك.

حتى عندما هجرها ترومان، لم تتوقف عن معرفة مقاس خصرها وحجم جسدها، جراء سنوات دأبت خلالها على معرفة كيف يقارن جسدها بأجساد النسوة السود. قال: «النسوة السود يطلقن العنان لأنفسهن». حتى عندما كان يرسمهن كعملاقات مدهلات ينجبن مقاتلي العالم الجديد كان يضيف «إنهن سمينات جداً»، حتى عندما كن ينحت مجسماً كبيراً لـ «بيسي سميث» من الرخام الصلب، مداعباً بشاعتها وأطرافها الجميلة بيد معجبة

اصابعها التي كانت طيعة حينها بفضل الرقص، أصبحت مثل قشه في مهب الريح. قال إن شعرها الطويل أغنية الضوء، غير متشابك ولامع وحر. ومع ذلك توقف في النهاية عن قول تلك الأشياء، بصوتٍ عالٍ على الأقل. كان كما لو ان الاجساد الشهوانية لسود ذات الاثداء الكبيرة كالبطيخ والشعر الاشعث نتاج من الشوك - مخلوقات نحتت من طينته نفسها- قد كلت لسانه واسكتته بدل يطالبن به. عندما كانت تدنف لي الغرفة حيث انكب على رسم سيدة سوداء ورسم جسدها المتموّر الحافق الخصب، كان يخفي عمله عنها، أو يغطيه، أو يطردها من الغرفة.

أحبت في بادئ الأمر الأشكال المرسومة- لا سيما لوحات النساء في الجنوب- المنحوتات، الصابرة والطافرة رغم كل شيء. ولكن عندما تغير ترومان، كان عليها أن تتغير أيضاً، إلى أن جاء يوم لم تعد تطيق فيه النظر إلى النساء، رغم أنها تعرف معظمهن، وقد أحبتهن. وفي ذلك الوقت، كانت مستعدة لإطلاقه. تقريباً. النساء المرسومات والمنحوتات جعلنها تشعر بأنها بلا أي قيمة، على يقين من أن ترومان، الذي قاتل من خلال فنه من أجل حقيقة والدته وعماته وخالاته وعشيقاته، من أجل جمالهن وعظمتهن، سيتوق على نحوٍ طبيعي لاستعادتهن كائنات من لحم ودم.

قال مردداً إنه سيظل دائماً والد كامارا. لن يهجرها قط على الرغم من أنها بيضاء البشرة.

رنت الجرس مطولاً وبإلحاح.

تمتمت «لم بحق الجحيم لا يجيب». جمعت سترتها بإحكام أكثر على جسدها وأسدلت ذراعيها. سمعت صوت طحن وطقطقة كيس من موز الجنة وقد تهشم في جيبها. كان في جيبها الآخر كرة مطاطية صغيرة وبعض الخيطان وشريحة من الجبن أوقعتها كامارا في جيبها في غفلة منها. قروش جمعتها من ملابس كامارا في المستشفى تخشخش في محفظتها.

مر ضوء عبر أصابع قدميها قبل فتح الباب. ترومان، وقف وقد حدّل شعره إلى ضفائر صغيرة، ناظراً إليها.

قالت «هذه أنا». حاولت رسم ابتسامة على وجهها. ابتسمت في عتمته.

لم يفك سلسلة الباب.

«من الطارق يا تروي؟»، جاء صوت من غرفة النوم سائلاً. شعرت لين بتنميل في أسفل عنقها، كما لو أن طفحاً جلدياً يحاول اختراق الجلد

أجاب. «دقيقة» حرر سلسلة الباب بحذر. ولكن عندما تقدمت لين نحوه، اصطدمت به. كان يمشي نحوها، ماسكاً الباب ليغلقه حلمه.

قالت: «سحقاً»، وتراجعت. «لماذا لا تخبر مريديان أنني أنا الطارق لا أسرار بيننا، أليس كذلك؟».

«ماذا تريدين يا لين؟».

قالت: «حقاً» كانت ما تزال ترسم على وجهها ابتسامة بلهاء بشوشة جداً «ظننت أنك تمنحني فرصة الدخول إلى المنزل وإخبارك على نحوٍ لائق، إن لم يكن على نحوٍ مريح بالضبط. أنا عطشى، هل لديك صودا؟» عرفت أنها تتصرف كعاهرة سخيفة- إحدى عاهراته المفضلات، تتصرف وفق صفتها الحميدة الغالبة، ولكن لم تستطع السيطرة على نفسها. كيف لها أن تخبره أن ابنته ذات الست سنوات التي أصرّ على تلقيبها باسم الأميرة (وكانت تقول له لقب مبتذل، مبتذل)- قد تعرضت لاعتداء على يد رجل بالغ وترقد الآن شبه ميتة في المستشفى. كيف لها أن تخبره أن دعمه هو كل ما تحتاجه، واقفة على الدرج تلفها العتمة؟

قال ترومان «إنها ليست مريديان». مد يده إلى جيب سرواله الأحمر وأخرج سيجارة الصغير استندت إلى الجدار تفكر- بعقل العاهرة السخيفة التي كانت عليها كنت تحلب عنك وقدمتك لمريديان لمريديان السوداء ذات البشرة البرونزية، وفمها الغليظ الذي يشبه فم قومها السود، وشعرها الأشعث الذي يشبه شعر النسوة السود

تمتمت محذرة نفسها «لن أفتعل فضيحة» «لن نتشاجر كعهدنا دائماً»

قال ترومان: «بالطبع لن نتشاجر». سحبتها عين الفنان من وجه أبيض ظمآن وشفاه مشققة إلى الانتفاخات الغليظة الدميمة التي خُيل لها أنها كانت تخبئها تحت معطفها.

قالت: «هل هي شخص أعرفه؟»، مرافقة سؤالها بقهقهة، مفتعلة تماماً كابتسامتها.

«كلا».

«لن أفتعل فضيحة» بدأت مجدداً «لن نتشاجر»، لكن قبل أن ينجح في إيقافها، كانت قد دفعت الباب وفتحته ووقفت في منتصف الطريق وسط الغرفة محدقة في عيني فتاة شقراء صغيرة، ترتدي ثوباً داخلياً صغيراً جداً وشفافاً جداً وبالكاد امتلكت الوقت لتلاحظ- قبل أن يلفها ترومان- أن شعر عانة الفتاة كان أشقر تماماً مثل شعر رأسها.

«هلا أخبرتني لماذا جئت إلى هنا لإزعاجي؟ أم أن هذه الزيارة إضافة جديدة لتصرفاتك الخرائية؟».

إضافة جديدة. ودت لو تؤكد له لكنها لم تستطع التفوه بكلمة واحدة. وقفت بين ترومان والفتاة ونقلت نظرها بينهما. قالت الفتاة «أنا...» وقاطعها ترومان

أمرها وهو يدير رأسه «عودي إلى هناك». «لكن أنا...» بدأت الفتاة مجدداً

وانفجرت ليس ضاحكة. ضحكت وضحكت وضحكت. ضحكت لدرجة شعرت بوخز في خاصرتها. ثم توقفت. شعرت بالطمع لحلوى محددة: [illegible] لماذا لا تعلم شيئاً في حياتي؟ لماذا يعمه جميع سكان هذا العالم [illegible] عداي؟ هل أنا مجرد حمقاء، أو ماذا؟ ما رأيك بالآنسة؟» انعطفت نحو [illegible]

قالت: «لا تسكتني يا حلوة. تكلمي. أود سماع [illegible] الآنسة [illegible]». اقترب ترومان منها فأبعدته

قالت الفتاة: «ترومان؟» مشت متحاشية الاقتراب من لين كما لو أن قملاً في رأسها لكن ترومان أدار ظهره. وقف أمام النافذة يدخن، وينظر إلى الشارع

قالت لين: «تبأ»، ولاحظت أن صوتها قد تغير تماماً الآن؛ بدت لا تشبه نفسها قط. «لا تلقي بالاً لذلك الوغد العجوز. تكلمي. أنت أيتها العاهرة السحيمة!».

ثم خرجت كلمات الفتاة، ملحنة كأغنية، جنوبية كالرياح التجارية، جاءت ناعمة مثل مواء هرة بائسة.

تحدثت الفتاة ببطء: «لماذا، ما الذي حدث؟»، وفاح من فمها عبق رائحة صنوبر «ألاباما»، وعبير المغنوليا القادم من «جورجيا» و«الميسيسيبي». «نحن نعيش معاً منذ شهرين. يقول ترومان- إنه حالما يبيع المزيد من لوحاته سنتزوج. لا ضرورة أن أقول لك كيف سيقابل أهلي الأمر». تجرأ ومض مؤامرة على الطهور في عينيها. رفعت يدها الناعمة مشيرة إلى جميع أصدقاء لين القدامى الراحلين والكئيبين يحدقون بسكينة وهم معلقون على الجدران. «أليسوا رائعين؟» سألت ببراءة

سيدتان

وبعدها جاء الجزء الذي تعرفه مريديان، لأنها كانت الشخص الأول الذي يرسل ترومان في طلبه عند موت كامارا. لم تكن لين تعرف ما حدث لسكارليت أوهارا. كان الاثنان بحاجة إلى مريديان، ومريديان متواجدة بأعجوبة هناك.

«ساعديني لأخرج من هذا الخراء» قال ترومان عندما ترجلت مريديان من الحافلة ومشت نحوه لتنتهي بين ذراعيه وساعدته، ولكنها حاولت أيضاً مساعدة لين.

أمضت شهراً متنقلة بين الاستديو المضيء الذي يملكه في طرف المدينة (حيث فاجأها وجود وجهها على كل جدار) وبين كوخ لين الحقير الصغير في الطرف الآخر للمدينة وبين المكانين، استنزفا قوتها تماماً. لم تقوَ لاحقاً حتى على التفكير بذلك الشهر المريع من دون النظر إليه بوصفه قصة تُحكى عن شخص آخر. استرجعت الأيام الأخيرة على وجه الخصوص وكأنها أحد تلك الأفلام الصامتة حيث مريديان هيل النجمة البائسة تدخل قطارات الأنفاق وتخرج منها، تطهو الطعام وتستمع إلى مونولوجات مشحونة بالكآبة، تغادر سريرها مرغمة بطلب من لين التي تتعلق بها مثل طفل خائف من العتمة- أو بطلب من ترومان الذي أغرق جسده تقريباً في جسدها، حشا فمه بلحمها كما لو أنه يموت جوعاً لها بكل معنى الكلمة. ثم عادت المشاعر التي كانت تكنها نحو ترومان إليه، ولكنها لم تكن مشاعر جنسية. كانت حباً خالصاً خالياً من التملك أو الازدراء. كان الحب ما طهرها من كل مشاعر اللوم الناجمة عن ذاكرتها المتقدة جداً. لقد كان الغفران.

تذكرت لين آخر ليلة قضتها مع مريديان.

«متى سيأتي ترومان؟» سألت لأنها لم ترغب بأن تكون هناك عندما يحضر.

قالت لين «يجب أن يصل في أي لحظة الآن». كانت قد بدأت بالانتقال بين المكانين،

وشعرت بنفسها أثناء الانتقال تكبر في العمر. بينما كانتا جالستين تشاهدان برنامجاً تلفزيونياً حول إحدى تلك الملاحم الجنوبية التي تتحدث عن العلاقة بين الرجل الجنوبي الأبيض والجنون، وقرب الرجل الجنوبي الأسود من الأرض. لم يكن البرنامج يتطرق إلى مشاكل النساء سواء كن بيضاً أو سوداً. جلستا جلسة أنس مرتديات ثياب الحمام، تشاهدان الحقول الخضر في الجنوب والأوجه الجلفة (كلمتهما) للسود أكثر مما شاهدتا الجنون. كان الجنون بالنسبة إليهما مثل لغز نجحتا مؤقتاً في حله (كانت مريديان تقرأ أحياناً في فترة العصر قصائد على مسامع لين كتبتها مارغريت ووكر فيما كانت بدورها تحاول صنع جدائل صغيرة ملتصقة من شعر مريديان الأشعث)، لكنهما كانتا تواقتين لمدح أكثر تعقيداً وتتطلّب المزيد من الصبر. كانتا تتحدثان أحياناً بحميمية كأختين، وعندما لم تتبادلا أطراف الحديث، كانتا تسمحان للتلفاز بكسر الصمت.

عُرضت على الشاشة ضفة نهر طويل تغطيه الأشجار، وكان الناس على اختلافهم - أمهات وآباء وأطفالاً وأجداداً - يصطادون بأسلوب راقٍ، ثم اقتربت آلة التصوير من شاب أسود وسيم ذي عينين مخادعتين كنجمتين تحتضران. كان يقول، الآن وبعد أن أضحى على وشك الفوز بحق التصويت، من أين يحصل على المال ليدفع ثمن الطعام لأطفاله؟ يبدو أن الحركة برمتها الهادفة لمنح السود حق التصويت ولدخول إلى النُزل كانت فقط لتعلمه أن كل شيء في هذه البلاد، ابتداءً من التصويت وحتى النزل، يحتاج إلى تغيير في الحقيقة. قال، بدا أن ما يحتاجه هو بندقية

كان الأمر واضحاً: إن الأثرياء يمتلكون البلاد وإنه يتعين على الفقراء أن يتحرروا من هذه الملكية قبل أن يكون لـ «الحرية» أي معنى وأن تحررهم شيء أساسي جداً كي يفهموا أمريكا التي شعروا بأنهم سذج جداً حتى لمناقشة الأمر. وعلى الرغم من ذلك، أسرهما الوجه. كان نوعاً من الوجوه التي رأتاها فقط في الجنوب، وجه يرتب حتى بمعاناة دفينة

عميقاً فيه، وأثارت حرارة الألم شمعة خلف العينين. كان تواقاً للفهم، لتطويق كل شيء، والصراع للعيش بكرامة وفهم كل شيء في الوقت عينه، للسماح لكل الأشياء المتصارية في الطبيعة، كل احتمال وشخصية غريبة، هذا الصراع قد أسبغ عليه سكينة منهكة، سكينة راسخة وثابتة حتى يمكن أن يُساء فهمها لتبدو غباء. أشعل الوجه داخلهما رغبة بلحب. أوقظ داخلهما رغبة بالنحيب جعلهما ترغبان بالصراخ مادين على الشاب للهرب، أو على الاقل لتحذيره من عمق الأذى الذي قد يطاله لقد أيقظ حنينهما للديار.

«هل يوجد لدينا خوخ؟».

«أميل لأن أرضى بغصن شجرة صنوبر».

ونهضت مريديان ولين، فتشتا في الشقة، تبحثان عن أي أثر لديارهما الجنوبي السابق. وجدت لين لحافها الذي نُقشت عليه «مشية الديك الرومي» فنشرته على ركبتيها.

في الشقة الصغيرة الحقيرة، كان هناك تذكارات من أماكن اخرى واشياء أخرى كان هناك على سبيل المثال أريكة طفل يمكن أن تصبح سريراً مطوياً في زاويه غرفة لحلوس و.ن فتحت باب الخزانة بسرعة كبيرة، ستسقط الألعاب على رأسك، واحديه ببض صغيره معطوبة مخبأة- إحدى المردتين على أي حال- تحت مسند السرير. فساتين صغيره مهترئة أو ممزقة أو باهتة اللون او أصلحت على نحو جيد، معلقه بمسامير في غرفه حنمة صغيرة.

كان غياب الطفلة نفسها هو ما جمعهما معا أخيرا لقد تجرعت مع مرارة إهمال مرارة لا تختلف عن فقدان مرتن لوثر كينغ او مالكوم اكس و جورج جاكسون تسحقهما الكآبة اكثر لان الطفلة كامارا (تيمناً بكمارا لاي، الروائي الافريقي ... لم ... تعرف بالطبع عن وجود كامرا، لكن كتابه تالق الملك قد ضرب على وتر لين الحساس)، كانت

شخصية معروفة، فتاة صغيرة في السادسة من عمرها- قصت بعد أن تعرضت لأفعال مريعة عرفتا أن معاناتها لا تجعل منها شخصاً متمرداً؛ لكن معرفة أن جرائم الشغف أو الكراهية ضد الأطفال لا تعتبر جرائم متفردة في مجتمع لا يحظى فيه الاطفال بقيمة خاصة، فشلت في التخفيف من ألمهما.

انتظرتا حتى يهدأ الألم الناجم عن موت كامارا انتظرتا طلب الغفران من بعضهما بعضاً. انتظرتا إلى أن يصبح بمقدورهما التحدث ثانية. وانتظرتا ترومان، والد كامارا، كي يأتي إلى زوجته التي واجهت مأساتها بعدد المرات التي واجهت فيها نساء قبلها ممن يتلقين معونات من مؤسسة الرعاية الصحية مآبي: عادت لتناول حبوب منع الحمل، إفراط في ممارسة الجنس (أو مغالاة في التقشف؛ لم تكن مريديان متأكدة أياً من الحالتين حدثت معها)، هامت عائدة إلى الجنوب، حيث عاشت هي وترومان حياة سعيدة لفترة وجيزة بدا أنها لا تتذكر بوضوح مدتها. ثم عانت من انهيار عقلي على الملأ. كثير من الناس لم يشهدوا انهياراً عقلياً مماثلاً. (إذ عندما كان أقاربهم يفزعون بوتيرة ثابتة ما كانوا يطلقون عى ذلك اسم انهيار الانهيار كان في نهاية المطاف مختلفاً عن فقدان رباطة الجأش- كما عندما نقول «فلان وفلان فقدا رباطة جأشهما». وعادة ما يكون ذلك في جنازة ما

قالت مريديان: «أود إخبارك بأمر ما، حاولت كثيراً ألا أكرهك وأعتقد انني نجحت طوال الوقت».

قالت لين «ليس من السهل الإحجام عن كره سيدة بيضاء كلبه لمعرفه

«أوافقك الرأي».

لم تفرغ حقائب مريديان في الحقيقة جمعت سراويلها الضيقه وفرشاة اسنانها من الحمام.

«شكراً مريديان على كل شيء. حقيقة لا أعرف ما الذي كنت سأفعله من دونك»

قلت مريديان: «لكان لديك ترومان».

قالت لين: «اه ترومان. الشيء الأخير الذي يبقينا معاً ذفن بسلام» وعضت شفتها في محاولة لكبح دموعها. قالت: «أعتقد أنني يجب أن أكون سعيدة أظن أنني يجب أن أكون شاكرة لأن الأمر انتهى. (يمكنك الذهاب إلى بيتك الآن) هذا ما قاله ترومان لي كما لو أن هذا الإغراء الصغير الذي يغمرك لاكتشاف كيف يعيش النصف الآخر ما عاد يغمرك الآن، لهذا يمكنك الاكتفاء بأخذ مؤخرتك البيضاء الأسفة إلى ديارك. ألا يمكنك تحيلي وأنا أقتحم حلوة أهلي: (مرحباً جميعاً، ذلك الزنجي الذي كنت على علاقة معه هجرني. طفلتي الخلاسية ماتت. يخيل إلي أنني جاهزة لإكمال دراستي العليا). يا مريديان». قالت وهي تنظر إليها: «هل تدركين الفوضى التي تعم كافة جوانب حياتنا؟»

قالت مريديان: «أجل».

«لا يمكنني العودة إلى دياري. لا ديار لي. كنت لأعود لو استطعت لذلك سبيلاً اعرف أن البيض شريرون ومزعجون، أعرف أنهم ملعونون لكن ما فائدة هذا؟ اعرف ان هناك في داخلي مشاعر، مثل أي كائن بشري آخر لم تكن كامارا مجرد طفلة سوداء سرقت في الشارع كانت طفلتي علي أن أمشي فوق قبر ابنتي للعودة، ولن افعل ذلك»

قالت مريديان: «أعرف».

عانقتها مريديان، هي عانقتها بدورها وافترقتا سرعان ما عرفت لين في اليوم، وهي تمكر في الجنوب.

لين

أجل، لقد عادت إلى الجنوب. عادت إلى المنزل الصغير غير المطلي كأن صديقاً مهجوراً ومقفراً ومنبوذاً.

لم تتوقف لتتساءل إن كان هناك من سيوجه إليها تهماً باقتحام المنزل ودخوله. جرجرت نفسها لتصل إلى الشرفة، متحسسة الزجاج تحت قدميها، وحاولت أولاً أن تنظر عبر النافذة. كان بإمكانها إدخال يدها، إذ فُقدت بعض الألواح الخشبية. ثم حاولت فتح الباب لم يكن موصداً. لم تتساءل بينها وبين نفسها إن كانت ستجده موصداً أم لا. دخلت إلى المنزل كما اعتادت أن تفعل، دعست بسرعة على عضادة الباب، نزلت عنها ثم مدت يدها لإشعال الضوء. لم يكن يعمل، ربما بسبب قطع التيار الكهربائي عن المنزل أو ربما لسبب آخر، لم تكن لتكترث. عم الظلام المكان. سقطت على الأرض، ومزت أصابعها بشبكة بيت عنكبوت يعلوها الغبار لتقع على أشياء مألوفة موجودة على عتبة النافذة. سرعان ما أشعلت بقايا شمعة متعددة الألوان. احترق الغبار وصعدت رائحة جافة ولاذعة. كان سرير الطفلة هناك. رمت نفسها عليه، مسببة تصاعد المزيد من الغبار. بسطت وشاحها ووضعته تحت رأسها وخدها. كانت متعبة أكثر مما كانت جائعة. خلعت حذاءها ورمته وفرشت معطفها فوقها. وغطت في النوم.

نامت على مدار يوم كامل، وعندما استيقظت كان الظلام لا يزال مخيماً. نهضت مترنحة، شعرت لحظة نهوضها بالانتعاش، غير محتاجة إلى الحبوب الزرقاء والبرتقالية الموجودة في زجاجة بلاستيكية نظيفة في حقيبتها. تنعلت حذاءها بسهولة في الظلام، كانت قدماها باردتين واتجهت نحو النافذة. كانت ليلة تشوبها الغيوم. غيوم رمادية مضيئة لأن القمر خلفها. ولم تتمكن من رؤية سوى الشرفة من خلال الأشجار. الفضاء هادئ، حتى الأشجار لم تتمايل وتتهامس كما كانت تفعل حسبما تتذكر. ولكن تمكن أن يعزى هذا

إلى أن الصيف لم يحلّ بعد. لم يكن قد حلّ الربيع حتى، على الرغم من أن المكان يبدو هنا وكأن الربيع قد أتى. عقب الشتاء الطويل الذي شهده الشمال، حيث كانت رياح الشتاء لا تزال تعصف والثلج تبع الحافلة حتى وصلت إلى ولاية «تينيسي» الجنوبية. كان الهواء هنا خفيفاً ودافئاً على بشرتها، رطباً بعض الشيء؛ وفكرت مدفوعة بذلك الارتباط الشعري السهل الذي لم تكن معجبة به في نفسها، أن هناك شيئاً ما يقبّلها.

كانا يجلسان في ذلك الفناء شهري تموز وآب وفي الأيام الحارة، يأكلان عدداً لا يُحصى من البطيخ، ليسيل العصير اللزج البارد اللطيف ويصنع لنفسه طريقاً على ذراعيها. صوّرها ذات مرة وهي تأكل البطيخ، وأفسدت الخطوط الموجودة على ذراعيها الصورة؛ كان الخطان مثل عروق مقلوبة، كما لو أن شيئاً غروياً قد خلّف ندبة مائلة إلى البياض حمرت في جلدها. أحبت الصورة على الرغم من ذلك. كان شعرها كعادته مسترسلاً، يصل إلى أسفل خصرها، أسود وخالياً من التجعيد. عيناها تبرقان (على الرغم من أنهما سوداوان، في الصورة دون أن تكونا بنيتين بعض الشيء)، جريئة تبحث عن الإبهام الذي سيضغط على زر آلة التصوير، دون مفاجآت. تنتظر. وعندما نظرت الآن إلى الدرج، ظنت أنها ربما ما تزال تجلس هناك، غير متأثرة بكل ما حدث على مر هذه السنوات. جلسة هناك. ما تزال نحيلة، غطت طبقة سمراء مريعة بسعادة وجهها الأبيض، لتبدو متألقة ومفعمة بالصحة والعافية، وتخفي على أي حال مرضها، هكذا حسبت

المبنى الخارجي لم يكن خارجياً تماماً، وإنما كان على الشرفة الخلفية غرفة حقيرة غطت الخدوش بابها. صغيرة لا تحتوي سوى على الأغراض الأساسية. شغلت غرفة شمعة أخرى، لم يبدُ أن أحداً عاش هنا منذ غادرت. كان هناك ما تزال قطعة من زجاج فوق حوض الغسيل، مثل مثلث من الفضة غير النقية، تجمع الغبار وتكوّر شكل المرحاض فقاعات وكان الماء داخله يغلي، قبل أن يعمل. وقعت منصفات الأقلام المعلقة على الحائط

أو تآكلت، ولكن عندما رفعت شمعتها نحو إحدى الملصقات، رأت الخطوط الرمادية لمئات الأشكال السارية، على الرغم من أن الكلمات امحت تماماً تحت هذه الصورة الباهتة. بدا كما لو أن المتظاهرين تحركوا في مكان شبحي وحرافي نوعاً ما، وكأنهم هم انفسهم أشباح وليسوا على الاقل حانقين أو مدركين لما حدث عندما طموا فوق الصورة، فوق الجدار، ليحطوا في مكان أكثر موتاً ونهائية

تحركت لتقشر برتقالة وتأكلها. جلست بهدوء وطوت قدمها تحت جسدها، الشمعة على الأرض، تومض ويراقصها النسيم الذي يهب بين فينة وأخرى عابراً النافذة الخالية من الزجاج. حملت في كيسها برتقالات، وثلاث تفاحات وقطعة من الجبنة المثلثة المشتراة من متجر يبيع البضائع المستوردة: حيث تعرف مالكو الحانوت عليها وتجمدا في مكانهما. وقفت مبتسمة بطريقة مستفزة تشبه (كانت الابتسامة تثير استفزارها أيضاً، ولكن كانت ما تزال ترسمها على محياها) تلك التي ظهرت على وجهها عندما واجهت المتعصبين الذين ظنوا أيضاً أنهم امتلكوها. لم يقذفوا الطعام لها تماماً فوق طاولة الدفع، كما فعلوا في الأيام الاولى لوجودها هناك، عندما أتت بصحبة رجل أو رجلين أو سيدة او سيدتين من السود. أو عندما بدأت علائم الحمل تظهر عليها

كانت حقيقة في البداية قادرة على سماع شهيق أنفاسهم السيدة الرزينة الواقفة على آلة تسجيل أسعار المشتريات، السيدة الاصغر المشرفة على الطهاة السود في مطبخ، الفتى لشاب الذي اضحى في نهاية المطاف (في الفترة التي كانت فيها كمار على وشك الولادة) يتحدث بلطف معها، ولكن بشيء من الخوف منها، مثل تخوف من حبيبه، من سلامته المرعرعة. انتزعت مالها، ونظرت نشاب نحوهم جميعا، مطمئنة لعين لعنتها لتحاكمهم احرجوها بشدة لأنها يهودية، وارادوا في الواقع ان يجعلوها تشعر بلون بشرتها البيضاء بل وباكثر من بياض بشرتها، البياض الذي أحاط الآن هذه العائلة (التي تعود

أصولها، كما سمعت إلى نيويورك) مثل كمن.

في الأيام الأولى، كانت تترجل من سيارتها لتشتري بيرة ألمانية مع أصدقائها السود وتتبادل النظرات مع الموجودين في المتجر، وتخوض صراعاً لم يكن لدى أصدقائها أدنى فكرة عنه، نظرات حانقة متبادلة بينها وبين القائمين الثلاثة على الحانوت الفتى الشاب الذي كان أصلع وهو في هذا العمر الصغير، وبشرته متقرحة جراء الوقوف هناك وتقطيع شرائح السجق أسبوعاً بعد آخر، كان بمقدوره أخيراً التحدث بعينيه بوضوح تام قال، أنت شخص غير مرحب به هنا. لكن وعلى الرغم من ذلك عودي مجدداً. لم يكن الوقت قد تأخر كثيراً. (كان هذا قبل أن تصبح حاملاً). قالوا، هل وجدت بيرة؟ هل وجدت بيرة؟ قالت عيناها للسيدة ذات الشعر المصفف بابتذال على طريقة سكان الجنوب مثل عش الدبور: أنت ثملة. ثملة. محاطة بأطعمة غريبة! وقالت عيناها للفتى الأصلع: أجل! أجل! لقد وجدت أنا سعيدة. لماذا برأيك أنا مشرقة على هذا النحو؟ غبي. واهن. مقطع شرائح السجق. لن أمارس الجنس معك. أعود مجدداً إليك؟ أيها الدودة. هل جننت. وماذا ستفعل إن عدت؟ ستكلفني بلف البسطرمة؟ بصيد المخللات؟ وضيع. أيها المخلوق الميت. صانع المال. مقطع السجق. خابز الحلة!

لم يسألوها مرة عفن تكون وكانت بالنسبة إليهم تتحدث إنجليزية بريطانية تعلمتها من مدرسة متخصصة بتعليم مبادئ الكياسة. كان هذا فحسب كل ما عرفوه. أما ما عرفته عنهم فإنهم مقتلعون من جذورهم، كما كان حالهم عليه دوماً، ليزرعوا في مكان يصطفون فيه بدور مناسب لهم مثل أصابع زائدة في قدم، مكان لا أحد يثق بهم، يستغلهم عند الإمكان أي شخص لديه طموحات سياسية، مكان عاشوا فيه يبيعون اللحوم والأجبان المستوردة، ليجنوا المال بسرعة البرق لأنهم ما كانوا ليفكروا بشيء يفعلونه أكثر تشويقاً من هذا في حياتهم. يجنون المال لشراء منازل مبهرة السطوع، كبيرة منفصلة، خارج

المدينة يجنون المال ليرسلوا بناتهم اللواتي يحملن اسم إلين وأولادهم الذين يحملون اسم ديفيد إلى كلية الحقوق وكلية الطب، دون نطق كلمة من العبرية الرسمية، باستثناء عندما يزورون المعبد في الشمال حيث يشعرون أيضاً بأنهم غرباء.

يدخل الأشخاص غير اليهود إلى متجر الأجبان واللحوم المستوردة ويخرجون بهدوء، تفوح منهم رائحة التسامح والسحر الجنوبيين، مثل سكين تحز الابتسامات القسرية، وتقدير الطعام (الأصلي) القسري غريب، وغير اعتيادي وممتاز. تغيير من فطيرة الجوز والباميا التي يتناولونها مع كأس طويل من جعة الزنجبيل أو من كوكتيل توم كولينز

لقد راقبتهم على مدار السنوات التي عاشتها في البلدة (لأنها كانت تتسوق هناك، على الرغم من أن بضائع المتجر كانت باهظة الثمن ونقودها شحيحة) حتى إنها كانت تراقب المكان المحيط بالمتجر بعد إغلاقه عقب تفجير المعبد. لقد صعقوا حسبما ذكرت الصحف. أصيبوا بالهلع خلال التفجير! ضحكت من سذاجتهم. ضحكت من «سلامتهم» المزعزعة ضحكت بازدراء مرير حتى إنها ما كانت قادرة على التحدث مع يهودي من الجنوب دون أن تنتابها رغبة بصفعه أو بصفعها

ذاب الجبن، علبة من جبن «الكاممبر» الدانمركي، مثل الزبدة في لسانها.

أعادها طعم الجبن مجدداً إلى الواقع، على الرغم من أنها أبقت رأسها مسنوداً على ظهر كرسيها، بينما عيناها مغلقتان. جلست، فتحت عينيها، نظرت الى مريديان التي غطت في النوم، ووثبت على قدميها، تتثاءب بصوت عالٍ.

قلت «السود ليسوا أناساً مميزين جداً. أمقت الاعتراف بهذا لكنهم ليسوا مميزين»

قلت مريديان «ربما»، كما لو أنها كانت مستيقظة تماماً طوال الوقت «لقد فات الأوان الذي يكون فيه المرء مميزاً. اليهود يحاربون من أجل إسرائيل بيد عالقة في شقّ

موجود في حائط المبكى. انظري إلى الأمر من هذه الناحية، السود واليهود صامدون قدر استطاعتهم» فركت لين عينيها.

قالت لين «يا إلهي، هذا محبط. إنه حتى محبط أكثر من معرفة أني أتوق لعودة ترومان».

قالت مريديان: «هذا محبط».

قالت لين: «آه، أعرف أنه ليس بالشخص المميز. لكنه أنقذني من قدر أسوأ من الموت. لأنني بفضله لا يمكن أن أكون أبداً غبية كوالدتي. حتى إن تمرنت على غض الطرف عن حقيقة العالم، حتى لو عشت في سكيرديل أو في مكان غريب آخر، ولم أتناول قط ما لذ وطاب، لكنت على الرغم من ذلك عرفت الحقيقة. لم أقتلع بالمطرة لأكون فرداً من الظالمين. لا أحبهم؛ يدفعونني للشعور بالذنب طوال الوقت. إنهم قبيحون ولا يعرفون أن الفقراء يهزؤون بهم وينتظرون فقط إخراجهم قسراً. كلا، ترومان ليس شخصاً مميزاً، لكنه مرشد»، وأضافت. «كما أنه لا يوجد شخص كامل»

قلت مريديان، غامزة «باستثناء النسوة البيض».

قالت لين «أجل، لكن وقتهن سيحين أيضاً».

النهاية

لا سماء غريبة تحميني،

لا جناح غريب يقي وجهي.

أقف كشاهدة على الناس العاديين،

ناجية من تلك الفترة، ومن ذلك المكان

أخماتوفا «تراتيل الموتى»

حرة أخيراً

أحد أيام شهر نيسان، 1968

قبل فترة طويلة من استيقاظ «أتلانتا»، تواجدت بالقرب من الكنيسة، ظهرها مستند على حجر على غرار الفقراء المحيطين بها، والنار الهزيلة المشتعلة في المدخنة تصارع برد شهر نيسان، أحضرت الدجاج المقلي ملفوفاً بورق القصدير وقد أجهزت عليه الآن ببطء بينما تنتظر شروق الشمس. العائلات الموجودة في الجوار روت لأولادها حكايا عن الأيام الخوالي قبل انطلاق السود في مظاهرات، والإدلاء بأصواتهم، وقبل أن يسمحوا لغضبهم أو حتى لإنهاكهم بالظهور. ثمة حكايا أيضاً عن صيد حيوانات الراكون والأبسوم في أرجاء تلال «جورجيا» الحمراء، وأساطير عن نسوة ورجال أقوياء، من الهنود والسود، عرفوا الأماكن السرية للأرض ورفضوا أن يصبحوا فريسة ويقتلعوا منها. كانوا يرتدون كعادتهم أجمل ملابسهم كل يوم أحد، كانوا مذعنين؛ وضع السود على أذرعهم أشرطة من الكريب مصنوعة ربما من الحديد.

كانوا هناك في الصباح الباكر عندما بدأ عدد الحشد بالازدياد مفسحين المحل لغيرهم، تاركين أمكنتهم حول مدخل الكنيسة، متقدمين على الرغم من ذلك نحو الأمام، و أعناقهم المتعبة مشرئبة، لتلمح النعش ولو للحظة، لتلقي نظرة خاطفة عليه وعلى من بداخله

كانوا هناك عندما بدأت سيارات الليموزين بالوصول، وهناك عندما زحفت العائلة الجريحة صاعدة الدرج، وهناك عندما عرج أعضاء مجلس الشيوخ المرشحين لمنصب الرئاسة، وهناك عندما سار حشد من رجال الدين الهوينا، وهناك عندما نزحت نجوم السينما، كما لو أنهم نفحوا ببطء، ليلجؤوا إلى الكنيسة، وهناك كان كل من ترفعوا عن رؤية الحشد التافه من الناس المكرة الجائعين للاقتراب، الذين وقفوا في الحرج طوال فترة مراسم

الجنازة (يزعقون لهم مثل موسيقا الميوراك الغليظة) وينقلون أرجلهم في أحديتهم الضيقة جذاً، ويتنحنحون على نحوٍ متكرر ليكبحوا دموعهم والصرخات اليائسة أيضاً

لاحقاً، عقب وضع النعش على العربة التي يجرها بغل، بدؤوا يغنون أغنية الرجل الميت الذي كان عاشقاً. «جئت إلى الحديقة وحيداً... عندما كان الندى ما يزال يفترش الورد»

ي لها من أغنية قديمة أثيرة! وحيادية. كبار الشخصيات الذين لم يبتعدوا بعد- ويلعنون الآن الطريق الذي سيقطعونه مشياً على الأقدام ويمتد على طول أربعة أميال خلف الرجل العظيم الميت- فتحوا أفواههم بتوقٍ بمحاكاة لطيفة. وقف أمام مريديان رجل يتباهى بكلب بودل أبيض صغير مقيد بحبل كان الرجل أسود البشرة، ذا وجه ضحوك. عندما تلفت يمنة ويسرة لمعت إحدى أسنانه الملبسة بالذهب في فمه. على ظهر الكلب، وضعت لافتة باللون الأرجواني وكُتب عليها بأحرف بيض واضحة «لديّ حلم»

ثم انتبهت للأمر: بينما كانوا يسيرون، بدأ الناس يتحدثون إلى بعضهم بعضاً بصوت عالٍ، حتى ،ن محادثاتهم كانت رنانة. سألوا عن مهن بعضهم بعضاً. تبادلوا السؤال عن أفراد عائلاتهم وتحدثوا عن الطقس. رنّت طلبات علب الكوكا كولا والطعام في كل مكان، ظهر الفوشار وبرز السجق فوق مظلاتهم الواسعة الملونة. برعت الشمس من خلف الغيوم، وخلع المشيعون معاطفهم ووسعوا نطاق أحزمتهم وربطات أعناقهم. وهؤلاء الذين لم يعرفوا أبداً الأغنية رقصوا على أي حال مع الأغنية الأثيرة عندما تسارع إيقاعها، و مثلات الأجواء بشعور من الارتياح والتحرر، كان هذا مثمرا

استدارت مريديان وقد شعرت بالحرج، وكأنها تخاطب الرجل الميت «إنها إحدى خصال السود يا صاح». قال صبي أسود نحيل يدق على طبل مرتجل «لا نتعامل مع الموت بطريقة البيض نفسها». كان يتحدث إلى شاب وفتاة من البيض يشعران بالذنب مع كل كلمة.

كان هناك سيدة سوداء خلفها تضحك، تضحك كما لو أن جميع همومها اختفت.

أسئلة

«أخشى أنني لن أكون على قدر المطلوب مني- ما يطلبه مني التاريخ وعلم الاقتصاد...».

« ثمة الكثير لتعطيه، غير أنك قادر على القتل. يجب أن يكون هذا جلياً»

«لكنه ليس كذلك».

قال ترومان: «اعتقدت أن أرفع ذراعي وأصرخ: (الموت للبيض) أيضاً لكني أعرف أنني لا أقصد ذلك بالفعل. لا أقصد ذلك حقاً. لست مثل الرجال الذين هاجموا الشرطة أثناء أعمال الشغب. فكرت كيف سيكون الأمر عندما أقتل شخصاً ما. عندما فكرت بأنهم سيستدعونني. في الجيش، القتل أمر عادي كما ظننت. ولأني لم أستدع، بدا التفكير بالأمر لا طائل منه».

«في الجيش تقتل ببساطة لتبقى على قيد الحياة القتل الثوري ممنهج تضع جدولاً بأسماء الأشخاص الذين أساؤوا معاملتك، تسجلهم كمجموعة، وتتخلص منهم ببساطة، كما لو كنت تتخلص من مرض».

«مرض له أوجه وأولاد.. وأصوات بشرية»

«نعم لكنه مرض رغم ذلك» كانت المحادثة بالنسبة إلى ترومان أكاديمية، ليتمكن من قول نقاطه بترتيب وصفاء. ثم أردف «بالمناسبة هل تعتقدين أن بوسعك قتل شخص ما، يقف أمامك مثل مرض الخناق أو الجدري؟ أو السرطان؟» على الرغم من أن الأثرياء كانوا بنظر ترومان هم سرطان العالم، إلا أنه ما كان ليمانع أن يكون هو نفسه ثريا

ضحكت مريديان، الازدواجية المعاندة لطبيعتها سلبتها أخيراً. «أحب أن أكون على يقين

بأن بوسعي فعل ذلك. في أحيان أخرى أتأكد بأنني لست قادرة وحتى لو شعرت بأني أستطيع فعل ذلك طوال الوقت، ما كنت لأعرف على الرغم من ذلك. كيف لي أن أعرف قبل أن أحظى بفرصة قتل شخص ما؟ كما أنني لا أثق بالثوريين بما يكفي لأدع لهم اختيار من يتعين علي قتله. سينتهي بي الأمر على الأرجح على الجانب الخطأ من فرقة الإعدام»

قال ترومان. «ما من أحد سيطلب منك أن تقتلي».

«لأنني امرأة؟».

قال ترومان «يا يسوع، لأنه من الواضح أنك لا تصلحين له أنت حساسة جداً. طلقة واحدة حتى وإن لم تصب ستجعلك في حالة يرثى لها».

قالت مريديان. «هذا صحيح. ولكن هل تعتقد أن لذلك علاقة بالأمر؟ لا أعتقد ذلك. أقصد، أعتقد أن جميعنا نحن من نرغب بأن يحظى السود والفقراء بفرص متساوية وجميع الأشياء الجيدة في الحياة، علينا أن نسأل أنفسنا عن موقفنا من القتل، حتى إن لم يطرح علينا أحد هذا السؤال من قبل. حتى لو لم يسألنا أحد. وإلا فلن نعرف أبداً- قبل خوض القتال- مدى قابليتنا للاستسلام».

«افرضي أنك عرفت، وقطعت الشك باليقين بأن باستطاعتك قتل أشخاص آخرين في سبيل قضية عادلة، ماذا كنت ستفعلين؟ هل كنت ستعقدين العزم على قتلهم؟»

قالت مريديان. «لن أفعل ذلك بمفردي قط. كما أن شرارة الثورة ما كانت لتشتعل بجريمة قتل- قد تبدأ الحروب بهذه الطريقة- لكن مع التعليم»

قال ترومان بازدراء «آه صحيح، تعليم»

قالت مريديان «أحب أن أعلم مجدداً. أحترم التعليم. عندما يمارس وفق منهج سليم

في نهاية المطاف الناس يرغبون بأن يعلّمهم شخص ما كيف يعيشون...».

«وهل تعتقدين أن بإمكانك تعليمهم؟»

«لا أعرف. أتخيل التعليم الجيد مثل حلقة من الناس المخلصين الجالسين ليتبادلوا أسئلة ذات مغزى. لا أنظر إليه على أنه طريقة لتلقين الأجوبة. ثمة الكثير من المفاهيم الخاطئة المتعلقة بالتعليم التي مفادها أنه مجرد إشارة إلى الأشياء التي ينبغي أن نرغب بها».

قال ترومان: «مريديان، هل تدركين أنه لم يعد أحد يفكر بهذه الأمور بعد الآن؟ الثورة كانت الشغل الشاغل في الستينيات: ميدغر ومالكولم ومارتن وجورج وأنجيلا ديفيس والهنود السود والناس الذين يفجرون المباني ويفجرون بعضهم بعضاً ولكن كل هذا انتهى الآن. أنا نفسي أصنع تمثالاً لكريسبوس أتوكس احتفالاً بذكراه المئوية الثانية. جميعنا جئنا إلى هنا لنبقى: السود والفقراء والهنود والآن جميع هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين من الهند الغربية يعبدون أمريكا كما هي عليه الآن».

«إذن هل تعتقد أن الثورة، على غرار أي شيء آخر في أمريكا، قد تقزمت لتصبح بدعة؟»

قال ترومان: «بالطبع، القادة قتلوا، الشباب الهائج اشتروهم بوظائف تعميهم على فقرهم، وقلدوا أسلوب ملابس الفقراء في الجادة السابعة وتعرفين كم من فتيات بروكلين من البيض من الطبقة الوسطى اللواتي يصففن شعرهن بطريقة غريبة».

«لكن ألا تعتقد أن الأسئلة الرئيسة التي طرحها كينغ ومالكولم والفهد لا تزال مطروحة ألا تعتقد أن الناس، في أعماقهم، ما زالوا يحاولون الوصول إلى إجابات عن هذه الأسئلة؟»

قال ترومان: «كلّا»

سألت مريديان وكان من الواضح أنها لم تصدقه: «ألا يوجد مكان في الثورة لشخص لا يقوى على القتل».

سأل ترومان وهو ينحني نحوها. «لماذا تدفعين نفسك إلى حافة الجنون بهذه الأسئلة؟».

«عندما يحين الوقت، ثقي بأنك ستفعلين الصواب».

«الصواب؟ ام الأمر الذي سينقذ حياتي؟».

«لا تتصيدي الأخطاء».

«لست كذلك، ألا تلاحظ أن ما تعنيه أن علي أن أثق بنفسي لفعل الأمر (الصائب). ولكن طالما كنت أعاني من مشكلة التمييز بين الأمر (الصائب) والأمر (الصحيح). الأمر الصحيح يقضي بألّا نقتل أبداً. سأؤمن بذلك ما حييت. الأمر الصائب أن تقتل عندما يكون القتل ضرورياً. وتقول أحياناً عرفت أن هذا هو التصرف الصحيح»

لم تستطع منع نفسها من مصارعة هذه الأسئلة

تماماً مثلما عجز ترومان عن منع نفسه من التفكير بأن هذا الصراع لا طائل منه في النهاية يفعل الناس ما يتوجب عليهم فعله للنجاة بأنفسهم يرضخون ويتمردون، يتبنون القضية ويطلقون النار عليها، أو يتساقطون ببساطة مع نثار الزمن. مهما كان ولم يعرضوا حياتهم أو أحد أعضاء جسدهم للخطر ويقلقون بشأن ما قد يخسرونه، وهذا ما أبعدهم عن مريديان.

كان منزلاً أبيض صغيراً، دهنه حديثاً مجتمع أسود، بنوافذ وأبواب خضر أسفر لبيب على إحدى ضفتي نهر فوق شارع قذر كما هو حال جميع الأبواب الأخرى كان

«الشارع» طريقاً مليئاً بالأخاديد، ويوجد على كل جهة من الطريق مجاري مياه ضحلة مليئة بالأعشاب والأزهار الصفر المبعثرة. تعذرت رؤية البيت من الطريق بشكل كامل تقريباً، إذ يخفيه سور مصنوع من الفولاذ المطلي بالزنك المغطى بأغصان النباتات المعرشة التي ترهو بنفسها كل صيف لتكشف عن أمجاد صباحية زرقاء وأرجوانية وأزهار نبات العسلية البرتقالية والصفراء، وفي الشتاء غطاه شجر اللبلاب الأخضر الكثيف الأوراق. غطت النباتات المعرشة البوابة أيضاً وفُتحت بمشبك حديدي صدئ. المدخنة فحسب من الممكن رؤيتها من ذلك الطريق، وخط من السقف الأسود. انحدر الماء ليفضي إلى قناة كبيرة تجري على طول الطريق، أطلق عليها سكان المنطقة بمرارة عاجزة اسم «البركة». كان يحظر على الأطفال اللعب خارج المنازل عندما تمطر لأن منسوب مياه البحيرة يرتفع بصمت ويتحرك كاللص إلى أن يغطي رأس طفل بعمر الثلاث سنوات

لكن الاطفال أحبوا اللعب في البركة في الطقس الحار، وكانوا يتسللون إلى خلف منازلهم ليتخبطوا بها. حوض السباحة العام المخصص للبيض، الذي طلبت الحكومة الفيدرالية صنعه، فتح أبوابه لاستقبال السود، لكن أغلقه مسؤولو المدينة الذين كانوا جميعهم أثرياء ومن البيض، ويملكون علاوة على ذلك أحواض سباحة خاصة بهم إضافة إلى منازلهم الخاصة. لم يكن هناك أبداً أحواض سباحة للسود، ولهذا فقد تعلمت القلة القليلة منهم السباحة.

كانت الفيضانات تصبح أخطر على نحوٍ خاص في الربيع والخريف لأن غزر الأمطار تهطل في هاتين الفترتين ولكن بالاضافة إلى ذلك، مسؤولو المدينة انفسهم الذين اغلقوا حوض السباحة العام عمدوا إلى تشييد جزان ضخم على مستوى منخفض جداً على بعد مسافة قريبة جداً من حي السود عندما كان منسوب مياه الخزان يرتفع جراء الامطار المتواصلة، كي يسمح للمياه الفائضة ان تسيل في أي اتجاه تختاره ونظر إلى ان هذا

يحدث دون أي إشارة إنذار، كانت المياه تغمر الأطفال العاصين المتواجدين في الحوض وتبتلعهم.

وكلما حدث هذا، وكان يحدث كل عام، كان مجتمع السود يبكي بحكم العادة ويقدم الهدايا المكونة من الفواكه والدجاج المقلي إلى العائلة المكلومة. كان الرجال يقفون بتثاقل في مجموعات، لاعنين العمدة ومفوض المدينة وأعضاء إدارة مجلس البلدية، الذين ويا للسخرية لم يشر إليهم قط سوى بوصفهم «آباء المدينة». كانت النسوة يجلسن مع والدة الطفل الراحل، يتذكرن بدورهن أطفالهن الراحلين، يحدقن ويكلن الشتائم واللعنات لأزواجهن- الذين تحاشوا نظراتهن- ويهززن رؤوسهن.

كانت مريديان هي من قادتهم إلى مكتب العمدة، حملت فوق ذراعيها الجثة المتفسخة لطفل عمره خمس سنوات علق في مجاري الصرف الصحي لمدة يومين قبل أن يخرجوه باستخدام جزافة ذات خطاف. كان جسد الطفل مخزياً جداً ومشوهاً جداً ومثيراً لاشمئزاز حامله، حتى إن والدته ألقت نظرة واحدة عليه ورفضت لمسه. بالنسبة إلى الأشخاص الذين تبعوا مريديان، بدا الأمر وكأنها تحمل باقة كبيرة من الأزهار ذات السيقان الطويلة كما لو أن رائحة الجثة زكية، وفقاً لتعابير وجه مريديان الوادعة والمستقرة. تبعوها إلى مكان اجتماع البلدية الذي يرأسه العمدة ذو النظارتين والشعر الأبيض، ووضعت الطفل الذي بدأ جسده يتحلل بالقرب من مطرقته. استدار الناس كما استدارت وتبعوها وهي تخرج. كانوا خلفها عندما، على بعد مسافة قريبة من مركز البلدية، مال جسدها فجأة وهوت على الأرض.

جاؤوا إليها عندما نهضت مجدداً، وعرضوا عليها كل شيء، بما في ذلك الوعد بأن يسموا الطفلة التي ستولد على اسمها تيمناً بها. لكنها عوضاً عن ذلك دفعتهم لأن يقطعوا عهداً بأن يتعلموا كيف يدلون بأصواتهم، ليكون أصغر فعل مقاوم بمقاومته ضد قاتل ابنهم

ضحك الدس في بادئ الأمر بتوتر. وقال الذين لم يفعلوا شيئاً من قبل سوى التحبيب المتواصل والتذمر بين بعضهم بعضاً: «لكن هذا ليس بالأمر المهم. سيهزأ الناس منا لأن هذا ليس تغييراً جذرياً»، منحازين إلى الاعتقاد بأن التغيير الجذري سيسمو في أرواحهم، مثل درع وضاح، بين ليلة وضحاها

كان هناك غرفتان، في إحداهما، قدر ساخن وطاولة وكرسي مهترئ (جلبه الجيران عندما أحضروا الطعام والبقرة)، والغرفة الأخرى، حيث نامت مريديان، اشتملت فقط على كيس نوم ممدد على الأرض، وثمة بعض أدوات الاستحمام على عتبة النافذة (التي تفقدها ترومان من قبل) وإناء من الأزهار البرية موجود في زجاجة نبيذ خضراء موضوعة في الزاوية. والرسائل بالطبع.

بحث ترومان دائماً عن مريديان، حتى عندما لم يكن يدرك ذلك، ودائماً ما وجدها، كما لو أنها تشده بخيط غير مرئي، وهي في الوقت نفسه لم تكن يوماً كما توقعها، ولن تكون هذه المرة استثناء.

ما كانت لتستقل سيارته الخضراء الجديدة. قالت. «هذه سيارة جميلة، لكني أفضل المشي».

قال ترومان «قبل سنتين، عندما كان طراز احتجاجات جديداً وما يزال رائجاً، كان علينا أن نمشي. يمكننا الآن التنقل بواسطة السيارة. أم إن ركوب السيارات الجديدة جزء مما تحتجين عليه؟».

قالت «اعتقد أنه شيء من هذا القبيل»

قال: «لماذا لا تركزين جهودك، وتتخلصين من الآلام التي تعذبك؟»

كامارا

بعد ربيع العام 1968، بدأت مريديان بالذهاب إلى الكنيسة على نحوٍ غير منتظم. المرة الأولى كانت يوم أحد قائظ في شهر حزيران، وقفت في مدخل متجر على الجهة المقابلة وراحت تراقب الناس. وصلوا بسياراتهم اللامعة الخضراء والبنية والسوداء، وترجلوا بثيابهم المرتبة وشعرهم اللامع المضفر والمسرّح بعناية، يحملون حقائب يد مصنوعة من الجلد المغطى بالورنيش، وارتدى الرجال بدلاتٍ رسمية وجميلة بنية داكنة أو رمادية أو سوداء، أما النساء فارتدين فساتين ملونة زهرية فاقعة وصفراء وزرقاء زاهية موشاة بالأزهار.

شعرت بذعر ما وهي تراقبهم. بدا أنهم ما زالوا على حالهم وكل ما حدث لم يغير فيهم شيئاً. حقاً، لم تكن الكنيسة تشبه الكنائس التي عرفتها في طفولتها، لم تكن متهالكة أو صغيرة. كانت كبيرة مسقوفة بالقرميد وذات نوافذ مصنوعة من الزجاج الملون المرتب على شكل مربعات صفر وبنية، لم تكن حمراً أو زرقاً. مبنى مهيب، وعلى الرغم من ذلك لم يتطاول ليصل السماء، كما كان حال الكاتدرائيات، ولكنها مثبتة بقوة بالأرض. كانت مدركة للحرارة المحمومة المحيطة بالكنيسة والناس المتحركين ببطء، صاعدين الدرج بتفاخر، كما لو أنهم يتحركون داخل صورة سرمدية. فيما وقفت هي على الجهة المقابلة من الشارع فلم تكن جزءاً من الصورة على العكس، شعرت بنفسها دخيلة، كعين منفردة خلف آلة التصوير المصوّبة من ركنٍ في شبابها، منخرطة في المشهد الآن لمجرد أنها كانت تراقب. لو أنها لم تكن هناك تراقب، لما كان المشهد ذاته تماماً، «الصورة» نفسها لم تلحظ قط أن آلة التصوير غائبة.

على مدار أسابيع عديدة، كانت تختار كل يوم أحد كنيسة مختلفة في ذهابها لسبب لم تكن واثقة منه تماماً، وجدت نفسها أمام كنيسة بيضاء كبيرة، معمدانية (بنوافذ مصنوعة

من الزجاج الملون بالأزرق والأحمر، وربما هذا ما جذبها). حبست أنفاسها وصعدت الدرج ودلفت إلى الكنيسة. كانت الكنيسة مليئة تقريباً. قادها الحاجب- فتى هادئ قوي البنية لكنه محبوس في بدلته الزرقاء الداكنة- إلى مقعدها بالقرب من المدخل. كان من غير الواقعي بالنسبة إليها أن الناس ما تزال تفد، تنهض حقيقة من السرير صباح يوم الأحد وتأتي إلى الكنيسة. حدقت فيهم وهم يمزون بقربها، وكان فمها مفتوحاً بعض الشيء.

مشى رجل مكتنز وذو بشرة داكنة وعينين حمراوين متمختين- لم تستطع تحديد إن كانت عينين حزينتين أم لئيمتين- ببطء ومز بقرب مقعدها وصعد إلى المنبر، مما لفت انتباهها إلى مجموعة صغيرة من الناس المجتمعين هناك. محلوق متواضع الهيئة يرتدي بدلة بنية مائلة إلى الأصفر، جلب من خلف المذبح صورة كبيرة لشهيد قتل خلال صراع الحقوق المدنية. نهضت فتاتان سوداوان ضئيلتان على الفور ووضعتا مزهريات طويلة تشتمل على أزهار الزنبق- بيض وصافية (سيقانها الخضر شمعية وريانة)- على جانبي المذبح.

وقفت عندما بدأ الناس يرتلون أغنية كانت فيما مضى مألوفة تماماً بالنسبة إليها. لكنها أخفقت الآن في تذكر كلماتها؛ بدت الكلمات عالقة في أحد الأروقة الضيقة في ذاكرتها. حدقت بالناس الواقفين خلف المذبح، وقبضت ذاهلة على ظهر المقعد أمامها. لم ترغب حينها بالعثور على ما كانت تبحث عنه. لم تكن لديها أدنى فكرة حقاً عما كانت تبحث. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هناك. فتحت فمها وحاولت الغناء، لكنها سرعان ما أدركت أن لحن الأغنية هو ما تذكرته، وليس كلماتها، لأن هذه الكلمات بدت جديدة تماماً بالنسبة إليها.

همس الرجل ذو العينين الحمراوين إلى الناس المحيطين به، ماسحاً وجهه وعنقه بمنديل بدا ناصع البياض مقارنة ببشرته اللامعة. نهض رجل وطلب من أحدهم أن يقودهم

أثناء الصلاة الرجل الذي تقدم لم يركع وقف منتصباً، كتفاه مالا نحو الخلف، وجهه صارم أمام حشد المصلين. قال إنهم سعداء لاقتناص هذه الفرصة ليكونوا معاً مجدداً. قال إنهم شاكرون لكونهم على قيد الحياة، ولأنهم، وهذا الأهم، يتمتعون بصحة جيدة، ومتعاضدون كمجتمع وكعائلات. قال إنه شاكر لأن بوسعهم الاعتماد على بعضهم بعضاً في الضراء. قال إنه لن يصلي بعد الآن لأن هناك الكثير من العمل ينتظر المجتمع، وجلس.

تبع هذه الصلاة أغنية أخرى غريبة تماماً عن مريديان، لم تستطع تمييز كلماتها نهائياً بسبب اللحن الحربي الخالص. بدا لمريديان أن هذا كان متعمداً؛ على أي حال، توقف وعيها عن الانقياد خلف بحث عبثي عن كلمات لم تستطع تذكرها، ولكن الكلمات بدأت عوضاً عن ذلك تقحم نفسها ببطء بفعل القوة الظاهرة للموسيقا المتحدية للموت على نحوٍ مبتذل.

وجدت نفسها تقتبس كلمات قصيدة مارغريت ووكر «لتكتب الأغاني الحربية/ لتختفي المرثيات!» بدأت بالاقتباس ونظرت بسرعة حولها. بدا الناس مطابقين لما كانوا عليه منذ عرفت السود المتدينين، أي على مدار حياتها، لكنهم غيروا الموسيقا! لقد صعقت.

تحدث الكاهن- الثلاثيني، الذي ارتدى بدلة سوداء أنيقة وربطة عنق مخططة كانت زنجة من قبل- بصوت يشبه على نحو كبير صوت مارتن لوثر كينغ حتى إن مريديان ظنت في البداية أن قصده تقليده أو الاستهزاء به. جالت ببصرها لترى إن كان أحد غيرها تظهر عليه أمارات الدهشة أو السخرية، لكن أوجه جميع الأشخاص الجالسين على مقعدها بدت رزينة. وحتى الشبان الذين كانوا يثرثرون على طول الممر من جهتها لم تبد عليهم معالم الارتباك. أول شعور راودها كان الضحك بمرارة على الواعظ المتفاخر المقلد لكنها عدلت عن ذلك وفضلت الاستماع إليه. أتى على ذكر داود وجالوت باختصار، ليوضح إحدى النقاط. ثم اندفع الواعظ مهاجماً الرئيس نيكسون، الذي أطلق عليه لقب «المخادع» رنا ببطره نحو الشبان الموجودين وسط الحضور وحظر عليهم المشاركة في حرب فيتنام.

طلب من الشابات التوقف عن البحث عن أزواج ومحاولة ملء رؤوسهن بشيء مفيد. قال للمصلين الآخرين إن عليهم أن يشعروا بالخزي من الطريقة التي يدفعون بها أولادهم الشبان لخوض معاركهم عوضا عنهم. أخبرهم أنهم كانوا جبناء ومثيرين للشفقة عندما أرسلوا أولادهم الصغار بمفردهم إلى أحياء البيض لارتياد المدرسة. أساء للمعلمين السود الحاضرين الذين، حسب قوله، لم يعملوا بجد كاف لتعليم الشباب السود لأنهم لا يؤمنون بهم على ما هو واضح وجلي.

صدمت مريديان لأنه كان يقصد تقليد كينغ. عرفت وعرف جميع المصلين، عرفوا أنه كان يحكي ذلك بصوت خفيض عن سبق الإصرار. كان الأمر أشبه بمسرحية. أدهش هذا مريديان؛ وصوت الواعظ لم يكن صوته على الإطلاق، وإنما صوت ملايين الناس الذين لم يعد بوسعهم الكلام؛ أخرج صوتا متهدجا، ليكون مشحونا أحيانا وهادئا أحيانا أخرى. لم يأتِ على ذكر الله، سوى كمرجع.

أدركت فجأة أن نبرة كلمة «آمين» الصادرة عن المصلين كانت مختلفة. لم تنطق بخشوع، لم يصرخوا بها بقنوط. لم يثب أحد عن مقعده. لم يتعرق ولا حتى شخص واحد. اقتصر كل ما حدث على نطق كلمة «آمين» بوضوح خال من أي عواطف، وبنغمة قوية توحي بأنها تقول: لقد صفا ذهننا.

عندما نهض الرجل ذو العينين الحمراوين، مضت إلى جانبه عبر الكنيسة. قدمه الواعظ على أنه والد القتيل الذي خاطب [illegible] من [illegible] نعم وبعد تقديمه، تذكرته مريديان. عندما قتل ولده فقد صورته الفرد موقفه في [illegible] عنه في الصحف. هدم مزرعة بيديه [illegible] [illegible] [illegible] وتعبيره صامت، [illegible] إلى خارج الولاية و[illegible] في مصحة عقلية [illegible] [illegible] ووس رائد وهادئا كالموت، مدمن على المهدئات [illegible] ودار في [illegible] (همس الناس

وعقدوا لامال) أنه سيترشح لنيل أحد المناصب لكن هذا لم يترجم على أرض الواقع.

عاش بسلام على أنقاض بيته المهدم، عاد رشده إليه- وما كان مرحباً بعودته- لعدة أيام في إحدى الفترات ثم صرخ باعلى صوته معلناً فقدان رشده مجدداً كان يتحدث في بعض الأحيان بصوت رصين تشوبه مسحة من السخرية إلى روجته وإلى اولاد آخرين موتى (فقدوا في وقت سابق في حريق). ابنه الشهيد كان كل عائلته، ومصدر فخره عندما كان أصغر سناً، كان ابنه نحيلاً وأسود، رقيقاً ومهذباً مثل والدته، ويداه الصغيرتان العزيزتان- ستكونان حصنه وملاذه عندما يشيخ لم يستوعب خيار ابنه لخوض الصراع. واستوعب بدرجة أقل ما حدث عندما انخرط ابنه بالفعل في القتال، وبدأ يتحدث عن الرصاص والقنابل والثورة. وبسبب كلامه فقط (على حد علم والده، أو حسبما اعتقد أو أراد أن يعرف) قتلوه. وبالنسبة إلى والده- في الأيام التي كان فيها بكامل قواه العقلية، خدر خياشيمه بالمهدئات (لأن الأمر كان حقيقياً، أكل حفنة من المهدئات)- لم يكن لما جرى أي معنى. حسب أن قوة حبه وحدها (ورغم ندرة المرات التي أدرك فيها قوة حبه!) ستتمكن بطريقة أو بأخرى من إنقاذ ابنه. لكن حبه- حب إيثاري ومنفتح يعبر عنه بالقبل واللمسات- لم يفعل شيئاً سوى جعل ابنه قوياً بما يكفي لمقاومة كل ما كان لا يتسم بصفة الحب قوياً ومحبوباً مدركاً من خلال عيني والده لقيمته العظيمة، انطلق لتغيير طرق العالم لذي يخشاه والده وقتلوه.

عرف والده جمال روح ابنه، كما يعرف صانع الجواهر بهاء الجوهرة الكامنة تحت الحجر، وعرف الرقة الرابضة في قلبه المحارب وبسبب خسارته نح وعاف الحياة واعتبرها متقلبة ولامنطقية وشعر بحياته فارغة، وبقلبه محروما

حاول الناس ن يكونوا لطفاء معه، وشعر بيقين، حتى وهو مجنون، بانهم سيكونون كذلك كن شعوراً تقاسمه مع ابنه. فبصرف النظر عن شعور الارتياب الذي كن يكنه ابنه

إزاء البيض والاثرياء، أو الناس الذين يشنون الحروب لتدمير الآخرين، تملكه إيمان كامل بالناس الذين ترعرع بينهم. أناس كانوا على غرار والده- ميكانيكي بسيط، امتلك حانوتاً صغيراً تسكنه الفوضى شهدت جدرانه عمله الدقيق والصادق الذي كان يعتز به- الذي كان قدراً على تحمل وطأة أي ظلم أو أي ثورة طالما عرفوا أنهم معاً وآمنوا أن الألم الذي قاسوه سيمضي إلى نهاية اخلاقية. الناس يفتحون قلوبهم على مصراعيها امام خسارة شخصية ألمت بشخص آخر، إن كان يسمح لهم بذلك. لكن الأب الذي كان مجنوناً نصف الوقت، وفرحاً لأنه كذلك، لم يسمح لاحد بالاقتراب. انصرفوا عنه بعد فترة وترك وحيداً مع ذكرياته وأشباحه

كان حضوره مطلوباً على نحو خاص فقط في مناسبات مثل هذه المناسبة، فقط في الذكرى السنوية لوفاة ولده، وخرج إلى المدارس والكنائس العديدة. لم ينظر قط إلى صورة ولده، كان يكتفي بالمجيء والوقوف أمام الناس لأنهم، يحتاجون إلى من يذكرهم، وطلبوا منه الحضور. قبلوه بأي طريقة يقدم بها نفسه وعرفوا أنه لا يمكن التكهن بتصرفاته. وقف اليوم لدقائق عديدة، كانت حنجرته تعمل، وعيناه حمراوين أكثر من المعتاد. حابسة من الدموع. كان حشد المصلين هادئاً وساد شعور من التبجيل، وعم توقع بالامتنان المسبق بصرف النظر عما سيقدمه لهم. خرجت الكلمات من حنجرة بدت متلعثمة بفعل الشجن والذاكرة والأسى والمخدرات والكلمات. مقدمة الخطاب الذي تعلمه بمشقة قبل سنوات تحسباً لمثل هذه المناسبات عندما يُطلب منه ما يتجاوز طاقته، كانت الكلمات نفسها التي يقولها كل عام. الكلمتان نفساهما تماماً «ابني مات»

وقف لدقائق عديدة أكثر، ليتفرج عليه الناس، غارقاً في ذكرياته، مغموراً بالارتباك والفقدان. ثم أعيد بحنو إلى مقعده، هوى جسده الضخم بتثاقل على كرسيه، تدلت ذراعاه بتراخٍ، مظهراً للحشد راحتي يديه الشاحبتين. ثم صدحت الموسيقى العذبة، التي استمدت

روحها المتمردة من مثل هذا الأسى الذي تعجز الكلمات عن التعبير عنه، ومرر طبق لجمع التبرعات النقدية التي ستذهب إلى صندوق سحن الكنيسة، وحث الواعظ جميع من يسمع صوته على التصويت للمرشحين السود في يوم الثالث والعشرين من الشهر. وانتهى القداس.

لفترة وجيزة، لم يتحرك المصلون. جلست مريديان تفكر بمدى الكره الذي حملته في قلبها دائماً للكنيسة. كلما تواجدت في كنيسة، تشعر بالاختناق، كما لو ان جدران الكنيسة تطبق على صدرها. حتى إنها شعرت عندما كانت طفلة بالشفقة على الناس الذين كانوا يجلسون طوال مدة المواعظ المملة والمطوّلة يحركون مراوحهم بسام في الصيف لمواجهة القيظ، ويأملون دون طائل، كما شعرت، بأن القادم أجمل. الموسيقى التي أحبتها. إضافة إلى الموسيقا، أحبت فقط النوافذ الزجاجية الملونة، عندما كانت توجد، لأن الزجاج الملون يغير الضوء العادي ليغدو شيئاً أكثر ثراء، ضوءاً ذهبياً ووردياً وبنفسجيا كان مريحاً وجميلاً واثار مشاعر التبجيل التي أخفقت المواعظ في إيثارها. رفعت رأسها وهي تفكر بالزجاج لأن لتنظر إلى نافذة زجاجية ملونة في الجهة المقابلة لها.

عوضاً عن المسيح التقليدي الشاحب وحمله الضال، كان هناك رجل اسود طويل عريض الكتفين، يرتدي بدلة زرقاء لامعة سبح الضوء خلالها كما لو انه يسبح في بحيرة، وربطة عنق حمراء فاقعة بدت كما لو أن أحدهم يسكب الكرز على صدره. تلوى وجهه مع الاغنية وسال العرق مثل ألماس متلألئ من راسه. حمل في إحدى يديه عبترا [illegible] اضيق في إحدى طرفيه من الطرف الآخر، ومربوطاً بحزام ذهبي يلف كتفه، وهناك ازرار كهربائية، على شكل حلوى الاسكتلندية بالزبدة، على الطرف الضيق منه. رفع يده الاخرى على رأسه وتمسك بشيء طويل ومشع تقطر نهايته دما

سألت مريديان السيدة الوديعة التي تجلس الى جوارها «من هذا؟». كانت السيدة تهش

الذباب وتسحقه وتضرب أولادها الهائجين على رؤوسهم بين الفينة والأخرى

أدارت رأسها بلطف نحو مريديان وابتسمت بطريقة ساحرة ودمثة: «ماذا؟ آه تقصدين ذلك. أحد فنانينا الشباب فعلوا ذلك. نطلق عليها اسم: بي بي، مع سيف»

وما الطائل من هذا بالنسبة إلى مريديان، التي لطالما فكرت بالكنيسة التي يقصدها السود على أنها سلطة رجعية على نحو أساسي؟ وهل يعود هذا بطائل على أحد؟ ذُهلت لأن الموسيقا تغيرت. ذُهلت لأن جميع من كان في الحشد تنبأ بالتمثيلية. ذُهلت لأن الشباب الذين يقصدون الكنيسة في هذه الأيام لم يعظوا في النوم. ربما كانت الكنيسة، على الرغم من كل شيء، المكان الوحيد المتبقي المسموح فيه للسود بالتجمهر، ولا تُناقش فيه مسائل الحياة بمراوغة وتعد مقاربة المستقبل أمراً مشاعاً يشترك الجميع في الجدال حوله، وتؤخذ الأسئلة الأخلاقية على محمل الجد.

تأملت وجه الشاب في الصورة وهي خارجة. وجه حطمته عصي غولف يحملها رجل، ولم يعد أكثر من مجرد عظام مهشمة، يتساقط بحرية مع تآكل البشرة، لينزل قطعة قطعة ويستقر في قعر التابوت، والأصابع الرقيقة المكسورة والمهشمة تحت عجلات السيارات، لن تشير بعد الآن إلى أي اتجاه. لطالما أحبت هذا الشاب الذي مات قبل أن نحظى بفرصة التعرف إليه. لكنها تساءلت الآن إن كان بإمكانها إظهار مشاعر الحب إزاء شخص ميت؟

كان هناك سبب لحفل التأبين الذي حضرته في الكنيسة. وبينما كانت تلاحق السبب في أفكارها، جاء السبب إليها على قدميه. كان الناس في الكنيسة يقولون إنه لو عاد ابنه مجدداً فسيحمي حياته من خلال حياتهم. كانوا يقولون «اسمع، نحن نستغرق ببطء على فكرة أننا فقط مثل النساء والرجال الآخرين، ونحتاج وقتاً أطول لنحرك ساكناً بغضب، لكننا نجمع أنفسنا لنقاتل في سبيل حماية ما قاتل ولدنا في سبيله بالنيابة عنا. إن سمحت لنا بنسج قصتك وحياة ابنك وموته لتكون جزءاً مما نعرفه حق المعرفة- أي

الأغاني والمواعظ. (الأخ وأخته)- سرعان ما ستصبح غاضبين لدرجة لن يكون لديك خيار سوى لنحرك افهم هذا». كانوا يقولون «الكنيسة». (ومريديان عرفت أنهم لم يقصدوا «الكنيسة» ببساطة، أي الكنيسة المعمدانية والميثودية أو خلافهما، وإنما روح الجماعة والتعاضد وتوافق الصالحين) «الموسيقا وشكل العبادة الذي حافظ علينا دائماً، نوع الطقوس التي تشاركها معنا، هذه هي الطرق التي نعرفها المؤدية إلى التحول. نود أن نحمل هذا معنا قدر استطاعتنا»

لدى استيعابها لهذا، كان هناك صدع في صدر مريديان كما لو أن خيطاً مشدوداً يربط رئتيها قد انفلت، متيحاً لها التنفس بحرية لأنها فهمت أخيراً أن الاحترام الذي تكنه نحو حبيبها سيستمر في وجه أي عقبات، لتعيش الحياة، من دون التخلي عن أي ذرة منها قبل الاستماتة في التشبث بها حتى الموت، ومن الأفضل ألّا يكون موتها وأن هذا الوجود يمتد ليتجاوزها ويصل إلى المحيطين بها، في الواقع، السنوات في أمريكا قد خلقت منها حيرة و حده توقفت لتتأمل هذا، في وسط الطريق. تحت شجرة كبيرة على جانب الطريق الذي يغص الآن بالسيارات العائدة من الكنيسة، قطعت عهداً على نفسها أمام الرجل ذي العين الحمراء إنها بالفعل، حقاً ستقتل قبل أن تسمح لأي أحد بقتل ولده مجدداً

كان قلبها يخفق كما لو أنه على وشك الانفجار، تصبب العرق من جلدها لم تجرؤ مريديان على قطع العهود من قبل واعتبرت هذا قاعدة حشية ان يدفعها حدث غير متوقع إلى نقضها حتى العهد الذي تقطعه على نفسها كان يدفعها للارتجاف المرافق مع حسن النية لم يكن عهداً باطلاً، ومع ذلك، لو أن أحداً طلب منها شرح قصدها لضغط لما باحت بشيء. وبالتأكيد فإن التباهي بهذه القدرة الجديدة على القتل- التي لم تكن معجبة بها برغم كل شيء- سيكون من اجل تحطيم الفهم الذي اكتسبته معه اي إنه حتى التفكير بالقتل يتطلب دقة هائلة كما يتطلب عملاً روحياً خارقاً. ويجب ان تكون الحلقة الثقافية

مسبية والظروف الراهنة مواتية. فقط في الكنيسة وهي محاطة بالأوصياء الصالحين حماة ذكريات الناس تمكنت من استيعاب مفهوم القتل الثأري وسط الأتقياء فقط، يمكن لهذه الفكرة أن تبعث على الراحة والسمو.

إخلاص مريديان لعهدها لم يصمد طويلاً، كانت تفقده أحياناً بشكل تام. ثم فكرت: لقد أتيحت لي رؤية انبثاق وتبلور القدرة الجديدة على فعل أي شيء، بما في ذلك القتل، في سبيل حريتنا- على خلفية حوادث عنف منفصلة- لكنني لم أصل بعد إلى نقطة القدرة على قتل أحد بيدي- باستثناء النوبات الكاذبة التي تجتاحني في فترات الحزن والغضب- ولن أصل أبداً. أنا فاشلة إذن، تماماً مثلما كانت فتة آن- ماريون الثورية ومن لف لفها. (على الرغم من أنها لم تسمع بأي شيء ثوري فعلته هذه المجموعة منذ تركتهم قبل عشرة أشهر صيف أصبحت آن- ماريون كما تناهى إلى مسامعها، شاعرة ذائعة الصيت تكتب قصائد تدور حول ولديها، وجودة الضوء الذي يغمر بحيرة تملكها).

فكرت مريديان بأن هذا ما كرهت مواجهته، هذا الذي كان مصدر معاناتي: لن أنتمي إلى المستقبل سأهجر وأترك وحدي، أستمع إلى الموسيقا القديمة على جانب الطريق السريع. لكن لاحقاً فكرت بأن دوري ربما السير خلف الثوريين الحقيقيين- هؤلاء الذين يعرفون أن عليهم إراقة الدماء لمساعدة الفقراء والسود ولذلك يقدمون على القتل- وعندما يتوقفون لمسح آثار الدماء ويجدون أن حناجرهم مختنقة برائحة اللحم المسفوك لدرجة يقفون أمامها عاجزين عن الغناء، سأتقدم وأغني أغاني محفورة في الذاكرة سيحتاجون سماعها مجدداً لأن أغنية الشعب، التي تنقلها تجارب كل جيل، هي ما يبقيهم بدناً واحداً، ولو فقد أي جزء منها سيعاني الناس وسيصبحون بلا روح لو كان باستطاعتي فعل هذا فحسب، فلن يكون دوري عديم الجدوى في نهاية المطاف

ولكن في أحيانٍ أخرى، كان إخلاصها لعهدها يعود إليها بقوة كان كل ما تحتاجه مجرد

رؤية طفل يتضور جوعاً أو محاولة لتسجيل الأسماء من أجل التصويت في الانتخابات لصالح شخص راشد يعجز عن القراءة أو الكتابة. في هذه الحالات، يصبح غضبها عارماً حتى إنها تشعر بالفعل كما لو أن على الأغنياء والعصريين الموجودين حول العالم أن يقفوا على أقدامهم خوفاً منها، لأنها- على الرغم من كونها ضعيفة على ما يبدو ومفلسة ومجنونة بعض الشيء ومجرّدة من أي سلطة- شخصية حازمة ولا تهاب شيئاً نسبياً، يكفي قبوله الهادئ لهدفها الخاص لتركيع أعظم بلد على قدميه.

أسفار

«ماما» هتف طفل نصف عارٍ بينما كانا يصعدان نحو الشرفة «ثمة شخصان هنا، أحدهما تلك السيدة ذات القبعة»

كانت الدرجات الخشبية مكسورة والشرفة متهالكة، وهناك في الغرفة الأمامية شاب نحيل يعمل بصمت في الزاوية أمامه كومة عملاقة من الصحف التي بدت كما لو أنها نجت من أيدي الأطفال الذين تناولوا العشاء فوق صفحة الرسوم الكاريكاتورية. راقبت مريديان وترومان الرجل بحذرٍ وهو يمسد الجريدة، يجمع عشر صفحات ثم عشرين، ويطويها لتغدو لفافة تشبه جذع الشجرة ويضع فوقها شريطاً مطاطياً أحمر عندما فرغ من صنع «اللفافة» كدسها مثل قطعة من الحشب فوق الكومة العالية المليئة بمثل هذه «اللفائف» والتي تستحوذ على إحدى جهات الغرفة النتنة الرطبة فقيرة الأثاث

كان بإمكانه كلما استدار ليضع الورقة على الكومة رؤية زوجته من خلال الباب الداخلي، مستلقية على السرير أومأ إليهما موحياً بأن عليهما دخول غرفة زوجته

سألت مريديان: «كيف حالك؟» بينما كانت هي وترومان يبحثان عن كرسيين ليجلسا عليهما

قالت المرأة مخاطبة ترومان الذي جلس على كرسي ذي ظهر مستقيم «لا تجلس هناك. إنك تحجب عني رؤية زوجي».

قال ترومان وهو يغير مكانه بسرعة «آسف»

قالت المرأة «أشعر بتحسن طفيف الآن تحسن طفيف» كان وجهها الصغير الأسود طفولياً، ذا عظام بارزة تكاد تطفى على ملامح وجهها، وعينين بنيتين كبيرتين لم تفارقا

ظهر زوجها.

«خرج زوجي جوني وأحضر لي لحم الغزال وأعد لي اليخنة. أعتقد أن هذا سيعينني على استعادة قوتي». ضحكت دون سبب يمكن لضيفيها سبره. كانت ضحكة مكتومة، واهنة ولكن كما لو أنها رغبت بأن يفهما أنها قادرة على تحمل أي سوء

سأل ترومان: «من أين حصل على غزال في هذه الفترة من السنة؟» «لا تخبر أحداً» ضحكت السيدة المريضة ضحكتها المكتومة مجدداً بمكرٍ «لكنه اصطاد في أحد تلك الأماكن التي يوجد فيها يافطة تقول: (منطقة عبور غزلان). لو لدينا ثلاجة لمؤنا كفايتنا من اللحم لبقية السنة جوني-» بدأت بالحديث وظهرت كل أسنانها بينما قبضت يدها على غطاء السرير بحدة تضاهي حدة ابتسامتها المريعة.

سأل جوني: «هل قلتِ شيئاً يا أغنيس؟» ترك عمله الرتيب على الصحف واقترب ليقف على مؤخرة السرير. «هل أنت جائعة مجدداً؟».

قالت السيدة المريضة مغازلة زوجها: «لقد شبعت من مجرد النظر إليك يا سكرتي». قالت وهي تلقي على ضيفيها نظرة خاطفة: «هذا هو السبب الوحيد الذي يجعلني أمقت الموت. لن أتمكن حينها من رؤية رجلي الوسيم العجوز».

قال جوني «بأ»، وعاد إلى الغرفة الأخرى.

«كان يعمل في مصنع النحاس ويصنع الأسلاك. طردوه من العمل لأنه رفض تغطية النافذة الموجودة امام طاولته. كما تعرفان لا يرغبون في المصنع بأن يرى العاملون اي شيء سوى ما هو موجود على الطاولة امامهم. غير ان حبيبي جوني قال إنه ليس بغلاً ليرتدي عصابة عينين. اراد رؤية شيء من العشب، وفسحة صغيرة من السماء. كان الامر مريعاً بما يكفي ان يدفن المرء في القبو هناك، لكنهم أرادوا أن يحجبوا حتى الشمس».

نظرت إلى ظهر زوجها، كما لو أن باستطاعتها لمسه بعينيها.

سأل ترومان، «ماذا يفعل بالصحف؟» سألت السيدة: «هل رأيت كم صحيفة لديه؟ يتعين عليك رؤية الغرفة الموجودة خلف هذه الغرفة. الجرائد الملفوفة تصل إلى السقف. الصحف الملفوفة تغطي نصف المطبخ». ضحكت ضحكتها المكتومة مصدرة صوتاً أجش. «يغمره حب الصناعة. في فصل الشتاء، سيذهب هو وجوني الابن ليبيعا لفائف الصحف ليستخدمها الناس كحطب في مدافئهم مقابل نيكل واحد للقطعة ولقاء ثلاثة قروش فقط للملونين».

قالت مريديان: «امم. ربما نستطيع مساعدته في لف بعض الجرائد لبعض الوقت أثناء وجودنا هنا. عزجنا فقط لنسأل إن كنتم ترغبون جميعكم بتسجيل أسمائكم للتصويت في الانتخابات، ولكن أعتقد أن بوسعنا لف بعض الجرائد بينما تفكرون بالأمر».

«الإدلاء بأصواتنا؟» سألت السيدة محاولة رفع صوتها ليصل السؤال إلى مسمع زوجها. ثم استلقت مجدداً وقالت: «اذهبا إلى هناك واحصلا على بعض الجرائد»

حالما لمست الجرائد، أدركت مريديان أن جوني لا بد قصد حاويات القمامة وأكوام القصلات وممرات المتاجر الكبيرة في المدينة برمتها للحصول على الجرائد. كان العديد من الصحف رطبة وحتى غروية، كما لو أنها استخدمت للف السمك أو ربما ما هو أسوأ. بدأت ببطء بصفط الصحف لتمسدها، ثم قامت بلفها.

«ليباركني الأب، ساموت في الأسبوع الذي يسبق ثاني يوم احد من شهر ابريل لاني اريد أن أدفن في يوم عيد الأم لا أعرف لماذا اريد ذلك، لكن هذه رغبتي الاثم لدي يعصرني يشبه كما لو أن كليتي ملفوفتان بالشاش المطاطي المستخدم في منتجات الالبان، وثمة من يعتصرهم ويضغط عليهما ولكن عندما اموت، سيتوقف الضغط قربه يوم عيد الأم،

إن أذن الآب الرحيم بذلك».

قال جوني الابن الذي جاء للف الجرائد التي تمسدها مريديان. «أمي ذاهبة إلى الفردوس».

قالت مريديان باندفاع وهي تمرك شعره لتزيل عنه الوبر. «إنها عذبة كملاك منذ الآن، مثلك».

سأل الزوج بينما كان ترومان ومريديان يهمان بالخروج. «ما فائدة التصويت إن لم نكن نمتلك شيئاً؟» الزوجة التي كانت عيناها تداعبان بثبات ظهر زوجها غطت في النوم، كان جوني الابن يحضنها وهو نائم إلى جوارها على غطاء السرير الباهت المصنوع من قماش الشنيل. فكر ترومان بأن المنزل حتماً بارد جداً في الشتاء، ناظراً إلى شقوق الجدران؛ كما أنه الآن في الربيع مليء بالذباب.

«هل تريد أدوية مجانية من أجل زوجتك؟ مستشفى يأخذ السود من أمام منازلهم؟ مدرسة جيدة يتعلم فيها جوني الابن وعملاً لا يستطيع أحد سلبه منك؟»

قال الزوج بتجهم: «تعرف أنني أريد ذلك»

«حسناً ربما لن يفيد الإدلاء بصوتك في جعلك تحصل على كل ذلك. ليس في حياتك»، قال ترومان عاقلاً إن كانت مريديان تعتزم الكذب وادعاء ذلك

تذمر الزوج. «ما الذي سأحصل عليه سوى المزيد من المتاعب»

قالت مريديان «لا أعرف. قد يكون بلا طائل. أو ربما قد يكون نقطة البداية للتعبير عن رأيك. يجب أن تعتاد على التعبير عن رأيك. كما تعرف. طريق الألف ميل يبدأ بخطوة. نبدأ بأشياء صغيرة ثم نتابع».

قال الزوج «كلّا. لا وقت لديّ لمثل هذه الحماقات. زوجتي تحتضر. ابني لا يملك حذاء. اذهبا إلى مكان آخر واعثرا على شخص لا يتوجب عليه العمل طوال الوقت ليجني القرش، مثلي».

قالت مريديان: «حسناً». مشت بهدوء، وتبعها ترومان متماجناً.

سأل الزوج بعد مرور عشر دقائق بعد أن عبرا باب منزله الأمامي ومعهما كيسان مليئان بالطعام: «ما هذا؟».

رسمت مريديان ابتسامة عريضة على وجهها: «لتأكلوها مع لحم الغزال».

قال الزوج وهو يلقي نظرة خاطفة على الكيسين: «لن أغير رأيي».

ولم تقع أعينهما عليه مجدداً حتى يوم الاثنين بعد عيد الأم، عندما أحضر لهما ستة أرانب مسلوخة وعشر لفافات من الصحف؛ وتحت عبارة هل أنت شجاع بما يكفي للإدلاء بصوتك المكتوبة على كراسة مريديان الصفراء، كتب اسمه بأحرف سود كبيرة

تريجر

شاهدا أولاً منزل الآنسة مارغريت تريجر عبر مشهد يغطيه الدخان. بينما كانا يعبران شارعاً ممهداً قدراً باحثين عن أشخاص دائماً ما يغفل عنهم من يقومون بإجراء إحصاءات التعداد السكاني. كان الوقت منتصف الصيف، الطقس حارٌ كما الفرن، والعرق يتصبب من جلدهما ويتبخر قبل وصوله الأرض. على جانبي الطريق، كانت سيقان الذرة المزروعة من السنة الماضية تصدر حفيفاً جافاً وحزيناً. ومداخن المنزل تتراءى لهما عبر الضباب، شاهدا سيدة سوداء ضخمة مرتدية فستاناً أحمر ضيقاً تعرج وهي تمشي نحوهما، وفي يدها صفيحة بنزين. كانت تضرم النيران في الحقل

توقفت مريديان وترومان لمراقبتها، وعندما وصلت السيدة إليهما جمدت في مكانها أيضاً. كانت متفاجئة على نحوٍ واضح عند رؤيتهما وأوقعت صفيحة البنزين من يدها عند قدمي مريديان.

على الشرفة الأمامية الفسيحة لبيت الآنسة تريجر الابيض والابق تواجد سرير عملاق مصنوع من خشب الماهوجني ترتفع دعاماته الأمامية والخلفية فوق رأسيهما. أمسكت مريديان باليد اليسرى البدينة للسيدة تريجر وساعدتها على النزول عن السرير. كانت دموع الآنسة تريجر تسقط على الغطاء الأبيض كالثلج وقد رسمت أخاديد زهرية على سواد بشرتها.

قالت السيدة تريجر: «يجب أن أضرم النار في هذا السرير» ضاربة رأسها بدعامة السرير الخلفية

قالت مريديان. «انتظري»، رنت بنظرها إلى حقل الذرة المحروق «ترومان وأنا سنساعدك».

سألت السيدة تريجر «هل ستساعداني حقاً؟» كفكفت دموعها الآن، وابتسمت بسعادة كاملة. ونظراً إلى أنها سمينة جداً لم يستطيعا تخمين عمرها، موقنين في الوقت ذاته بأنها كانت هرمة بالفعل، ودوالي العروق تغطي يديها وثمة عقد ناجمة عن التهاب المفاصل، وعيناها الدامعتان مقرحتا الجفنين ومصابتان بمرض المياه البيضاء. عندما جلست مريديان وترومان مع الآنسة تريجر على السرير، ظهرت في الباب سيدة أصغر سناً ربما في عقدها السادس، واستندت على باب المدخل.

زعقت العجوز الآنسة تريجر بصوتها المبحوح جراء البكاء: «اذهبي يا لوسيل!»

قالت السيدة الأخرى بتكلف وهي تستدير عائدة من حيث أتت: «يا للعار عار عار. عار بحق اسم أبانا».

نهضت الآنسة تريجر عن سريرها ودخلت إلى المنزل. خرجت بعد دقائق معدودة ومعها إبريق من الليموناضة وقد وضعت شعراً مستعاراً لامعاً أسود طويلاً على رأسها. بدا وجهها تحت الشعر المستعار مجعداً وفي حالة يرثى لها.

قالت الآنسة تريجر وهي ترشف كأس الليموناضة: «أولاً أحرق فقط ما أملكه. كل هذه الأرض التي تشاهدانها تعود ملكيتها إلى محدثتكما. يمكنني حرقها إن رغبت بذلك. أليس هذا صحيحاً؟»

قال ترومان: «بالتأكيد».

قالت مريديان: «أجل يا سيدتي».

صرخت الآنسة تريجر: «هل سمعت هذا يا حثالة؟». «هراء!» جاء الصوت من خلف باب المدخل. «ما أسمكما؟».

قلت مريديان «مريديان وترومار».

«أنا الآنسة تريجر، وتلك أختي الصغيرة لوسيل».

قال الصوت القادم من خلف الباب، «الآنسة لوسيل تريجر، أنا آنسة مثلك تماماً».

سألت الآنسة تريجر وهي تسكب الليموناضة في كأسيهما: «هل ترغبان يا ولدي ببعض الليموناضة؟».

خرجت الآنسة لوسيل تريجر وصعدت إلى الشرفة. نحيلة بلون الرمل الرطب، حملت نفسها بتعجرف صلف، ومشت ومعها عصاً في يدها وكأنها أمير كانت تنظر بفظاظة نحو أختها

شخرت قائلة: «العقل المتبقي في رأسها مضى في إجازة». «هذا ليس صحيحاً» اعترضت الآنسة مارغريت تريجر وبدأت تروي قصتهما. عاشتا في مزرعة تريجر- ليس كمستأجرتين وإنما كمالكتين- طوال حياتهما. كان من المحرّم عليهما كطفلتين السؤال عن قدرة والدهما على تدبير أموره وامتلاك مزرعة في هذا الجزء من جورجيا. على أي حال، باعت الآنسة مارغريت تريجر- بتحريض من شقيقتها الصغرى لوسيل- جزءاً تلو آخر من المكان إلى أن أضحى من الممكن رؤية كل ما تبقى من أملاكها من الشرفتين الأمامية والخلفية. عاشت لسنوات دون رؤية أحد، باستثناء مرتين في السنة تقصد فيهما الأخت الصغرى البلدة لشراء السلع الغذائية كما كان يفعل والدها، ووفرت المزرعة كل شيء آخر تحتاجانه، إذ كان لديهما دجاج وبعض بقرات وخنزير. المرة اليتيمة التي شاهدتا فيها أناساً لمدة وجيزة كانت عندما تعاقدت الأخت الصغرى لوسيل مع دهانين لطلاء المنزل كل خمس سنوات. بدأت مشاكل الآنسة مارغريت أثناء آخر مرة طُلي المنزل فيه، إذ وقعت في غرام أحد الدهانين.

حسناً، أكملت الآنسة مارغريت، الآن لم يعد لديها سوى بضع أراض والمنزل، أرادت الاحتفاظ بها لكن كان عليها بيعها للمحافظة على سمعتها واحترامها لذاتها لأنها نظرت قبل ستة أشهر من نافذة غرفة نومها ورأت وجهاً يتأرجح هناك فوق السلم إنه وجه قدرها، واسمه ريمس موت. هذا اسم كلب، أضافت، وانفجرت باكية

وقفت الأخت الصغرى لوسيل متجهمة فوق كتفي شقيقتها البدينة المرتجفين، ويداها على وركيها.

قالت بحدة. «كانا معاً طوال الوقت»، بصقت على سياج الشرفة، سقط لعابها البني بين شجيرتي هدريج، زرقاوين. «في عمرها! كنت أسمعهما طيلة الليل يمارسان الحب. يعويان ويواصلان مثل قطط الزقاق».

قالت المرأة الباكية: «تراجعي للخلف! لا أريدك أن تقفي فوقي وتشمتي. فقط لأنه لم يهتم لأمرك!» سألت الأخت الصغرى لوسيل: «وماذا أفعل برجل عمره خمسة وأربعون عماً؟ عرفت رجالاً أفضل ما حال دون أن أورط نفسي على الأقل». أخذت نفساً عميقاً «سألتقي خالقي وأنا سيدة طاهرة، نقية تماماً كما ولدت».

تغضن وجه الآنسة مارغريت لوعة وحرقة فتحت علبة بودرة الوجه بيدين مرتجفتين ووضعت المزيد من المسحوق على وجهها، رغماً عن الدموع التي واصلت تبلل وجهها. تنهدت وقالت: «قالوا إنه علي أن أتزوجه، لكني لا أريد ذلك الآن»

قال ترومان ومريديان في اللحظة نفسها «لا تتزوجيه إذن»

تابعت لآنسة مارغريت: «لأني لو تزوجته، سيعيش حتماً أكثر مني، وحينها سيكون البيت باسمه. سيمتلكه، ولا أثق به بما يكفي لتربية أي طفل» ظهرت الدهشة جبرا على وجه مريديان، وفي الوقت ذاته، أدرك ترومان سبب دموع الآنسة مارغريت قالت الأخت

الصغرى لوسيل بتعجرف وهي تراقب التغيّر الذي طرأ على وجهيهما. «أجل»، إنها بدينة وسوداء وعمرها اثنان وسبعون عاماً، والرجل الأول الذي فتحت له ساقيها جعلها تحبل»

قالت مارغريت: «تسعة وستون».

كاد الضحك يطيح بعمود ترومان الفقري، مثل ثعبان فضي خبيث. وأوشك على أن يفقد صوابه عندما سمع مريديان تسألها وتخوض معها حواراً «في أي شهر أنت؟» رمقها بنظرة متوقعاً أن يرى وجهها يصارع للسيطرة على نفسه، لكن عبرت حمرة خفيفة فحسب وجهها، ثم تلاشت داخل بشرتها البرونزية.

صرخت الآنسة مارغريت ووقفت على قدميها: «آآآآه!»، ساحبة سريرها الثقيل. صرخت «ساعدوني جميعكم على حرقه الآن»، وسحبت بعنف شعرها المستعار فسقط عند قدميها. انتشلته الاخت الصغرى لوسيل وبدأت تقهقه، ناسية على ما يبدو أن شعرها قد ضُفف بقسوة على شكل أمواج وصُبغ بلون برتقالي سخيف.

امسك ترومان ومريديان السرير ودفعاه بكل ما أوتيا من قوة. تدلى السرير على حافة الشرفه مثل سفينة عتيقة تحوم فوق حافة البحر. دفعته الآنسة مارغريت وانزلق السرير محطماً على الدرج ووصل إلى الفناء، وعلقت ساق الآنسة مارغريت تحته لم يبدُ أنها شعرت بالألم وإنما شدت السرير بلا هوادة محاولة جره ليصل إلى حافه حقول الذرة حيث كان الحريق قد خمد بعد مرور هذا الوقت

قالت مريدين وهي تحمل الصحيفة: «لقد نفد البنزين»

جلست مريديان وترومان في الفناء تحت اشعة شمس الصيف الحارة، يضعان ضمادات الماء البارد على ساق الآنسة مارغريت قالت مريديان وهي تضع الساق على حضنها وتربت عليها برفق بين الفينة والاخرى: «آنسة مارغريت، على ضوء الطريقة التي تعاملين

تمسك بها. لا أظن انك حامل. هل تعتقد أنها حامل؟» سألت ترومان، وشرحت موجهة حديثها إلى الآنسة مارغريت «زوجة ترومان لديها طفلة صغيرة، لهذا فهو الشخص المناسب لنسأله فهو يعرف».

هزّ ترومان رأسه ببطء «لا تبدين حاملاً ولو واحداً بالمئة بالنسبة إلي» واختنق بضحكته.

تألق وجه الآنسة مارغريت لكنه سرعان ما انطفأ مجدداً. قالت: «قال ريمس الشيء ذاته أيضاً. هو والأخت الصغرى لوسيل كلاهما قالا ذلك».

نظرت الآنسة مارغريت نحوهما بخوف. لقد مرّت سنوات لم تخرج فيها من المزرعة، ومن خلال المجلات التي قرأتها لم يكن العالم آمناً خارج حدود ممتلكاتها. ناحت على حياتها وانتحبت من الألم الذي تسببه لها قدمها الجريحة. كانت بتولاً إلى أن دخل ريمس إلى حياتها، مالئاً إياها بالآمال الخفاقة ومحدثاً تغييراً كبيراً على جسدها، ليغدو جسداً طافحاً بإشراق موزٍ عرفت أنه كان خطيئة ستعاقب عليها. استلقت على الأرض الساخنة مثل طفل تائه، أو مثل كلب ضُرب بعنف لدرجة فقد فيها حاسة الشم وهام على وجهه وستند على الشجرة التي كانت لتبدو رائعة في ظروف أخرى.

سندها ترومان ومريديان عند كل خطوة على طول الطريق، ممسكين بقوة بذراعيها البدينين، إلى أن وصلت تماماً إلى باب غرفة طبيب الفحص. بدا وجهها عندما خرجت بعد مرور ساعة خالياً من الألم ومرتاحاً وناعماً، كما لو أن جميع تجاعيدها قد أزالتها القبل. جاءت في اليوم التالي لتسجل اسمها على كراسة مريديان الصفراء.

قالت الآنسة مارغريت: «اطلبا مني فعل أي شيء أيها الشابان، أنا رهن إشارتكما».

الحج

وهكذا يتعين عليهم الذهاب إلى السجن. لا مناص من الذهاب. وهكذا ينبغي عليهم رؤية الطفلة التي قتلت طفلها، لا جديد في الأمر. لكن السجن كان جديداً، ارتفاعه طابقين فقط، بني في مكان قصي عن الطريق وسط بحر من الغطاء الأخضر، والأشجار السود تحيط به مثل أبراج محصنة تحيط بقلعة. صوت المفتاح والقفل وصرير الباب الذي يفتح إلى الداخل، ابتلاع الضوء في العتمة. الفناء. سماع الموسيقا القاسية التي تصدح بها أصوات النسوة. نساء محشورات ليجلسن ويصدرن طنيناً كالحشرات، يمتحن وينتظرن دورهن. من كان ذلك الشخص؟ ذلك الرجل/ تلك المرأة الذي/التي حلق/ت جزءاً من شعره/ها القصير؟ وجه جلف وأفخاذ غليظة لرجل، أثداء امرأة؟ لكن لم يأتوا ليحدقوا أو ليشعروا بالأمان البارد لكونهم ما هم عليه، غير محتجزين.

كانت في زنزانة بحجم وضيق خزانة فارغة تقريباً. أحضرت مريديان صور مجلات لحقول خضر ونهر أزرق وتفاحة حمراء وحيدة على صفحة بيضاء، كبيرة، انطوت فيها كل أسرار العالم السابقة واللاحقة. كانت التفاحة (وليس النهر أو الحقول الخضر) هي ما أحبتها الفتاة. أحبت اللون الأحمر، أحبت الاستدارة واللمعان النظيف لأشياء التهمتها

أجل. لقد عضت خد طفلها، قضمت مضغة منه قبل أن تعصرها بقطعة من كشكش الستارة. كان بدوره مستديراً جداً ونظيفاً ولكنه للأسف لم يكن أحمر قبل أن تعضه. ألم يكن من الصائب أن تسعى لالتهام شيء يفسد بسرعة؟ شيء، على الرغم من زكاء رائحته، ونعومة ملمسه ولذته، من المستحيل المحافظة عليه؟ كان كما لو أنني (قالت حانمة) أخرجت قلبي من مكانه (أحمر ومستديراً، ناعماً ومعشوقاً وضاء!) وحمته في يدي (كان قلبي حلواً حلواً ورائحته زكية، مثل براعم التفاح) وأخذت قضمة منه. كان فمي الذي مضغته، عصرته إلى أن مات. اختبأت إلى جانب النهر قلبي الكلب الضال نقب، نبح منادياً

على مالك ذلك الحقل قلبي حيث انا (تابعت) ولا يوجد احد آخر ولماذا أنا على قيد الحياة، دون قلبي؟ وكيف حدث هذا؟ ومن انتم بحق الجحيم؟

«الناس الذين يطلبون من الآخرين الإدلاء بأصواتهم» (ليكافحوا ويكافحوا، كل ما عرفوه في العالم يوماً).

(ضحكت، بحيوية وبدت شابة) حسناً، أتعتقدين أن هناك أحداً هنا قد يدلي بصوته؟ قهقهات مديدة جرفتهم إلى عدميه عمل الديدان عقب المطر وهي تتلوى لتشكل تلالاً من الرمال لتغوص بينها قبل أن يسحقها الحذاء الماحق الذي ارتفع ليهبط فوقها ويدعسها.

«أمك وأختك أخبرتانا أين كنت»

ام واخت تتباهيان على نحو غريب بهذه الطفلة التي قتلت طفلها. عمرها ثلاثة عشر عاماً (قالت امها) وناضجة لعينة بما يكفي، لا بل ملعونة قبل أن تبلغ العاشرة قلت لها اخرجي من منزلي. سيري في الشوارع في سبيل كل القضايا التي تهمني لم تكن قط (استدارت ونظرت) مثل ماري ماي، الشخص الذي آلمني أكثر من اي مخلوق آخر لا بد وأن يكون الامر هكذا لأن كل ألمي الذي سببته ماري ماي ظهر حينها، وقد تخطيته الآن (رافعة ذقنها) هذا الشيء في السجن جاء بسهولة بالغة مثل مادة شحميه

اعفيني من ذلك (قالت الفتاة). على مساحة وجهها، حرقت الشمس مناطق على شكل مربعات بينما حمت القضبان المناطق ذات اللون الافتح انظر من نافذتي كل مساء (قالت) اراقبها إلى ان تغيب، تدفئ صدري إن لم تستطيعوا جميعا إعادة قلبي (قالت فجأة بحقد)، ارحلوا جميعكم عليكم اللعنة

كان الأمر فوق احتمالهم، خارج السجن امسوا غرباء من جديد عن الارض الخضراء، الأرض التي مشوا عليها، وعرفوها منذ الأزل بدا الامر لطيفاً جداً بمريديان فحملته معها

إلى كيس نومها، هناك لتنتحب تحت ذراع ترومان المرتجفة، هناك ليُصاب قلبها بالأرق شفقة على ابنها. لكن قلبها أبى أن ينبض بدقات أسرع، أن يشتعل بالحنين، سوى من أجل الفتاة، الطفلة التي قتلت طفلها. ملعونة، فكرت، ملعونة. قلب حقير قُدّ من حجر.

استلقى ترومان كما لو أنه مذبوح، يشعر بالدفء، بينما اندفع الدم الحار إلى كافة عروقه يا للعار. ولكن من أجل ماذا؟ من أجل من؟ ما الذي فعله؟

جلست مريديان، تراقب العاملين من المدينة وقد بدؤوا بإزالة الأنقاض من الخندق، تمهيداً لملئه (أجل لقد ظفر الناخبون بهذه الخدمة الأساسية الصغيرة)، وكتبت بحماس وشغف عارمين حتى إن القلم أحدث ثقوباً في الورقة-

أريد ان أضع نهاية للشعور بالذنب

أريد أن أضع نهاية للشعور بالخزي

بغض النظر عما فعلتِه يا أختاه

(يا أخي)

تعرفين أني أرغب بغفران فعلتك

أحبك

لا الحجر الكريستالي

الذي قُدّ من براءتنا

يجمعنا

ولا ضرس نقائنا

يعضّ قلوبنا الدامية

نامت تلك الليلة وذراع ترومان تلفّها، بينما حلم ترومان بالهرب من شمسه ليصدح بأغنية منتحبة باكية.

ذات يوم، مسح ترومان- الذي بدأ يعيش لحظات مع مريديان بعدما خالجه شعور أمومي عميق- جبهتها بقطعة قماش منقوعة بماء بارد، كتبت مريديان.

ثمة ماء في العالم من أجلنا

جلبه أصدقاؤنا

على الرغم من أن صخرة الأم والله

تلاشت إلى رمال

وأقصونا لنبقى وحدنا

لنبرأ

ونعيد خلق أنفسنا.

لم تحرق هذه القصائد. وضعتها فوق رسائل آن- ماريون تماماً، بعدها لم تبق نطرة واحدة عيها او حتى على الجدران.

(كفّارة: لاحقاً، في الحياة ذاتها)

أبعد ترومان ذراعها عن كتفيه. «ثمة شيء علي إخبارك به يا لين. حاولي أن تكظمي غيظك».

قالت لين بشجاعة وحمق: «ستطلقني».

«كلا. لا أعتقد ذلك. الحقيقة أنني، ما زلت أحبك».

«ما زلت؟».

«لطالما أحببتك. أحبك. أنت تغيظينني أحياناً...».

«أنت تغيظني معظم الأحيان».

«... لكن. لكن لم أعد أشتهيك».

غاصت لين في الكرسي الهزاز. ركع ترومان على الأرض.

سألت: «لأنني بدينة؟ ألأن رائحتي ليست زكية، ربما؟ ألأن شعري فوضوي؟ أو لأن-» وأطلقت ضحكة مخنوقة- «هل لأنني أصبحت الآن فانية؟».

قال: «كلا، كلا»، وهو يحوم حولها. «أنا أحبك. كل ما في الأمر أنني- لا أرغب بفعل أي شيء سوى إعالتك وأن أكون صديقك. أحاول. هل يمكنك تقبل ذلك؟».

اختنقت لين. فكرت بالجنوب، بالحقول الخضر...

قالت: «ربما نستطيع فتح صفحة جديدة. دعنا نذهب إلى الجنوب».

سأل: «لماذا؟».

تصفية حسابات

«لكن هل تعرفين ما الذي أريده منك؟» سأل تورمان مريديان، بينما اتكأ على كيس نومها. «عديني ألّا تسخري مني». تردد. «أريد منك أن تحبيني».

قالت مريديان: «لكني أحبك بالفعل»

«أنت تشفقين علي. أريد حبك الذي امتلكته منذ زمن بعيد. اعتدت أن أشعر به يفيض من عينيك في كل مرة كنت تنظرين فيها إلى عيني. كان يغطيني مثل شمس خاصة. مثل نعمة»

«تغير حبي لك...».

«أنت طردته».

«كلّا، أنا من أطلق سراحك...».

قال بمرارة «هلّا لم لا تعترفين بأنك تعلمت كرهي، احتقاري، تمنّي موتي. لقد كان ازدراؤك لي هو ما جعل النسيان مستحيلاً بالنسبة إليّ».

«كنت أعني ما أقوله عندما أخبرتك أنني أطلقت سراحك، أنت حر بأن تكون كما تشتهي، أن تكون مع أي شخص ترغب بأن تكون معه، من أي لون أو جنس تحب- وما تخاطر به في أن تكون بحق ذاتك التي تشتهي، بالطريقة التي ترغب أن تكون بها. لست خسارتي، غير أنك لست جزآ في الاعتقاد بأني مغفلة»

لاحظ أنه فوق رأسيهما رسالة جديدة مضافة إلى صف الرسائل ورقة بيضاء فارغة وإلى جوارها صورة عيسي ثور ضخم، تشكل الصورة نهاية الصف عندما وقف بالقرب من الصورة اكتشف- بعد أن أمال بشدة رأسه وعنقه- أنها ليست عيسي ثور على الإطلاق وإنما

جدع شجرة عملاقة، وثمة برعم صغير، لا يزيد حجمه عن حجم إصبعه، يبزغ من إحدى الجهتين. لم تكن الورقة الموجودة إلى جوار الصورة فارغة، على الرغم من أن حجم خط اليد كان صغيراً على نحوٍ غريب. على الرغم من صغر حجم الخط، تعرف عليه، إنه خط آن- ماريون كتبت سطراً واحداً «من ليكون أسعد منك لأن شجرة (الغابن) لم تمت؟». كتبت، أيضاً بخط دقيق. «ربما انا»، لكن نصف الجملة محي لاحقاً

خلفه على الأرض، كانت مريديان تنحني مرة بعد مرة لتلمس أصابع قدميها، امتقع وجهها بتصميم جاد؛ اجتاحت جسد ترومان موجة من الامتنان لأنها على قيد الحياة. عندما توقفت لالتقاط أنفاسها سقط على الأرض إلى جوارها وأخذها بين ذراعيه. لكن مريديان مالت نحوه للحظة فقط، ثم واصلت ثني عضلاتها ومدها

قالت مريدين، عندما استلقت مجدداً على الارض، مرهقة. «ترومان، هل تذكر ما الذي جرى في آخر مرة خرجنا فيها سوية؟ هل تذكر كيف هاجمتني تلك المرأة ومن ثم صفقت الباب في وجهينا؟»

تذكر.

«لم اشرح لك قط سبب فعلتها تلك. فعلت ذلك لأنني اعرف شيئاً عن حبيبها أخبرتني هي عنه ولكنها الآن تتمنى لو انني لم أعرفه لانها خائفة من راي الناس بها ان عرفوا تلك السيدة تركت زوجها لأنه كان متيماً بكلبه»

ضحك ترومان.

«كلا كلا انا أعني ما اقول كان مغرماً بكلبه كان يشتري افضل الاشياء ليأكلها كلبه، ويمسد معطفه عشرات المرات في اليوم الواحد، ويتحدث إليه باستمرار، متجاهلاً اطفاله وزوجته كان يدعه ينام على أفضل سرير في غرفة الضيوف، ويبقى معه في بعض الليالي،

عندما طفح الكيل أخيراً بزوجته وسألته عن السبب، شرح لها أن الكلب لديه خصال أفضل من خصالها، فهجرته. أخذت أطفالها الخمسة وذهبت لتعيش مع والديها ولكن والدتها لم ترحب بها لأن الأطفال سببوا لها الصداع، ولهذا أقنعت ابنتها أنه حتى لو كانت القصة التي روتها صحيحة، فمن الأفضل أن تعود إليه، لأنه في نهاية المطاف، هو من يملك منزلاً ورائحته ليست نتنة وليس لئيماً، كما أنكم تأكلون على نحوٍ جيد ولم يعد إلى المنزل مخموراً أيام عطلة نهاية الأسبوع وضربها. لم يكن أمام الزوجة أي خيار، عادت إلى زوجها لأنها لم تستطع إطعام أطفالها بمفردها. ولطبع دفعت زوجها إلى قطع عهد بقتل الكلب»

«وهل قتل الكلب؟»

هزّت مريديان كتفيها.

قالت: «لا أعتقد بأن هذا هو بيت القصيد»

انعتاق

كانت قوية بما يكفي لترحل من دون أن يكون لديها ما تحمله معها. تخلصت من قبعتها، وأحاط الصوف الناعم لزغب شعرها الذي نما حديثاً وجهها النحيل ذا الملامح الصارمة. تمحورت فكرته الأولى حول لازاروس(25)، ولكنه حاول بعدها تذكر شخص أقل سلبية، شخص عصامي صنع نفسه بنفسه. مريديان ستعود إلى العالم وقد تخلصت من المرض. هذا ما عرفه.

أما ما شعر به فهو أن هناك شيئاً ما فيها يطابق تماماً ما كانت عليه دائماً ونجح أخيراً في معرفته عنها. إنه الجزء الذي ربما استشعره الآن ولكن عجز سابقاً عن رؤيته. لن يرى «حبيبته» مريديان مجدداً. نما الجزء الجديد خارج إطار القديم وكان ذلك مطمئناً. هذا الجزء منها، جديد وواثق وجاهز وحتى تواق للعالم، عرف أنه يجب أن يلتقي هذا الجزء مجدداً ويتعرف على قيمته الحقيقية في يوم ما.

«ازدواجيتك ستكون دائماً محط استنكار من يعتبرون أنفسهم ثواراً، وسلوكك غير التقليدي سيستدعي صرير أسنان التقليديين» قال ترومان الذي لم يكن في أعماقه معنياً بأي مجموعة، بأنها مجموعات متخيلة، وقدرة مريديان على السماح لأي فكرة- بصرف النظر عن مصدرها- بالتغلغل في حياتها بعمق أمر ما يزال ساحراً بالنسبة إليه.

«أمقت أن أفكر بوحدتك الدائمة».

قالت مريديان: «لكن هذه هي قيمتي، كما أن جميع الناس الوحيدين مثلي سيجتمعون ذات يوم عند النهر. سنراقب غروب الشمس ، وفي العتمة قد ندرك الحقيقة».

حضنته مطولاً، واستبقته (انغرس أنفها وشفتاها في عنقه ما دفعه إلى الضحك)، وبعدها رحلت، مشت بسرعة كما لو أنها على موعد مع أحدهم.

استدار ترومان، حرقت الدموع وجهه، وبدأ وقد غطت غشاوة عينيه، بقراءة القصائد التي تركتها على الجدران. لم يستطع دفع نفسه لقراءة الرسائل بعد. لقد أصبح منزله الآن على الرغم من كل شيء، زنزانته. سيأتي الناس إليه غداً ويحضرون له الطعام. سيأتي أحدهم ويحلب البقرة. سينتظرون بصبر أن يؤدي دوره، أن يأخذهم إلى الخطوة الصادقة التالية. ربما سيفعل.

«مهما بدر منك، يا أخي... اعرف بأنني أرغب بغفران ما فعلته... أحبك لا الحجر الكريستالي الذي قُدّ من براءتنا يجمعنا ولا ضرس نقائنا يعضّ قلوبنا الدامية».

شعر ترومان بأن الغرفة بدأت تدور به وسقط على الأرض. بعد دقيقة، اقترب مترنحاً بوهنٍ من كيس نوم مريديان ورمى نفسه فيه. شعر بقساوة حافة قبعتها تحت خده، أخرجها ووضعها على رأسه. راودته رؤية بوصول آن- ماريون يوماً، تائهة، إلى الباب الذي سيبقى مفتوحاً، وتساءل إن عرفت مريديان أن العبارة التي تدور حول تكبد عناء صراعها الروحي الذي فرضته على نفسها- وعاشت من خلاله- لا بدّ وأن صداها يتردد برعب الآن في قلوب جميع من تبقى منهم.

---

(1)- الكلمة وردت باللغة الفرنسية في النص الأصلي. (المترجمة).

(2)- مارتن لوثر كينغ. (المترجمة).

(3)- من قادة حركة الحقوق المدنية وقد كان قساً في البداية. (المترجمة).

(4)- «عميدة النساء» - «ماحقة النساء»: تلاعب لفظي بين كلمتي **Dean** و**Dead**. (المترجمة).

(5)- منحوتة لجيكوب فيلد أنجزها في بداية القرن العشرين وهي متواجدة في حديقة منيهاها في مينيابوليس. استلهمت المنحوتة من قصيدة الشاعر هنري وادسورث لونغفيلو المطولة «أغنية هيواثا» التي لاقت شعبية كبيرة في أواخر القرن التاسع عشر. (المترجمة).

(6)- Bedpost وتعني دعامة السرير. (المترجمة).

(7)- الكلمة وردت باللغة الفرنسية في النص الأصلي. (المترجمة).

(8)- حركة أتلانتا الطلابية التي أنشأها الطلاب المقيمون في حرم مركز جامعة أتلانتا مطلع العام 1960 وكانت جزءاً من حركة الحقوق المدنية. (المترجمة).

(9)- الكلمة وردت باللغة الفرنسية في النص الأصلي. (المترجمة).

(10)- الكلمة وردت باللغة الفرنسية في النص الأصلي. (المترجمة).

(11)- الكلمة وردت باللغة الفرنسية في النص الأصلي. (المترجمة).

(12)- الكلمة وردت باللغة الفرنسية في النص الأصلي. (المترجمة).

(13)- وردت في النص الأصلي: «Con U» الطالب يقصد اختصار كلمة Connecticut University، بينما فهمت مريديان أنه يقصد الفعل con والذي يعني إقناع، وأن U اختصار you. (المترجمة).

(14)- أرواح الشعب الأسود: *The Souls of Black Folk* الكتاب الجامع لمقالات عالم الاجتماع والناشط السياسي الأمريكي من أصول إفريقية دو بويز (1963 - 1868) الذي يعد من أهم دعاة الحقوق المدنية. (المترجمة).

(15)- السيد: *le maitre* وردت باللغة الفرنسية في النص الأصلي. (المترجمة).

(16)- ناشطة في مجال إلغاء الرق وحقوق الإنسان، نجحت في إنقاذ أكثر من سبعين شخصاً من

العبودية. (المترجمة).

(17)- ممثلة إيطالية (1971 - 1932) عملت في السينما الأمريكية وحصلت على جائزة غولدن غلوب عن فئة أفضل ممثلة عن دورها في فيلم «تيريزا». (المترجمة).

(18)- العلامة التجارية البولندية الشهيرة المتخصصة في مستحضرات التجميل. (المترجمة).

(19)- العلامة التجارية الأمريكية الشهيرة المتخصصة في مستحضرات التجميل. (المترجمة).

(20)- آنا أخماتوفا (1966 - 1889) شاعرة روسية تعد من أشهر الشعراء الروس في القرن العشرين، وكانت على القائمة القصيرة لنيل جائزة نوبل عام 1965. (المترجمة).

(21)- الكنيسة المعمدانية الليبرالية الثالوثية: Liberal Trinity Baptist Church.

(22)- شخصية متخيلة قدمتها ووكر على أنها قائد في حركة الحقوق المدنية. (المترجمة).

(23)- شخصية متخيلة قدمتها ووكر على أنها نجم سينمائي أمريكي من أصول أفريقية. (المترجمة).

(24)- شاعرة أميركية تعد من أشهر الشعراء المؤثرين في حركة الحقوق المدنية. (المترجمة).

(25)- (القديس لعازر) الذي أقامه السيد المسيح من الأموات وفقاً للإصحاح الحادي عشر من إنجيل القديس يوحنا. (المترجمة).